دعوة الحق

شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الرباط - المغرب

الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة

المجتمع الإسلامي
وانعدام كل مظاهر الفقر.



دعوة الحق • رجب 1405 — أبريل 1985 • العدد 247 • الثمن 4.00 درهم •

الأدب العربي المعاصر في المغرب الأقصى

إعـــلان

في إطار العمل الإسلامي الذي تضطلع به وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، لخدمة التراث الإسلامي عموما، وما يتصل منه بالتراث المالكي على الخصوص والهادف إلى إخراج نفائسه ونشرها على أوسع نطاق.

يسعدها أن تعلن عن اعتزامها تحقيق وإخراج الكتابين التاليين :

- تهذيب المسالك إلى نصرة مذهب الإمام مالك: ليوسف الفندلاوي.

- الدر المنظم في الاحتفال بمولد الرسول المعظم: للعزفي.

لذا، فعلى السادة العلماء والأساتذة والباحثين وكل من له رغبة في تحقيق أي من الكتابين المشار إليهما أن يتقدم بطلب في الموضوع إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (قسم الدراسات الإسلامية أو مصلحة إحياء التراث الإسلامي) مع إثبات اسمه الكامل وعنوانه ورقم الهاتف إن أمكن.



شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط . المملكة المغربية



أسسها
جلالة المغفور لـه
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957 م

التحرير :
الهاتف : 601.85

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

الاشتراكات : في المملكة المغربية : 70 درهماً
في العالم : 80 درهماً

الحساب البريدي : رقم 55-485 . الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

فهرس العدد 247

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية

عملٌ ريادي .. ورسالة متواصلة

□ يشهد انتشار الاسلام في القارة الافريقية وبخاصة في جناحها الغربي الواسع، على الدور الهام والرائد الذي قامت به المملكة المغربية، طوال تاريخها المجيد، ماضيا وحاضرا، في عملية هذا الانتشار، وفي امداده بالاسباب التي جعلت منه انتشار اشعاع اسلامي وثقافي واجتماعي وحضاري، يطور مستويات الحياة، ويفجر ملكات الانسان من أجل حياة أفضل .

والحقيقة التي أثبتها التاريخ، هي ان المملكة المغربية بعد وصول الفتوحات الاسلامية اليها، تحولت الى مصدر ينتشر منه دين الله على افريقيا كلها، وينبثق منه اشعاعه على جميع المستويات، وينطلق منه العمل الريادي الى بناء ونماء الانسان الافريقي المسلم في ظل الايمان والحرية والوحدة .

وفي كثير من أطوار التاريخ ومراحله المتعاقبة، يتعذر فهم تاريخ بعض الدول الافريقية واستيعاب تحولاته المختلفة، بدون ربطه بتاريخ المغرب، ذلك أن الوشائج القوية التي ربطت المغرب بافريقيا، وهي وشائج ظهرت على اكثر من مستوى، جعلت للمغرب ولافريقيا تاريخا مشتركا، ساهمت فيه العقيدة والدين كما ساهمت فيه العلوم والمعارف الى جانب المساهمة التي بذلها رجال الفتح من أجل نشر الرسالة المحمدية، وتحرير الانسان، واعادة بنائه على اسس جديدة من الحرية والعدالة والمساواة .

وبفضل الادوار الطليعية التي قام بها المغرب على هذا الصعيد بدون أن يكل أو يهن وتضعف ارادته أمام التحديات والمصاعب، انتشرت في افريقيا الغربية على امتدادها الشاسع، قيم الايمان بدين الاسلام الذي انبثق نوره وبزغ فجره في الجزيرة العربية ليعم العالم أجمع باذن الله ومشيئته، وفي كنف هذا الايمان ظهرت قيم التسامح والتساكن بين الافراد وبين الجماعات وبين الدول، وانتقت القيم التي تمجد الفردانية وتعلي مصلحة الاحاد على مصلحة المجموع، وحلت محلها قيم العمل المشترك من أجل الخير وسيادة المحبة والاخوة الاسلامية .

وعبر آلاف الزوايا والرباطات الدينية والجهادية التي تنتشر في افريقيا الغربية واصلت رسالة الاسلام انتشارها في هذه الربوع، فعمت الديار وأرسلت شعاعها الى أصقاع أخرى من افريقيا، فأصبحت أصقاعا تنتمي الى أمة الاسلام والمسلمين .

واذا تأملنا واستقصينا الدور التاريخي لهذه الزوايا والرباطات، لم نجده يقتصر فقط على نشر أصوله وتعليم فروعه للاجيال، او على رفع رواسب الجهالة عنهم وشدهم الى نور الايمان والمعرفة، بل ويتعداه الى تمكين هذه الاجيال من تحسس شخصيتها من منظور الاسلام، ومن العمل على تطوير وصيانة قيمها ومقوماتها وكيانها الذاتي وفق المبادىء والحقائق التي جاء الاسلام مقررا لها، ومن بينها مقومات المشاركة الجماعية في الذود عن الاسلام، وحماية مقدساته، بهدف الوصول الى ذلك الافق الانساني الذي رسمه الاسلام للافراد والدول والامم والجماعات، وأفق التوحد في ظل العبودية لله وحده وافرادها له سبحانه وتعالى وأفق التعايش في اطار من السلام والمحبة والصفاء المفضي الى الهناءة والسعادة .

وعلى امتداد افريقيا الغربية كلها، يلمس الباحث اليوم آثارا قوية الملامح واضحة القسمات، لذلك الوجود الذي مارسه المغرب ممارسة مؤمنة، ونابعة من تفهمه لرسالته الحضارية في ظل الاسلام، فهذه الآثار نفسها تدل كيف أن المغرب بعد دخوله في الاسلام اندمج في هذه الرسالة وامتزج بها فبادر الى نقل خصائصها القويمة الى شعوب افريقيا، والى بلورة شخصيتها الحية في عقيدة الاسلام الذي جعلها تنتقل بما بثه فيها من بذور الايمان والخير والعدل والمساواة، من طور الى طور تبدت فيه حضارة هذه الشعوب وطاقتها على المساهمة في اثراء التطور، وقدرتها على اعطاء وجودها قيما وطنية متميزة في ظل الاسلام وفي بوتقته التي انصهرت فيها هذه الشعوب ووحدتها الحضارية والتاريخية .

ومن المنظور الجغرافي البحت، فان الاواصر بين المغرب وافريقيا الغربية لم تنحل قط أو تنصرم الا حينما زحفت الجيوش الاستعمارية الغازية، منطلقة من أوربا على المغرب ومن ثم على افريقيا الغربية، الاستعمار الذي كان دهاقنته وغلاته على يقين تام بأن سقوط المغرب بين ايديهم يعني بالبداهة تصدع هذه المنطقة من افريقيا وسقوطها بالتالي تحت وطأة الاستعمار، ولهذا السبب فان المقاومة التي بذلها المغرب بقيادة العرش العلوي المجيد لدرأ خطر الاستعمار عنه، في وقت تكالبت عليه القوة الغاشمة لاوروبا، لم يكن هدفها منحصرا في حماية ذاته وسيادته وكيانه وحسب بل وكذلك في حماية افريقيا، والدفاع عن سيادتها، والذود عن كيانها .

وجرت الامور بعد ذلك في هذا المجرى الذي نبه صفوة من رجال السياسة والقيادة الفكرية والثقافية في افريقيا، الى حقيقة ناصعة هي ان المغرب هو درعها الواقية من خطر الاعداء والخصوم المتربصين بافريقيا وهو سندها الذي يحمي ظهرها من الاطماع والمؤامرات وهو العضد القوي الذي يقيها من مخاطر الذوبان والتلاشي والانحلال .

ونتيجة لهذه الحقيقة، فقد توطدت الاسباب بين المغرب وافريقيا، على كافة المستويات وفي جميع المجالات، وتضاعفت الصلات الجامعة بينهما، حتى توحدت في النضال المشترك من أجل اجلاء قوى الاستعمار غب ثورة الملك والشعب في 20 غشت من سنة 1953 بقيادة جلالة المغفور له محمد الخامس قدس الله روحه ووارث سره ورفيقه في الكفاح جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله .

ان طرق التجارة في الصحراء والزوايا الدينية والرباطات الجهادية المنتشرة في بلدان افريقيا الغربية، واعلام الفقه والصوفية والعلوم الدينية الذين كانوا يجوبون طوال قرون عديدة صحراء المغرب وصحراء افريقيا، كأنها صحراء واحدة، يضاف اليهم وفود الطلبة والمتعلمين والمريدين الذين يؤمون بدون كلل أرض المغرب للتعلم والحصول على الاجازات أو للتبرك من أعلامه في الصوفية، كل ذلك وغيره شاهد قوي على التأثير الديني والعلمي والثقافي الواسع الذي باشره المغرب في افريقيا الغربية مباشرة عملت على توحيد هذه المنطقة واحالتها الى مراكز للاشعاع الحضاري المتنوع واللامحدود، كذلك عملت على صهر شعوبها وقبائلها في دين الاسلام كدين شامل، يجمع الانسانية كلها على طريق واحد وعلى هدف واحد .

وتبعا لذلك، يمكن القول كما هو مقرر في كتب التاريخ وكتب الدراسات الحضارية التي تناولت بالتحليل تطور العلاقات بين المغرب وافريقيا الغربية، على هذا المستوى أو ذاك، أن الحضارة في هذه المنطقة كلها، أي في دول افريقيا الغربية، انبثقت من عمق ورسوخ الصلات بين المغرب وهذه المنطقة، وأن مستواها الذي بلغته في بعض العصور، من حيث الاشعاع والامتداد ونبض الحياة، لم يرق اليه مستواها الحضاري في ظل أي دين أو عقيدة أخرى، بمعنى ان هذه الشعوب التي ارتفع شأنها الحضاري، وكانت زاهية ومزدهرة، تم لها ذلك في كنف الاسلام .

وكل المؤرخين من المنطقة أو خارجها، وسواء كانو مسلمين او غربيين، يقرون بأن المملكة المغربية التي لم تلعب فقط دور الوسيط في نقل الحضارة الاسلامية الى افريقيا الغربية، ولكنها لعبت كذلك ولا تزال تلعب في هذا النطاق بالذات، دورا رائدا، ينشط فعالية هذه الحضارة في هذه المنطقة، ويوسع قنواتها ويفتح لها في كل مرحلة من التاريخ آفاقا جديدة تستشرقها شعوبها وأجيالها المسلمة.

وكذلك يعترف هؤلاء المؤرخون والدارسون لحضارة افريقيا الغربية الناشئة والمتطورة بفضل الاسلام، بأن دور المغرب ذاك، اعطى لهذه الحضارة ابعادا ومضامين جديدة، جعلت ـ من جهة ـ دول افريقيا الغربية تخلق وتطور حضارتها وفق مقوماتها الوطنية الاصيلة، مندمجة في القيم السامية والنبيلة التي جاء بها الاسلام لهداية المجتمع البشري كله الى طريق البر والاخوة والمحبة، وجعلت ـ من جهة اخرى ـ امتداد الاسلام وذيوعه، لا سيما في الاقطار الافريقية أمرا محتوما، نظرا للدعائم والمرتكزات التي أنشأها الاسلام وجعلها ثابتة وقارة في هذه الاقطار، وهي دعائم التسامح والتعايش والتساكن، وهو أمر لم يخل منه تاريخ الاسلام، في اي حقبة من حقبه، وفي أي جانب من جوانب المعمور، وصله وبلغ اليه في مشارق الدنيا ومغاربها.

وفي افريقيا الغربية اليوم على امتداد رقعتها الجغرافية كاملة، يقوم أكثر من شاهد على التأثير التاريخي الكبير الذي مارسه المغرب فيها خلال عصور مضت كانت كلها عصور ازدهار للثقافات والعلوم والحضارات والمعارف التي أنتجتها شعوب هذه المنطقة في ظل الاسلام، كما يقوم أكثر من شاهد على تواصل هذه التأثيرات واستمراريتها في الوجدان الديني والثقافي والاجتماعي لهذه الشعوب، فكل أثر من آثارها الحضارية النابعة من حضارة الاسلام، واجد أصله في الحضارة المغربية، النابعة بدورها من حضارة الاسلام، الامر في حقيقته، لا يتعلق فقط بالاستمداد من حضارة المغرب بل ويتصل كذلك بالتفاعل بين تينك الحضارتين معا حضارة المغرب وحضارة افريقيا الغربية، وبتواصلهما في ظلال الاسلام.

والواقع، هو أن الدور الطليعي الذي قام ويقوم به المغرب في هذه الدائرة، يكتسب مصداقيته من أهلية ذات محاور عديدة، فالمغرب هو همزة وصل بين افريقيا

كلها وبين أوروبا، وموقعه الجغرافي هذا، أعده لكي ينهض برسالة حضارية لا زالت محتومة عليه الى اليوم، وافريقيا الغربية من منظور هذه الرسالة تمثل أحد مهاد حضارة الاسلام في عالمنا المعاصر .

والمغرب كذلك هو أقصى نقطة جغرافية في رقعة الاسلام، فهو حدها الذي يمثل الجناح الغربي للعالم الاسلامي برمته، وهذا الموقع بدوره، جعل المغرب بلدا عليه مسؤوليات وواجبات، باعتبار ما يواجهه دائما من مناورات ومؤامرات تستهدف القضاء لا على هويته الاسلامية وحسب، بل وعلى هذه الهوية بالنسبة لمنطقة غرب افريقيا التي دخلها الاسلام وانتشر فيها منذ قرون عديدة .

والمغرب أيضا يعكس من الوجهة الحضارية البحتة، مركز استقطاب لهذه المنطقة كلها، فطوال العصور الذي ازدهرت حضارتها كان المغرب هو المنبع الذي ألهم المنطقة الحس الديني، وهو المصدر الذي انبثقت منه قيمها الحضارية والاجتماعية والفكرية والثقافية، وهو المركز الذي تلتقي فيه حضارات وثقافات هذه الشعوب والثقافات التي استمدت من الاسلام قوة، واستلهمت من العقيدة أسباب المناعة والاصالة والاستقرار .

وكل ذلك، يحتم حقيقة من حقائق التاريخ، وهي ان بين المغرب وافريقيا الغربية جميعها، من الصلات والروابط والوشائج المختلفة ما لا يمكن لهما اطلاقا تجاوزه والقفز عليه لاي سبب من الاسباب، بل ان هذه الوشائج والصلات هي من الرسوخ والتجذر، بحيث تفرض اليوم بشكل خاص، عملا وتعاونا وتعاملا مشتركا على سائر المستويات من اجل التمهيد لقيام مرحلة من الحضارة الاسلامية تجمع هذه المرة بين الاصالة والحداثة، وبين نصوع الماضي وعزم الحاضر واشراقة المستقبل، خصوصا وان ما يقوم من اسباب ذلك وحتمياته، هو اكثر واقوى من نقائضه.

فالاستعمار الذي جثمت قواته على صدر المغرب وافريقيا الغربية، قد ولى وانقضت فترته، واسباب التواصل وشروطه تجددت اليوم، بفضل تطور وسائل الانتقال والمواصلات بين المغرب وافريقيا الغربية، ثم ان نتائج وثمار هذا التواصل تتضاعف وتزداد مع الايام، لان افريقيا كلها، وهي قلعة من قلاع الاسلام وأحد حصونه المنيعة سيأتي الوقت الذي تطالبها فيه مقتضياته الحيوية، ان تكون افريقيا

مسلحة بالايمان لكي تقدم عطاءها لاوروبا على هذا المستوى بالذات، فلئن كانت أمم اوروبا لها من القدرة العلمية والتكنولوجية ما يؤهلها اليوم لتصدير انجازاتها الى افريقيا، من حيث الالية والعلوم التكنولوجية، فان افريقيا التي لها قدرة مماثلة على استيعاب هذه الانجازات واستخدامها، عليها ان تبحث من الان عن طاقتها وامكانياتها الذاتية التي ستشكل عطاءها الى اوروبا.

والمملكة المغربية التي عرفت عبر التاريخ بتأثيرها الحضاري الواسع سواء في اوروبا او في افريقيا، تترجح اهليتها في كافة الموازين وفي كفاتها معا، لكي تجدد مرة اخرى رسالتها ودورها في هذا النطاق.

ان افريقيا الغربية التي تتمذهب مثل المغرب بالمذهب المالكي، وهو سنة تاريخية لم ينقطع العمل بها منذ دخلت شعوب هذه المنطقة في دين الله أفواجا ليوحدها مع المغرب، على طريق العمل والتعاون والتفاهم المشترك، آصرة وشيجة وبالغة الرسوخ، تدل على عمق ومتانة ما بينهما من أسباب الفعل والتفاعل في نطاق التهييء لاعطاء المنطقة كلها، طابعا قويا من الحضارة والتمدن ومواكبة العصر ومسايرة ما يجد فيه ويستجد من عوامل ومتغيرات، تزيد هذه الحضارة نصاعة، والتمدن رسوخا بفضل ما يتوافر للمغرب وللمنطقة معا من رصيد يجمع بينهما على صعيد القيم والاصالة والتحرر.

ولا يتعلق الامر فحسب باستثمار هذا الرصيد الحضاري الجامع، بل وكذلك بمواجهة التحديات الحضارية في المستقبل، فالكيان المجتمع والشمولي هو اقدر من غيره بداهة على تحمل وطأة التحديات والاختيارات، والمغرب وافريقيا الغربية، اللذين يمثلان حضارة وكيانا مذهبيا واحدا، لقادران بمشيئة الله وعونه على ارتياد طريق جديد وافاق اخرى من التعاون والصداقة، تستمد من اصالة الماضي الجامع بينهما، ومن الثقة في الغد الافضل، ومن العزم على العمل في الحاضر، كل ذلك في كنف الاسلام والدفاع عنه وحمايته والتصدي لمؤامرات التفتيت والتشتت التي تريد تقسيم العالم الاسلامي، كحلقة من حلقات التآمر الاستعماري على الاسلام والمسلمين.

دعوة الحق

الإسلام

في مواجهة التحديات المعاصرة

للدكتور محمد الكتاني

- 1 -

عندما ننظر في موضوع التحديات التي يواجهها الإسلام اليوم فقد نختلف حول طبيعتها ونوعيتها وحجمها. أو حول ما هو منها تحديات حقيقية، وما هو منها تحديات زائفة، وما هو منها كيفي وما هو منها كمي، وما هو منها أصلي أو أصولي، وما هو منها فرعي، أو ثانوي.

وإذن فلابد من تحديد رؤيتنا لهذه التحديات منذ البداية، حتى لا نقع في العشوائية أو التحكمية، ونجهز على الحقيقة العلمية قبل الشروع في البحث عنها. وذلك لأن النتائج هي كامنة دائما في المقدمات، ومقدمة المقدمات في تناول أي إشكالية أو موضوع، هي الرؤية نفسها لهذه الإشكالية.

فلماذا نراها من هذا الجانب، ولا نراها من غيره ؟ لهذا تبدو لنا من هذا الوجه، ولا تبدو لنا من وجه آخر ؟؟

إن الحافز الذي يدفعنا إلى طرح مشكلة التحديات التي يواجهها العالم الإسلامي اليوم لهو الإحساس بأن أزمة العالم الإسلامي كامنة في أسباب ناشئة من داخل هذا العالم، وأخرى خارجة عنه. وأن هذه الأزمة تعتبر بأسبابها الذاتية والموضوعية بمثابة تحد حاسم يستوجب رد الفعل الضروري، باتخاذ الحلول الملائمة، وانتهاج المنهج الذي يتجدد به التلاؤم مع الدين في سلوك المسلمين وعقولهم، فيهتدوا إلى الاعتصام بمبادئ دينهم على أساس فهمه الفهم الحق الذي يعلو على المذهبية والتطرف والجمود، والسلوك وفق شريعته في روحها وأحكامها وقيمها.

هناك أولا جملة تساؤلات، يثيرها الموضوع من حيث هو طرح منهجي لهذه الإشكالية.

- 2 -

- ماذا نقصد بالتحديات ؟

- ولكي نعرف التحديات التي يواجهها الإسلام اليوم، لابد من معرفة أي إسلام نعني ؟ ما طبيعة هذا الشيء الذي يواجه التحديات في الإسلام ؟ هل هو عقيدته، أم شريعته، أم أخلاقه، أم حضارته، أم كل ذلك مجتمعا من خلال الإسلام ككل. عقيدة وبنية حضارية، وتاريخا سياسيا.

- ولكي نعرف التحديات على حقيقتها نتساءل من أي جهة تأتينا ؟ نعلم أنها تأتي من الغرب، أو من أوربا

لكن أي غرب، بالقطع إنه ليس الغرب الجغرافي، ولكنه الغرب الحضاري الذي هو أيضا بنية إيديولوجية وبنية حضارية، وهو ككل تاريخي وحضاري وإيديولوجي يتكون اجتماعيا وحضاريا من الكتلة الشرقية والكتلة الغربية المحسوبة من العالم المتقدم.

ـ ولن نستطيع إدراك التحديات بوصفها معاصرة، إلا إذا ألممنا بالتاريخ المعاصر الذي تكونت خلاله هذه التحديات. عبر صلاتنا العميقة بالغرب. حضاريا وثقافيا وتكنولوجيا، بل واستعماريا من جهته، ومقاومة وتحريرا من جهتنا.

ـ هكذا يفترض الموضوع الذي نتناوله تناول تاريخ متشعب ومتعدد المستويات لكل من الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية في صلاتهما الحديثة، وما ترتب على هذه الصلات من مواقف لا يزال الطابع الأساسي الذي يطبعها هو الصراع.

ـ 3 ـ

ينشأ التحدي من وعي الإنسان نفسه حين يضع الحوادث والوقائع التي يواجهها موضع السياق الجدلي بين ذاته وبين عالمه، أو بين كينونته، وبين الحياة التي تحيط بهذه الكينونة، من شروط للبقاء أو أسباب للزوال. فعندما يشعر الإنسان بأن كل لحظة في حياته هي إثبات ونفي، إثبات لاستمراره ونفي لزواله، وبأن هذه اللحظة تتطلب منه أمرين متلازمين : وعيها والسلوك المناسب لشروطها فحينئذ تصبح تلك الوقائع والأحداث ذات فعالية دينامية، تستوجب بذاتها ردود الفعل التي تثبت وتنفي. ويصبح التحدي هو الوضع الطبيعي الذي يحياه الإنسان، لأنه علاقة مستمرة بين الإثبات والنفي البقاء والزوال، الثبات والصيرورة.

ويرجع تداول مفهوم التحدي في لغتنا المعاصرة إلى نظرية التحدي والاستجابة التي فسر بها المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي ظهور الحضارات الإنسانية عبر التاريخ، فقد فسر في ضوء نظريته كيف كانت تلك الحضارات ناشئة من تحديات طبيعية وبشرية، واجهت بعض الشعوب التي وجدت نفسها أمام اختيارين، فإما الانقراض أمام تلك التحديات، وإما الاستجابة الإيجابية لها، باتخاذ أسلوب جديد لمواجهتها والتغلب عليها. وقد استأنس في نظريته هذه بمنطق الحياة نفسها الذي تعكسه كل الأساطير الإنسانية، والقصص الدينية، والوقائع الاجتماعية. ذلك أنه لكي يحصل تغيير ما في حياة الأفراد أو الشعوب لابد من حوافز تبعث على هذا التغيير للخروج من حالة السكون إلى الحركة، ومن الخمود إلى النشاط، ومن الاستسلام إلى الرفض. وينشأ الحافز دائما من التحدي، والتحدي يقتضي مواجهة الواقع بمنطق يلائم إرادة البقاء. وقد يقوى التحدي على حافز الاستجابة فيكون سوء المصير.

في ضوء هذه النظرية التي تعتبر التناقضات التي يفرزها الواقع الإنساني من ناحية أو يطرحها الواقع الطبيعي من ناحية أخرى عوامل حاسمة في تقرير مصير الأفراد والجماعات نستطيع أن ندرك أن ما يواجهه الإسلام اليوم من هذه التناقضات، وما يواجهه أبناؤه من التحديات هو واقع تاريخي لا مفر منه، غير أن الاستجابة المعادلة هي التي تحدد مصيرنا في نهاية المطاف. ما الذي يتلقى التحدي أو يواجهه في الإسلام ؟

إن الإسلام لا يأخذ مجرد بعد واحد، كالعقيدة مثلا أو الشريعة أو القيم إنه الكل العقدي والتشريعي والثقافي والحضاري. وعندما ننظر إلى الإسلام ككل لا يمكن أن نفصله أيضا عن تاريخه، هذا التاريخ الذي هو المجال الذي تحقق فيه الإسلام، وأبدع حضارته وتراثه وطبع شعوبا وأمما كثيرة بطابعه العميق.

الإسلام إذن في مفهومنا نظام عقدي ومنهجي وحضاري، أي بنية اعتقادية تتكون من شعب الإيمان المعروفة. وبنية منهجية تتكون من أحكام الشريعة التي تنظم حياة الإنسان ابتداء من حياته وهو جنين في بطن أمه إلى أن يصير عضوا في مجتمع، وفي أمة، وفي عالم. وتوجه حياته من حيث هو ساع سعيا يجزى عليه وكادح إلى ربه كدحا فملاقيه.

وهو ـ أي الإسلام ـ بنية حضارية ذات أبعاد مادية وثقافية واجتماعية متكاملة.

وقد كان التاريخ هو المجال الذي اتسع للتجارب الإنسانية لتمثيل ذلك النظام الإسلامي، وفي جميع أبعاده، فاقترب المسلمون من تحقيقه وابتعدوا، وساروا على هديه

وانحرفوا، واجتهدوا في كل مجال، فأصابوا وأخطأوا.

- الإسلام في بعده العقدي أي في الأصول والمبادئ منهج إلهي غير قابل للتطور والتغيير، فهو نص، أي قرآن موحي به من عند الله، لا مجال للفكر فيه إلا من جهة ما فيه من آيات متشابهات، يجتهد في تأويلها أما الآيات المحكمات فلا مجال فيها لرأي ولا لاجتهاد.

- والإسلام في بعده التشريعي أصول وأحكام ثابتة بالقرآن وبالسنة التي جاءت مبينة ومفصلة ومحددة لمضامين الأحكام. ولكن تشريع الإسلام قابل بحكم الأدلة المعتمد عليها في التشريع لمحاشاة كل تطور بالاجتهاد، قياسا وإجماعا، وإعمالا للأدلة الأخرى التي تدور كلها على المصلحة الإنسانية.

- والإسلام في بعده الثقافي والحضاري هو الإنتاج العقلي والمادي الذي أنتجته عقول أبنائه وسواعدهم في كل عصر مستلهمين قيم دينهم وأصول عقيدتهم.

فالإسلام منه ما هو ثابت، ومنه ما هو متغير. منه ما هو أصول خالدة، ومنه ما هو فروع متجددة بتجدد العصور والأجيال أو تجدد المصالح وتطور العلاقات.

وما يواجه التحديات في الإسلام هو عقيدته حينا، وشريعته حينا، وثقافته حينا، وتاريخه آخر الأمر أي التحامه بأهله أو التحام أهله به، وتشكيلهم لكتلة بشرية متضامنة مدعوة إلى اعتبار ذاتها خير أمة أخرجت للناس من حيث إيمانها بالله ودعوتها إلى كل معروف ونهيها عن كل منكر ومطالبتها بأن تكون شاهدة على الناس في هذه القيم، ساهرة على حفظها، مستبسلة في الدفاع عنها.

وقد كان تاريخ الإسلام كله تاريخا للمواجهة بين هذه القيم، وبين أضدادها بين أبنائه الذين أخلصوا لهذه القيم، وبين الذين ظلوا على الجاهلية أو مبادئ الجاهلية من نعرات قومية، وعقائد وثنية أو مادية أو شركية.

فقد ظهر الإسلام في أوائل القرن السابع الميلادي، في منطقة من بلاد آسيا (جزيرة العرب) شهدت التقاء أو تزاحم كثير من الديانات وتنافسها وصراعها واختلاطها، كالمسيحية واليهودية والمجوسية والوثنيات المختلفة وتغلب المسلمون على جميع الأمم الشرقية والغربية في أقل من قرن، وفرضوا عقيدتهم ولغتهم داخل بلاد شاسعة، دانت من قبل بعقائد مختلفة، وتقلبت في حضارات يانعة. فامتزجوا بتلك القوميات والحضارات التي ما فتئت أن دانت بعقيدة التوحيد. والتزمت بالشريعة الإسلامية، وساهمت في إثراء الفكر الإسلامي، ولكن بقدر ما نال الإسلام من هذا النجاح الباهر خلال فترة قصيرة من الزمن مني المسلمون بالشعوبية الحاقدة، وبالمؤامرات الداخلية، وبالانقسام المذهبي، وبتحديات خارجية حاولت القضاء عليه بتحويله عن وجهته تارة، أو بإشغال المسلمين بفتن داخلية تارة أخرى.

لقد مني الإسلام خلال القرون العشرة الأخيرة من تاريخه بنكبات ونكسات أصيب المسلمون خلالها بالهزائم والانقسامات والحروب الداخلية فكانت هجمات التتار في القرن السابع الهجري، وجاءت بعدها هجمات أو غزو الصليبيين للشرق الإسلامي، وجاء بعد ذلك طرد الإسلام من الأندلس وحركة التفتيش، وخيم الجمود والضعف على العالم الإسلامي إلا أجزاء منه لم تغير من واقع الأمر شيئا. ثم جاءت العصور الأخيرة فطوقت أوربا العالم الإسلامي في غزو صليبي جديد، ولكن باسم الاستعمار والبحث عن الأسواق والتبشير والتمدين.

وهذه حقائق وأطوار تاريخية لا يتسع المجال لتحليلها، نذكرها لنستنتج النتيجة الأولى التي تفرض نفسها بنفسها، وهي أنه لم يعرف التاريخ أمة عرفت ما عرفته الأمة الإسلامية من عوامل الزوال أو ما عرفته عقيدة الإسلام من عوامل التحريف والتضليل. وما عرفه الإسلام والمسلمون من نكبات كانت الواحدة منها كافية للقضاء على أقوى الامبراطوريات ولكن، كيف خرج العالم الإسلامي من كل هذه الأزمات والنكبات والتحديات ؟ خرج العالم الإسلامي بعد كل هذه التحديات منذ بداية هذا القرن بيقظة شاملة فانتظم شمله في دول حديثة وأخذت شعوبه تتحرر من التبعية، وتسترد استقلالها السياسي وتجدد أنظمتها وتستغل موارد ثرواتها، وتسترد مكانتها بين الأمم الناهضة، وانتقل تعداد المسلمين من مئتي مليون أو دون ذلك إلى نحو ألف مليون مسلم أو ما يناهزها.

فالتوازن بين عوامل البقاء وعوامل التحدي في عالمنا الإسلامي تشكل إذن تاريخا عجيبا نحن اليوم في أمس

الحاجة إلى قراءته والاعتبار بعبره.

وليس تعليل صمود الإسلام، وصمود التاريخ الإسلامي، واستمرارية الشعوب الإسلامية في نطاق هوياتها الحضارية والدينية، بل ونموها واتساع رقعتها في العالم المعاصر بعدما مر عليها من نكبات وعوامل زوال، وتحديات تتجاوز الطاقة الإنسانية بالأمر السهل اليسير. ولكن تعليل هذا الصمود وذلك البقاء بقوة العقيدة وشمولية الدين، ونظام شريعته ينبغي أن يكون في مقدمة كل تعليل.

ولا أدل على ذلك من أن جميع عوامل الانبعاث واليقظة لدى الشعوب الإسلامية تقدمتها في العصور الحديثة حركات الإصلاح الديني، والدعوة إلى تجديد العقيدة والعودة إلى الرصيد الحضاري الإسلامي لاستلهام تراثه الذي أدخره السلف للخلف، وربط الحاضر بالماضي، في المشرق والمغرب.

- 5 -

لكن بقدر ما كان لهذا الصمود الذاتي، والتجديد الديني والوعي الإسلامي من حضور في التاريخ الحديث على طول القرن الأخير نجد عوامل التفرقة أقوى من عوامل التضامن، وأسباب العداء، أقوى من أواصر الإيخاء، ودلائل الانهزام أمام التحديات الحضارية أوضح من دلائل الاقدام.

ولا أدل على ذلك من النكبات التي مني بها عالمنا الإسلامي وفي مقدمتها نكبة فلسطين والحروب الطاحنة الدائرة بين بعض شعوبه وعجز كل منظماته عن جمع كلمته وتوحيد صفه. واعتباره ضمنمجموعة العالم الثالث التي هي شعوب نامية واقعة وراء خط التخلف والتبعية الاقتصادية والتكنولوجية للغرب.

ولذلك تختلف نظرات الباحثين والدارسين في تقويم واقع العالم الإسلامي بين متفائل يظن أن تطور الأوضاع في المجتمعات الإسلامية لابد أن يقودها من هذه الأحوال إلالى نقيضها، أي من الشتات إلى الاجتماع، ومن الصراع إلى الوفاق، ومن التخلف والانقسام إلى التقدم والانسجام. ولا سيما حين تشعر بأن عدوها واحد، وتحدياتها واحدة، وبين متشائم لا يرى سوى العوامل السلبية التي تشككه في إمكان بلوغ المسلمين على المدى القريب أو البعيد إلى مصاف القوى العالمية التي تتحكم في مصيرها. على أنه للخروج من حالة التفاؤل أو حالة التشاؤم اللتين لكل منهما ما يرجح بها على الأخرى للاهتداء إلى منبع الداء ونجاعة الدواء يجب التمييز بين ما يعتبر تحديات داخلية نابعة من واقع المسلمين أنفسهم في علاقاتهم بأنفسهم وعلاقتهم بعقيدتهم وشريعتهم، وبين التحديات الخارجية التي تجئ من المواجهة الخفية والظاهرة بين الغرب والشرق، أو بين الإسلام وبين خصومه في الشرق والغرب.

والتمييز بين الأدواء أو علل التخلف وأسباب الضعف أسبق في منطق العقل من تحديد العلاج، ووصف الدواء.

إن التحديات التي نواجهها تدور في مجملها حول محورين :

- محور واقعنا المتخلف.
- ومحور واقع الغرب المتقدم.

كيف نظرنا حتى الآن إلى هذه التحديات، سواء ما كان منها داخليا يتصل بتخلفنا، أو خارجيا يتصل بتقدم الغرب الذي يطوقنا ؟؟

هناك نظرتان : نظرة تتمحور حول تخلفنا وحده، وتنطلق من تصورنا لأنفسنا في تحليل غير تاريخي، فهناك في نظر طائفة ما إسلام، أي مجموعة مبادئ وأحكام ابتعدنا عنها فابتعدنا عن موقع القوة والسيادة. هذا التحليل لا ينظر إلى العوامل التاريخية، ولا إلى سنن التطور البشري، ولا إلى واقع الطبية الإنسانية في علاقتها بالطبيعة الكونية.

وهناك نظرة تتمحور حول تقدم الغرب، وتنطلق من اعتبار الغرب مثالا كونيا.

إن المنهج المطبق في ضوء هذه النظرة هو تحليل عوامل تخلفنا في ضوء المنطق الأوربي، وتحليل عوامل التقدم الأوربي في ضوء تحليل تاريخ أوربا نفسها، ولذلك تكون النتيجة واحدة في جميع أصناف التحليل سوى الآخذين بالنظرة الغربية في التاريخ وهي أنه لا يبقى خيار لنا إن شئنا الخروج من واقعنا سوى الالتحاق بتاريخ الغرب، والانفصال عن تاريخنا الإسلامي، وفي ضوء هذا التحليل نفهم معنى ظهور الدعوات التالية في عالمنا العربي في النصف الأول من هذا القرن، هذه الدعوات التي قام

بنشرها دعاة الإصلاح العلماني.

- الدعوة إلى التحرك مع الدوافع والمصالح القومية، كما فعلت أوربا في عصورها الحديثة، لا معالأخوة الدينية والتضامن الديني، لأنه وهم من الأوهام، فالقومية أولى من الرابطة الدينية.

- الدعوة إلى العاميات واللهجات القومية وإلغاء الفصحى لأن أوربا ألغت اللاتينية، وانصرفت إلى إحياء لغات قومية هي التي صارت لغة الآداب والعلوم.

- الدوعة إلى إلغاء الدين من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والاقتصار على الدين كعقيدة شخصية، وبذلك ظهرت دعوات الفصل بين الدين والدولة لأن الأوربيين فعلوا ذلك فتحرروا من الخلط بين الدين والسياسة، ورفعوا شعارا لهم، «إعطاء ما لله لله، وما لقيصر لقيصر»، هذا ما فعلته أوربا في تاريخها الحديث، ومن ثم تمتلئ صحفنا وكتبنا اليوم بالحديث عن التراث في مقابل المعاصرة.

قد يدعم أصحاب هذه النظرة موقفهم، وهم يصرون على ذلك بالفعل بأن تاريخ أوربا هو تجربة إنسانية عامة، لابد من الاستفادة منها ومن علومها ونتائجها في هذه المبادئ كلها، كما تستفيد اليوم من تكنولوجيتها ومن علومها وأنظمتها. والجواب على ذلك هو أن الشعوب لا يمكن أن تتجاهل معطيات تاريخها وشخصيتها لتندمج في تاريخ آخر، وتنتحل معطيات غير معطيات شخصيتها. وأنها حين تفعل لن تصل بهذه الطريقة إلى اللحاق بمن تريد من الأمم وبتاريخها. وقد أتاح لنا التاريخ الحديث مثالا على ذلك بدولة إسلامية خرجت من تاريخها الشرقي الإسلامي، ودخلت في تاريخ الغرب، فاتخذت الحروف اللاتينية بدل العربية وأزالت العمامة ولبست القبعة، وأطرحت الشريعة الإسلامية، وفرضت على أهلها الاقتصار على الدين كعقيدة شخصية، واصطنعت الفكر العلماني والمؤسسات العلمانية، ومضى على ذلك نصف قرن حتى اليوم، فلا هي صارت الولايات المتحدة ولا الاتحاد السوفياتي، ولا اليابان، ولا أي نموذج من نماذج الدول الغربية الكبرى.

هكذا التقى في التاريخ الحديث صراع بين تاريخين أي حركتين حضاريتين إحداهما أنشأها الإسلام، ومرت بتجارب وأطوار، تكونت في بوتقتها ثقافة وحضارة الإسلام، والأخرى أنشأتها أوربا الهلينية والمسيحية والعقلانية في آن واحد. ومرت هي الأخرى بتجارب وأطوار تكونت في بوتقها ثقافة وحضارة الغرب.

والتحدي الأكبر الذي نواجهه ينشأ من تفوق الحضارة الأخيرة وامتلاكها لتقنية العلم والتكنولوجيا واستثمار الطبيعة ووسائل التنظيم، واعتمادها على منطق للقيم الأخلاقية يختلف جذريا عن المنطق الذي تأخذه به الحضارة الإسلامية. ويلتبس هذا التفوق لدى الكثيرين منا بالتفوق الإيديولوجي، أو يكاد يمتزج به، في ضوء التأثر بمنطق الغالب، «والمغلوب مولع بتقليد الغالب» من غير تحليل ولا فحص لهذه النتائج ولا لعلاقتها بالمقدمات.

كما يوضع هذا التفوق الحضاري أمام التخلف الحضاري الذي منيت به الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، فيؤخذ الواقع الإسلامي بمثابة حجة على الإسلام نفسه، وكأنه مسؤول عن هذا التخلف. وتقدم الأمثلة التي لا حصر لها عن مظاهر الرجعية، وعن الخرافة وعن التواكلية وعن التعصيب، وعن التطرف الديني، وعن الفقر الفكري وكأن الإسلام هو المسؤول عنها جميعا.

- 6 -

كان يجب أولا أن نفرق بين الإسلام الذي هو دين سماوي مستوفى الأصول والمبادئ والأحكام في القرآن والسنة النبوية الصحيحة، باعتبار هذه الأصول هي الإسلام في إطاره الثابت الذي لا مجال فيه أو معه لنسخ أو تغيير، وبين التصورات الفكرية للعقيدة والشريعة في تفاصيلها المتروكة للاجتهاد والتأويل. والقرآن نفسه ينص على أن منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات. فالتصورات والتأويلات تعتبر دائما نسبية، ولهذا نشأت وتطورت، وأصبحت عبارة عن مذاهب كلامية وتشريعية، وسياسية.

فبهذه التفرقة نعتبر الإسلام هو المطلق لأنه الوحي الإلهي ونعتبر الفكر الإسلامي هو النبي، لأنه مجرد اجتهاد وتأويل خضع لظروف أهله وأطوارهم التاريخية.

وهذا ما عبر عنه بعض الباحثين «بالمذهبية

الإسلامية». يجب أن نضع الإسلام في حاق معناه بهذا التمييز، وأن نميز بين العقيدة والشريعة المقررتين في الوحي، وبين ما نشأ من بنيات فكرية وسياسية وحضارية وثقافية إسلامية بحكم قوانين التاريخ وقوانين البيئات والقوميات.

والدليل على كون هذا التمييز ضروريا حتى بالنسبة للعصور السابقة هو أننا نلاحظ في تاريخ الإسلام نفسه نشوء المذهبيات المتعددة، فلم لم يكتف المسلمون بمذهب فقهي واحد ؟ ولم لم يكتفوا بمذهب كلامي واحد ؟ ولم لم يكتفوا بمذهب سياسي واحد ؟؟

وقد كانت نصوص القرآن والسنة بين أيديهم ؟ الواقع أنهم اضطروا إلى هذه المذهبيات اضطرارا لا خيار لهم فيه. لأنهم اضطروا إلى استعمال الرأي أي العقل في الفهم والتصور والتطبيق والممارسة.

وكلما ابتعدوا عن بيئة الإسلام الأولى (وهي الحجاز)، واتصلوا ببيئات حضارية بعيدة وقوميات مختلفة كلما ازدادت الحاجة إلى الاجتهاد وإعمال الرأي. فنشأ فقه في العراق متميز عن الفقه الذي نشأ في الحجاز، ونشأ علم كلام في البصرة حيث ملتقى الثقافات الأجنبية غير علم الكلام الذي كان في بيئة الحجاز.

وتعددت المذهبيات ولكن تعددها كان خيرا ومصلحة في مجال الفقه، لأنه حقق التوازن بين مطالب الشريعة وضرورة الواقع الحضاري في كل بيئة. ولكنه كان شرا وخطرا في مجال العقيدة أي علم الكلام، لأنه فتح المجال لاسترداده النزعات المجوسية والفلسفية المادية، وتقمصها الفكر الإسلامي. ووقف علماء السنة يذبون عن العقيدة بما وسعهم من جهد، وقد أحسوا بالخطر الداهم، إنهم لم يرفضوا دور العقل، ولا رفضوا الاجتهاد. ولكنهم رفضوا الرأي في الدين بغير أساس معقول.

وهذا ابن القيم رحمه الله يقول : الرأي ثلاثة أقسام (1).

رأي باطل بلا ريب، ورأي صحيح، ورأي هو موضع الاشتباه، والأقسام الثلاثة قد أشار إليها السلف، فاستعملوا الرأي الصحيح، وعملوا به وأفتوا به، وسوغوا القول به، وذموا الباطل، ومنعوا من العلم والفتيا والقضاء به، وأطلقوا ألسنتهم بذمه وذم أهله.

والقسم الثالث سوغوا العمل والفتيا والقضاء به عند الاضطرار إليه، حيث لا يجود منه بد، ولم يلزموا أحدا العمل به، ولم يحرموا مخالفته، ولا جعلوا مخالفه مخالفا للدين، بل غايته أنهم خيروا بين قبوله ورده، فهم بمنزلة ما أبيح للمضطر من الطعام والشراب الذي يحرم عند عدم الضرورة إليه، كما قال الإمام أحمد : سألت الشافعي عن القياس، فقال لي : عند الضرورة، وكان استعمالهم لهذا النوع بقدر الضرورة، لم يفرطوا فيه ويفرعوه ويولدوه ويوسعوه كما صنع المتأخرون بحيث اعتاضوا به عن النصوص والآثار.

علينا أن نقرأ (تاريخنا) الفكري الإسلامي بعمق، وبتحليل، لنقف على مكونات فكرنا اليوم ولندرك ما يواجهنا اليوم من تحديات داخلية لها مظهران :

- المظهر الأول : المذهبية الاعتقادية الموروثة التي شلت حركة الازدهار والوفاق والتضامن الإسلامي، والتي تحولت إلى صراع داخلي استنزف طاقات المجتمعات الإسلامية وصير بعضها خرابا على الآخر على مدى عصور وعصور وإلى اليوم.

وقد روى عن النبي ﷺ قوله :

«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة».

وفي رواية أخرى زيادة : «كلها في النار إلا واحدة، قيل ومن هم ؟ قال : الذين هم على ما أنا عليه وأصحابي»(2).

---

1) يوضح ابن القيم الفرق بين الرأي والرؤيا والرؤية.
- فالأول يعني ما يراه القلب من فكرة بعد تأمل وتدبر واستئناس بالأدلة.
- والثاني ما يراه النائم في النوم.
- والثالث ما يراه المرء بحاسة البصر.

2) عرض الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) للحديث عن مذاهب الاعتقاد فذكر ما يلي :
- للمعتزلة : 17.
- ولأهل السنة : 3.
- وللمرجئة والخوارج : 20.
- وللشيعة : 26.

وقد كان هذا الحديث موضوع جدل طويل وخلاف كبير، حول الفرقة الناجية، أو عقائد الفرقة الناجية.

هذه الفرق المتعددة هي التي كان يواجهها كل مجدد ومصلح في تاريخ الفكر الإسلامي. وقد واجهها في سياق هذا التجديد والإصلاح من قبل الإمام الأشعري الذي قرب بين المختلفين جهده وأقام مذهب السنة والجماعة، ثم واجهها بعده ابن تيمية الذي هاجم المبتدعة، وحاول الرجوع بالفكر إلى الأصول، ثم واجهها في العصر الحديث الشيخ محمد عبده عندما علق على الرسالة العضدية (لعضد الإيجي المتوفى سنة 756) وأوضح أن ما أضر بالمجتمعات الإسلامية ليس هو وجود فرق ومذاهب، ولكن الاعتقاد بأن أيا منها هو من القداسة والعصمة بما لصاحب الشريعة (ص) أو للنصوص الموحى بها، وقال في عبارة وكأنه يصيح بالمسلمين : «ألم يأن لنا أن نرجع إلى المعروف مما كان عليه سلفنا، فنحيا بما كان قد أحياهم، ونترك ما ابتدعه أخلافهم مما أماتهم وأماتنا معهم».

وهذه الفرق كلها عرض لها التطرف بوجه من الوجوه الأربعة التالية :

- وجه الجمود والتحجر ورفض إعمال العقل.
- وجه الإسراف في استعمال العقل وتأويل النص.
- وجه التفرقة بين الظاهرة والباطن في النص، وحمل النص على مذاهب غنوصية وفلسفية قديمة.
- وجه التفرقة بين الشريعة والطريقة والحقيقة.
- المظهر الثاني وهو التطرف الديني. وهو وجه آخر لهذه المذهبية، وامتداد لها، وهو التعصب في الانتصار لفهم واحد في الإسلام، ما أنزل الله به من سلطان، واعتبار ما عداه بدعة من البدع الواغلة على الإسلام. نعم إن تطبيق أحكام الشريعة والغيرة على عقائدها الصافية السمحة ليس تطرفا دينيا بأي حال من الأحوال. صحيح أن (التطرف) كلمة مطاطة قابلة للاستعمال النسبي إلى مد بعيد. وقد يستعملها في الحكم على موقف ديني سليم وموضوعي شخص متحلل من الشريعة، يعتبر الإسلام ممارسة عقلية ووجدانية لا شرعية ولا عملية، فيعتبر كل متدين ملتزم متطرفا، ولهذا ينبغي أن نحذر من هذا الاستعمال ومن هذا الفهم المغرض.

إن التطرف الذي نقصده هنا هو الزيادة في التشديد على الناس في دين الله، والله يقول : ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾ ويقول النبي ﷺ «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا».

وروي أبو يعلي في مسنده عن أنس بن مالك أن الرسول ﷺ قال : «لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم، فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿**رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم**﴾.

وقال تعالى : ﴿**قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل**﴾ (3).

نعم من حق الواحد منا أن يبالغ في العبادة والالتزام والورع إن كان زاهدا متصوفا أو عابدا يدع الشبهة ويعتبرها زلة، ولكن ليس من حقه أن يلزم بذلك عامة الناس.

وقد روى البخاري في صحيحه «إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف، فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما يشاء». وعندما أطال معاذ مرة بالناس قال له الرسول : أفتان أنت يا معاذ ؟

وأكثر من ذلك فإن القرآن الكريم يشير إلى ضعف الإنسان وعدم قدرته على التجرد والإخلاص لله بالقدر الذي يفوق طبيعته المركبة من مادة وروح، فقال تعالى : ﴿**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها**﴾ وقال تعالى في دعاء المؤمنين : ﴿**ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به**﴾ وقال تعالى : ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾ وقال : ﴿**إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما**﴾ (4).

فكيف بقوم يخالفون كل هذه النصوص، ويتعصبون لفهم واحد، أو اجتهاد واحد في تأويل النصوص وتوجيهها، ثم يعتبرون ما عداه كفرا، وهو ما وقع للخوارج في صدر الدولة الإسلامية وهم أهل قراءة للقرآن وعبادة وإخلاص.

3) المائدة - 277.
4) النساء - 31.

كما يحكي لنا الإمام الأشعري في (المقالات) ثم صاروا بتطرفهم وعلومهم طوائف شتى وفرقا متفرقة، كلها قالت بتكفير أهل القبلة إلا من كان على مذهبهم. ومن يقرأ كتاب (المقالات) هذا ويطلع على شعب آرائهم يحار كل الحيرة أمام هذا التشعب والاختلاف. ويتساءل بحق : كيف استطاع الإسلام أن يستمر مع هذا التطرف المقيت ؟؟

ومن يقرأ عن التشيع والشيعة في التاريخ الإسلامي يقع في نفس الحيرة وتهوله هذه الآراء الدخيلة، والأفكار المتطرفة، والتصورات الباطنية المدسوسة، وأدرك كيف تأخر المسلمون، عندما سادته هذه المذهبيات وفرقت كلمتهم أهواء حكام وجدوا في تلك المذهبيات ذريعة للفتك والتحكم وإرضاء الشهوة إلى السلطة.

إن عقابيل الانقسام المذهبي ما تزال تفعل فعلها في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، ولا سيما في المشرق الإسلامي، وهي التي تشكل عقبة في سبيل الوحدة الإسلامية المنشودة.

- 7 -

أما التحديات التي تواجه الإسلام والمسلمين من خارج مجتمعاتهم فهي التحديات التي تأخذ عدة مظاهر أساسية ويمكن تصنيفها إلى ثلاثة رئيسية :

1 - التحدي الإيديولوجي - الثقافي.
2 - التحدي الاقتصادي - السياسي.
3 - التحدي التكنولوجي - العلمي.

إن هذه التحديات الكبرى تتكامل فيما بينها، ويتقدم كل واحد منها في إطار الآخر، فهي متداخلة، ولا تقبل الانفصال عن بعضها، ولذلك تبدو الحضارة الغربية بسبب التداخل بين الإيديولوجيا، والتكنولوجيا والتنظيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي شيئا واحدا، لا يقبل الانشطار.

وهكذا تقترن الاشتراكية المادية في الحضارة الغربية بإيديولوجيا (المادية العلمية) وتقترن الرأسمالية بإيديولوجيا (الوضعية التجريبية) وتعزز كل منهما مذاهب متنوعة ولا سيما في مجال الفلسفة والمناهج الاجتماعية والعلوم الإنسانية.

ويصبح التفوق الحضاري الغربي حجة على المنكرين لتلك الإيديولوجيات التي وإن اختلفت في التشكيل البنيوي للمجتمع، فإنها حققت لكل من القوتين العالميتين المتقابلتين نفس التفوق ونفس الاتجاه للسيطرة على الطبيعة والمجتمع.

1 التحدي الإيديولوجي - الثقافي :

إن التحدي الحضاري الغربي يبلغ درجته القصوى عندما يغزو الفكر في العالم الإسلامي بفرض أطروحته الأساسية، وهي أن العلم اليوم ينسخ الدين وأن العلم اليوم يكشف كيف كان الدين مجرد تفسير وهمي للحقائق الكونية. وأنه أي الدين لم يتجرد حتى في تفسيره من محالفة الاقطاع والاستغلال. وأن الفردوس الذي يحلم به المتدينون وراء العالم المادي، أصبح العلم يحققه على الأرض.

ويأخذ التحدي الإيديولوجي - الثقافي عدة مظاهر أساسية. **كالعلموية والعلمانية والتقدمية والمنهجية.**

ونقصد بالعلموية النزعة التي تعطي للعلم بالمعنى التجريبي السلطة العقلية المطلقة لاكتشاف حقائق الطبيعة والحياة الاجتماعية، والنزعة القائلة بضرورة تعميم استخدام المنهج العلمي التجريبي في كل ميادين الحياة الفكرية والروحية والأخلاقية.

وهذه النزعة هي التي تغزو عالمنا الإسلامي من خلال تيارين :

أولهما : تيار المادية الجدلية باعتبارها وحدها تستطيع تفسير حركة التاريخ البشري. من خلال ما تكشفه من قوانين تطور الإنتاج المادي، ومن خلال ما تؤكده من تبعية جميع مظاهر الحياة المختلفة من اجتماعية وثقافية وروحية للإنتاج المادي، وبالتالي فإنها وحدها تدرك المنطق الموضوعي لتطور ولمصائر الإنسان، وبذلك تعتبر الطبيعة الإنسانية مثل الطبيعة العضوية والكيميائية والفيزيائية لابد لها من قوانين، وهذه القوانين ليست سوى قوانين المادة. (أنظر قوانين المادية التاريخية 94/95).

وهي لا تكتفي بأن تفسر للتاريخ الغربي في ضوء هذا المنطق المادي باعتباره التاريخ الذي أفرزها، ولكنها تتناول تاريخ الإنسانية كلها، بالتفسير المادي، وهي تتعمد تناول المجتمعات الدينية بالخصوص بالتحليل المادي فيواجه العالم الإسلامي من خلال أبنائه في الجامعات

والمؤسسات العلمية كلها تلقينهم تفسير ظهور الإسلام وما عرفه من أطوار بعد نزول الوحي وقيام الدولة الإسلامية تفسيرا ماديا يصبح معه الإسلام مجرد عقيدة أو ثورة ظرفية أفرزها الصراع الطبقي، ثم تحولت إلى خدمة الإقطاع فيما بعد.

من الطبيعي أننا لا ننكر دور العلم بمعناه المنهجي أو التجريبي في حياة الإنسانية وما أفضى إليه من تقدم بشري على كافة المستويات. ولكن العلم التجريبي وتحكيم العقل في الإسلام خاصان بالميادين التي تعتبر مجالا حقيقيا لبحث العقل وإجراء التجارب وتعقب الظواهر الكونية، كالطبيعة المادية والإنسانية (الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا مثلا) أما ما يتجاوز حدود العقل والملاحظة والتجريب والحقائق الكونية الغيبية، فإنه من مجال الوحي الذي يضيء جوانب القلب من مشكاة النبوة، فيؤمن الناس بتلك الحقائق سلفا ويسترشدون شريعة الله في تحقيق سعادتهم.

ثانيهما : تيار العلمانية، وهي نزعة تقول بضرورة فصل المؤسسات السياسية والاجتماعية عن الدين، فالحكم في أي بلد بجميع مؤسساته يجب أن يكون منفصلا عن العقيدة الدينية التي هي عقيدة شخصية للأفراد فقط. وذلك لأن منطق حكم المجتمعات في نظرها يستمد قوته من التجارب والممارسات والمصالح الاجتماعية، وليس من منطق غيبي ينزل على الناس من السماء. والعلمانية بهذا المدلول لا تقول بضرورة استثمار العلم وتجارب العلوم في الحياة الإنسانية، فهذا المعنى مما لا يجادل أحد في قيمته، ولكنها تدعو إلى أخلاق اجتماعية وسياسية اجتماعية، وإلى قيام سلطة لا تستمد قوتها ولا تصوراتها من أي دين من الأديان السماوية.

فشريعة الله، والعقيدة في أي دين سماوي لا يجوز لها أن تظل مصدرا للشريعة التي تتمتع بها السلطة الحاكمة في البلدان ذات المعتقدات الدينية.

هذه النزعة هي التي ظهرت منذ أوائل هذا القرن داخل بعض البلاد الإسلامية وطالبت يومئذ بفصل الدين عن الدولة، بمعنى اعتبار الدولة، والتنصيص على ذلك دستوريا بأنها غير ملزمة ولا متقيدة بالشريعة الإسلامية، وقد فجرت هذه النزعة في نفوس طائفة غير قليلة من مثقفي العالم الإسلامي الذين انتهت إليهم مقاليد السلطة أحيانا، أو أصبحوا يؤطرون الكثير من المؤسسات السياسية والاقتصادية، وليست لهم فضلا عن جهلهم بأحكام الشريعة الإسلامية وأصولها، أية غيرة ولا حمية على الإسلام من حيث هو دين قائم أساسا على مبدإ تنظيم الحياة الإنسانية تنظيما شموليا يمس كل مستوياتها ونجدهم في كل مناسبة يناقشون أو يعارضون أن يكون للدين دخل في المجال السياسي والاقتصادي.

ومن هنا أخذت القوانين الوضعية تنهال على المجتمعات الإسلامية غير عابئة مما يمكن أن يكون لها من تصادم مع الأحكام الإسلامية الشرعية في غياب الاجتهاد الفقهي، وتطور أوضاع المجتمعات الإسلامية تطور ألجأه إلى الاحتكام إلى القانون الوضعي من غير تريث أو انتظار.

فالحضارة الغربية بقيامها على هذه النزعات الأساسية، وعلى نزعات أخرى موازية لها، لا تتحدى العالم الإسلامي ومجتمعاته، والإسلام نفسه من حيث هو دين تنازعه أديان أخرى كما كان الشأن في العصور السابقة. ولكن من حيث أن هذه الحضارة تعتبر الدين من حيث هو عقيدة غيبية، وشريعة مكملة لها قد تجاوزه التطور البشري علميا لا أقل ولا أكثر.

هكذا تتميز الرؤية الأساسية للحضارة الغربية الغالبة اليوم والسائدة بكل مظاهرها الفكرية والثقافية عن الرؤية الأساسية للإسلام التي قامت على قواعده حضارة إسلامية منذ عصور وعصور.

ولذلك وقع الصراع بين الحضارتين، ووقع الصراع بين الرؤيتين، وظل التحدي يطبع المواجهة المستمرة حتى اليوم بين نظام ونظام.

وربما كان من أعمق وجوه التحدي البارزة على الصعيد الحضاري اليوم، التي تتحدى ثقافة الإسلام وحضارته وعقيدته وتراثه أن علاقة كل من الحضارة الغربية، والحضارة الإسلامية بالتاريخ مختلفة. فالتاريخ هو الذي يحدد الهوية الإنسانية للفرد والجماعة، ومن خلاله

يكتسبان مقومات وجودهما النفسي والاجتماعي.

ووجه المفارقة بينهما أنه بينما تتجه الحضارة الغربية بحكم نزعاتها وعلمويتها اتجاها تطوريا وتجريبيا من غير ارتباط بالماضي وتراثه نجد الحضارة الإسلامية تسعى للحفاظ على صلتها بالماضي الإسلامي وبتراث الإسلام، وبعقيدة الإسلام ضرورة لاستمرار مشخصات هذا التاريخ الإسلامي على مدى العصور.

بل تذهب الحضارة الغربية إلى أبعد من ذلك فتقوم على ما يشبه عقيدة التطور أو التقدم، باعتباره قانونا للحياة، فكل مرحلة لاحقة تمسخ مرحلة سابقة، والناس كالطبيعة لا ينتقلون إلا نحو الأفضل والأكمل دائما، وأنه ليست هناك قيمة أو مظهر لا يمسه التطور.

وبهذه العقيدة التقدمية تقوم اليوم معركة حامية الوطيس عن (التراث) باعتبار الإسلام (تراثا) تسلط عليه أضواء الدراسة، من زاوية تقدمية تكشف حقيقة كونه إفرازا ظرفيا لمرحلة تاريخية متجاوزة.

هذه هي المحاور الأساسية التي تدور عليها معظم الصراعات الفكرية بين مؤسسات عالمنا الإسلامي ومن يمثلها من المثقفين والعلماء، وبين مؤسسات الحضارة الغربية، ومن يمثلها من المفكرين الغربيين وتلامذهم من الشباب المسلمين المتخرجين من جامعات الغرب.

ومن خلال هؤلاء وأولئك يواجه الإسلام والمسلمون جميعا أكبر التحديات التي تستهدف القضاء على كل أصول الرؤية الإسلامية من نفوس الأجيال الصاعدة، وبذلك يسهل إلحاق العالم الإسلامي بعجلة التاريخ الأوربي وحركته التوسعية والهيمنية من غير سلاح ولا مقاومة.

2 التحدي التكنولوجي ـ العالمي :

ويتمثل في إغراق العالم الإسلامي كبلدان نامية في الإنتاج التكنولوجي الأوربي، الذي لا يعني تفوق العالم الغربي فقط في مجال العلوم والتكنولوجيا، ولا يعني فضلا عن ذلك خضوع عالمنا الإسلامي للسوق الإنتاجي، وللإعلام التكنولوجي، وللاستغلال الاقتصادي، أي خضوع عالمنا الإسلامي للتبعية التكنولوجية والاقتصادية من غير أن يبدو في الأفق القريب أو البعيد إمكان استقلال العالم الإسلامي في هذا المجال.

ولكن التحدي الأكبر لهذه التكنولوجيا أنها ترسم في الأفق قطيعة مع الإيمان بالله في ذهن الكثيرين، فالتكنولوجيا تضعنا أمام نوازل خطيرة لا نجد لها فتوى سوى إعلان الحرب على التكنولوجيا نفسها.

أليست التكنولوجيا هي المسؤولة عن إتاحة وسائل التدمير والارهاب والفتك بحياة البشر ؟ أليست صاحبة القدرة على تحقيق رغائب الإنسان التي كانت بالأمس مجرد أحلام ؟ أليست توهم الناس بأن ما كان في اعتقادهم بيد الله وحده قد أصبح بيد التكنولوجيين، إطالة العمر، إنزال المطر توجيه النسل تغيير البنيات البيولوجية، تكديس الثروة، والافتقار المدقع، خلق مجتمع الاستهلاك ومجتمع البطالة ؟

لكن بالنسبة لنا هناك في الوقت الراهن بالنسبة لعالمنا الإسلامي ما هو أهم من هذه الوجوه كلها. فهناك التكنولوجيا ـ القوة.

فالتكنولوجيا هي أحد الأسلحة الاستراتيجية للقوى الكبرى في العالم. وهي اليوم في ملك العالم الذي يتحدانا بحضارته وإيديولوجياته. ولا يقبل أن ينقل إلينا أسرار التكنولوجيا إلا بمقدار. وأكثر من ذلك فإنه يستقطب العقول العلمية التي تكونها، لأنها لا تجد في بلدانها العربية والإسلامية ما يلائم اختصاصها ويسد حاجاتها ويوفر لها المختبرات والمعامل التي تستثمر فيها عقولها وعلومها، ويكفي أن نقرأ في إحصائيات بعض المختصين بهذاالموضوع لنلاحظ مثلا أنه خلال العشر سنوات المتراوحة بين 1966 وسنة 1977 تمت هجرة 5798 من الأدمغة العربية والإسلامية.

وبينما تتم هذه الهجرة من طرف مهندسي عالمنا الإسلامي وعلمائه وأطبائه والمختصين فيه إلى العالم الأوربي ليجدوا فيه مجالات العمل والإنتاج واستثمار كفاياتهم فتقوى تلك الدول بهم، وتنمو اقتصاديا بسواعدهم وخبراتهم، إذا بعالمهم الإسلامي يزداد تبعية للإنتاج الصناعي الغربي ويزداد عجزا عن التحكم فيموارده وميزان اقتصاده، ويخضع للاستدانة التي هي من بعض الوجوه استدانة للأموال الفائضة في أبناك الغرب من استغلال الشعوب النامية.

والواقع أننا لو لجأنا إلى تحليل هذه الظاهرة بما يكفي من الإحصائيات والتحليلات لوجدنا عالمنا الإسلامي يخضع لنوع من الرق التكنولوجي إن صح هذا التعبير. فالثورة التكنولوجية التي تزداد اتساعا على يد علماء ومختصي العالم المتقدم (الاتحاد السوفياتي وأوربا والولايات المتحدة واليابان) اتخذت عدة مظاهر تعتبر ثورات في مجال التقدم البشري، ولا سيما عندما ظهرت العقول الالكترونية، والأقمار الصناعية والأجسام الآلية التي تستطيع بواسطتها تطويق العالم ومعرفته وتتبع ما يجري على سطحه وفي أعماق محيطاته، وتوجهه توجيها إعلاميا حسب إرادتها.

كالثورة الهندسية البيولوجية، التي تعد بفتوحات مدهشة في عالم الزراعة والصناعة البيوكيمائية (5).

- 10 -

إن التحديات التي يواجهها الإسلام والمسلمون في العصر الحاضر، هي في الواقع حوافز لتغير سلوكنا، فتصحيح لعقيدتنا، وفتح المجال للاجتهاد والابتكار والابداع، وتجنيد الطاقات وتعبئتها تعبئة شاملة وترشيد كل مخططات تنميتنا انطلاقا من المبدأ القرآني العظيم **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾**.

وهذه التحديات هي خير ما ينبهنا إلى ضرورة التغيير لنستأنف المسيرة في ضوء الإسلام وخدمة البشرية جمعاء، فالغرب المتفوق نفسه يواجه تحدياته التي لن يجد انتصارا عليها إلا في القيم الإسلامية.

إن تخلف عالمنا الإسلامي يعزي بالدرجة الأولى اليوم إلى تخلفه الصناعي والتكنولوجي، ونحن لم نعرض لإثارة هذا الموضوع لولا أنه عميق الصلة بالتحديات التي يواجهها الإسلام من جراء إسقاط التخلف الذي يتخبط فيه المسلمون على الإسلام نفسه في تحليل المحللين الغربيين. فسهل على هؤلاء استدراج شبابنا ومثقفينا إلى مشاطرتهم هذا التحليل والأخذ بنتائجه الخطيرة على مصير الإسلام.

ومن المؤسف أن يكون البعض من المسلمين شعوبا أو أفرادا يظنون أن القضية قضية فتح جامعات وتمويلها، أو توفير كميات من السلع والمنتجات الآلية في البلدان الإسلامية، فالتكنولوجية هي أولا وقبل كل شيء استثمار للإنسان بعد تكوينه علميا وإحاطته بكل ظروف الإبداع والابتكار والاحترام لحقوقه، والتقدير لاختياراته. وهذه قيم تربوية وديموقراطية لابد منها لخلق الجيل المبدع للتكنولوجيا.

وإذا أعدنا النظر في هذه التحديات الخارجية وجدناها تستغل ظرفيا تلك التحديات الداخلية، وتستفيد في زحفها من ضعف المسلمين الماثل في جهلهم وتخلفهم الاقتصادي وفقرهم التكنولوجي، وسلبية أخلاقهم، وهشاشة أنظمتهم السياسية داخليا، وهكذا تتحالف العوامل الذاتية والموضوعية على وضع العالم الإسلامي أمام ظرف تاريخي لم يسبق له مثيل في تاريخه.

وتنظر مرة أخرى في هذا التحالف المتزامن مع واقع العالم الإسلامي الأكثر قابلية للرضوخ والتحدي، فنجد التحدي الغربي يستقطب كل الظواهر والوسائل لصالحه، حتى يتراءى لنا أن التحديات التي تواجهنا تمثل نسقا واحدا متكاملا من كل عناصره، فالتوسع الامبريالي والهيمنة الاقتصادية، والوصاية الثقافية، والغزو بالعلموية والمنهجية والتقدمية، كلها تتضافر لتحقق زحفها داخل نفوسنا وعقولنا. بينما ليس هناك أي تخطيط لمواجهة هذه التحديات بنفس الأسلوب والاستقطاب. وكل ما نملكه في هذا المجال هو دعوات أخلاقية، وتناول للإسلام من جزئيات تتعلق بالسلوك الفردي، والأحوال الشخصية.

وإذا كانت التحديات تستوجب الرد، وكان الرد من التعقيد والعمق والتفصيل ما لا يناسب طرحه في كلمات، فإن الإقرار بمبدأ ثورة اجتهادية يستعيد معها الفكر الإسلامي حقوقه في ممارسة النظر والتخطيط للحل الإسلامي خطوة أساسية. وإن الاستجابات المتعددة لهذه التحديات التي نعيشها منذ انبعاث العالم الإسلامي لهي استجابات الفعالية على العموم، والانفعال لا يكفي للمواجهة.

فنحن مطالبون بالرد على هذه التحديات، بما يناسب

5) لم نعرض في هذه المقالة المحدودة للتحدي الثالث وهو التحدي السياسي - الاقتصادي، لأنه لا يحتاج إلى تحديد أو توضيح، فهو ما نحياه ونقرأ عنه يوميا، ونعيش أحداثه.

كلا منها. فللرد على التحديات الداخلية لابد لنا من تضامن إسلامي حقيقي يقرب بين النزعات والمذهبيات، وإن كنا لا نطمع في محوها وإزالتها في ظرف يسير. ولكننا نطمع في أن تكون خطورة التحديات في منظور المسلمين ولا سيما القادة منهم مما يؤلف بين القلوب والعقول والمناهج.

ونحن مطالبون بالتحلي بالتسامح الديني الذي يعتصم بالأصول، ويعض عليها بالنواجد، ولا يشغل نفسه بالفروع أو يحولها إلى أصول.

ونحن مطالبون بتنمية المؤسسات العلمية في عالمنا الإسلامي ووضع استراتيجية لامتلاك التكنولوجيا لتسخيرها للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، ونحن مطالبون بالاقدام على تحكيم الشريعة الإسلامية في حياتنا العامة والخاصة والتحلي بأخلاق الإسلام الإيجابية.

تطوان : د. محمد الكتاني







الأستاذ عبد الكريم التواتي



السياسة الداخلية :

تتشابه منطلقات مختلف الدول الإسلامية التي تعاقبت على توجيه الأحداث في المغرب، من حيث أنها جميعها استهدفت إصلاح الأوضاع دينيا، وتوخت إقامة نظام إسلامي مركزي ذى قمة خليفية رئاسية، وابتغت تحقيق وحدة تامة بين مختلف الأقطار التي يتألف منها هلال الشاطئ الممتد عبر البحر الأبيض المتوسط انطلاقا من وحدة الدين واللغة والجنس والمصائر المشتركة.

وسعت كل تلك الدول - وما تزال - لاستمرار تلك الوحدة التي كانت تمت لأول مرة في ظل الوجود الإسلامي، على يد المرابطين والموحدين لمدة غير قصيرة.

وكانت الحجة العلمية للمنادين آنيا لبذل مزيد الجهود لاستعادة تلك الوحدة وإقامتها على أسس واقعية تنبعث من الإمكانيات الحالية ومن وشائج القربى والمصالح المتداخلة، وتتخطى الاعتبارات العرضية، التي ما انفكت التجارب المباشرة في مختلف الأنشطة التعاونية تثبت ضحالتها وشكلها الأفقي وتؤكد أن جذورها لا ثبات لها في الأرض، وأنها وليدة ظروف خاصة كانت قياداتنا تجابه فيها محنة الفرقة وتعاني رسوبات الهروب والانسياب.

وهذه الرغبة في الوحدة والتوجيه لم تكن في عصر من عصور تاريخ الشمال الإفريقي محصورة في هذا الفريق دون ذاك، وإنما كانت رغبة جميع السكان قمة وقاعدة، وإن اختلفت الوسائل التي اتبعت لمحاولة تحقيقها وإبرازها إلى عالم المحسوس تبعا لاختلاف المؤثرات البيئية والمناخية.

وإذا كان اختفاء دولة الموحدين من مسرح الأحداث قد أحدث ذلك الفراغ المركزي والقيادي مما أدى إلى تفكك عرى الوحدة السياسية التي كانت قائمة بين أقطار الشمال الإفريقي، وأدى بالتالي إلى قيام دولة الحفصيين وبني عبد الوادي، بجانب دولة بني مرين، وبني الأحمر النصريين في نقاط مختلفة من الرقعة الترابية التي كانت تمتد عبرها الإمبراطورية الموحدية، فإن كل تلك الدول كانت تسعى لتحقيق الوحدة إلا أن المؤرخين يجمعون على أن أكثر هذه الدول الإسلامية الأربع المتواثبة على الحكم إثر انهيار الموحدين اهتماما ورغبة في قيام الوحدة واستمرارها، وفي مختلف أبعادها ومعطياتها السياسية والعسكرية والاجتماعية، هي دولة بني مرين.

ذلك، لأنهم حين اطمأنوا إلى استتباب الأمن داخل المغرب الأقصى وتيقنوا أن شعورا بالاطمئنان للعهد الجديد قد تشربته نفوس الناس وأن هؤلاء باتوا يتطلعون لمزيد الرفاهية، وضمان الاستقرار الاقتصادي الأكثر، لم يتقاعسوا عن القيام بحركة إيجابية لاسترجاع ما اعتبروه المجد السليب والعز الضائع، وعن طريق إعادة الوحدة بين مختلف أجزاء الإمبراطورية الموحدية بوصف أن هذه الوحدة أساسية لضمان العيش الأرغد الكريم، للمجموعة البشرية، التي تقطن أصقاع هذه الامبراطورية، وتؤمن في أعماق أعماقها بمتين الروابط وأقوى الوشائج التي تربط بين وحدتها ومصالحها المختلفة...

ولهذا فلم يكد المرينيون يستشعرون انتشار نفوذهم، وتمكنه من المغرب حتى سعوا - وخاصة في عهدي أبي الحسن وابنه أبي عنان - إلى استعادة وتحقيق تلك الوحدة، وإبرازها ما أمكن، في نفس مظهرها الموحدي.

فقضوا أولا على كل الأنظمة المحدثة بعد انهيار الوجود الموحدي في شمال إفريقيا، وغزا أبو الحسن تونس معقل الحفصيين حيث تمكن عمليا من بسط نفوذه عليها إلى حين.

وعلى ضوء هذه الرغبة نستطيع أن نتلمس أهم عناصر سياسة بني مرين العامة، والداخلية بصفة خاصة وذلك حسب المعالم الآتية :

أولا : سياستهم الداخلية : أي في المغرب وتلمسان : وقد امتازت السياسة :

1 - باستمالة العنصر العربي إلى تأييد الأوضاع القائمة : بما أظهره بنو مرين للبدو العرب من العطف والتشجيع المعنوي، واغرائهم بشتى الوسائل لتكوين مجتمع عربي خاص بهم، وقد وجدت اغراءاتهم تلك استجابة من هذا العنصر الذي كان شبه معزول عن الحياة العامة والذي ربما كان يكون إحدى عقباتها. ومما ساعد على تأليف عناصره، وجمع شتاته وتوحيد صفوفه، وتواجد أهدافه - بالإضافة إلى الدين الإسلامي الذي هو دين الفاتحين العرب، وباسمه تباشر الدولة القائمة حكمها، وعلى هداه يقوم وجودها - اللغة والمنحدر والعادات الواحدة والتقاليد الموروثة التي تجمع بين تلك الجماعات العربية البدوية، ثم رغبة يعقوب المنصور ثاني ملوك بني مرين الأكيدة في أن يجمع حوله هؤلاء العرب ويؤلف بطانته منهم، وكان بهذا يحاول إحداث تعادلية بين العناصر المتساكنة في البلاد بعدما كان ظهر ميل إلى العنصر البربري في دولتي المرابطين والموحدين، ثم بهذه التعادلية قد يخضد شوكة المتربصين بالدولة الناشئة الدوائر.

فكان هذا العطف والرغبة المرينيان مما سهل تسرب العنصر العربي إلى مختلف أجهزة الدولة، واشتداد أثره وتأثيره على كل اتجاهاتها.

ولمزيد اظهار رغبتهم - أي المرينيين - صادقة في هذا الاتجاه، ولتأكيد عطفهم قاموا بأهم خطوة لأخذ زمام المبادرة في ميدان تعريب ما كان تبقى غير معرب من عهدي المرابطين والموحدين، سواء في الميدان البشري، أو في مختلف مرافق الدولة، وبالأخص خطب الجمع وتعريب الدواوين بتنصيب العرب على توجيهها. وقد استطاعت هذه الجماعات العربية، بما أصبح لها من شفوف ونفوذ أن توجه الأحداث لصالح الوجود العربي، وأن تبلور هذا الوجود في احتضانها كل العلوم التي تمت إلى العربية والإسلام بصلة.

ولكنهم - وعلى عكس ما يتهمهم به (هنري طيراس) في كتابه : تاريخ المغرب - لم يعملوا على التعجيل بانهيار هذه الدولة، حين طاردوا - في زعمه - العنصر البربري، لأن فتح الدولة صدرها للعرب وترحيبها بهم، ورغبتها الأكيدة والدائمة في احتضانهم وتقريبهم، ومصاهرتهم ما كانت لتدفع بهم إلى السعي لتحطيمها والتطويح بها، وإن يكن موقف الدولة من العرب، لابد أن يثير حزازات في نفوس أولئك الذين استفادوا من الوضعية السابقة، أو كانوا ينتظرون مزيد الحظوة لدى بني مرين بوصف انحدار أعراقهم من البربر، وأن هؤلاء - وقد أحسوا بأن أطماعهم عورضت باستمالة الدولة للعنصر العربي، قد يفكرون في إحداث كل شغب من شأنه أن يسمح لهم بالأمل في أن تميل الريح إلى صالحهم، ومن غير المستبعد كذلك أن يكون بعض من هؤلاء العرب - وقد استمرأوا عطف الدولة، وأصبحت لهم فيها مكانة - استخف بالعنصر البربري واعتبره

مجرد مجتمع غير متحضر ودون المجتمع العربي، الشيء الذي يحدث لدى البربر أزمة نفس حادة لأن البربري بطبعه غيور وأنوف لا يرضى بالدون ولا يقبل أن ينظر إليه بمنظار الاحتقار.

أما وصف المقري للحالة التخريبية التي يحكي أن مكناسة قد تعرضت لها حيث يقول :

(دخلت مكناسة هذه مرارا عديدة، وقد أبلى الدهر محاسنها التي كانت في زمان لسان الدين بن الخطيب جديدة، واستولى عليها الخراب، وتكدر منها بالفتن الشراب وعاش في ظاهرها الأعراب).

فإنه **أولا** : وصف يتناول أوضاع المغرب في أخريات هذه الدولة وأيام كانت تحتضر، وما كان مثل هذا الظرف بصالح للحكم على دولة من الدول.

وهو **ثانيا** : لا يقوم حجة قطعية على أن سبب هذا التخريب هو وجود العنصر العربي على رأس أجهزة الدولة، وإن يكن من غير المستبعد أن بعضا من أولئك الأعراب الذين لم يجدوا لهم مكانا في الدولة قد أشربت نفوسهم الحقد عليها فتطامنوا مع العناصر المشاغبة من البربر وأحدثوا ما يتحدث عنه المقري من الخراب والدمار.

ب) - امتازت بالعودة إلى التشبث بأبهة الملك وعظمة السلطان اللتين عرفتا بالأندلس لعهد الأمويين :

وفي هذا الإطار كان احتفاؤهم المتزايد بمظاهر الخروج أيام الجمع والعيدين للصلاة، وكانت استعراضاتهم للجيوش قبل توجيهها إلى الغزو، وبعد العودة منه وكان تبنيهم الاحتفالات الشعبية، وخاصة تلك التي تقام بمناسبة عيد الأضحى وعيد المولد النبوي، الذي أصبح الاحتفال به رسميا - كما قلنا - من عهد يوسف بن يعقوب سنة : 691 هـ.

وإذا كانت هذه الاحتفالات بعيد المولد النبوي في المغرب قد شهدت ولادتها أول - كما أشرنا قبل - في سبتة، وعلى يد أبناء العزفي، فإن بني مرين قد احتضنوا هذه الاحتفالات مع الإشارة إلى أنهم كانوا قد استولوا على سبتة من يد أولئك العزفيين سنة : 729 هـ هذا الاستيلاء الذي سجله القلقشندي صاحب كتاب : (صبح الأعشى) بقوله :

(... وقام بأمرها - أي سبتة - أبو القاسم العزفي من مشيختها، فبقيت بيده، ويد بنيه إلى أن ملكها منهم بنو مرين سنة : تسع وعشرين وسبعمائة في أيام السلطان أبي الحسن، فصارت تابعة لفاس) صبح الأعشى /ج/ الخامس /ص/ 160.

وفي إطار أبهة الملك كانت تعقد مجالس المناظرات التي كانت تشهد مطارحات الأدباء، ومحاورة الشعراء ومساجلة العلماء، وإجراء المناقشات في مختلف أنواع المعرفة والعلوم.

وفي هذا الإطار أيضا أحدثوا - وفي بعض مظاهر الحياة الاجتماعية كاللباس تمايزا حسب المراكز الاجتماعية لمختلف الطبقات الشعبية، فقهاء، وادباء، وجنودا، وقادة، وسوادا، فكان الكتاب مثلا، وبالخصوص، يتعممون بعمامة خضراء ولا يتمنطقون سيفا.

كما اهتموا في الميدان الرياضي والألعاب بنوعين خاصين منهما :

الأول : مصارعة الحيوانات في أعياد المولد النبوي وقد تكون هذه العادة تسربت إلى مجتمعهم من الأسبان الذين ما يزالون حتى يومنا هذا يعتبرون مصارعة الثيران أحب الرياضات الموسمية شعبيا، ومما يشير إلى هذه اللعبة بيتا شعر لابن جزي من قصيدة يمدح بها أبا عنان، جاء فيهما :

لله يوم بدار الملك مر به ... من العجائب ما لم يجر في خلدي

لاح الخليفة في برج العلى قمرا ... يشاهد الحرب بين الثور والأسد

الثاني : الاهتمام بالرماية، وكانت هذه الرياضة بالخصوص، منتشرة في جميع الطبقات بالشمال المغربي، ولاسيما سبتة، وشملت حتى طبقات العلماء والفقهاء.

جـ) - وامتاز بإشاعة الرخاء والازدهار الاقتصادي :

وفي هذا المجال يذكر المؤرخون أنه في عهد يعقوب، شهدت البلاد رخاء عاما شاملا دام خمسة عشر عاما متوالية، وحتى أصبحت القطاني لا تجد لها مشتريا أو

أكلا، كما بيع القمح بستة دراهم للصفحة، والكبش بخمسة دراهم والشابل وحدة منه بقيراط.

وسجلت الحركة التجارية ـ تصديرا واستيرادا ـ نشاطا ملحوظا وعرفت موانئ المغرب، وبالأخص أصيلا وسبتة حركة تجارية عظيمة، حيث كانت ترسو بواخر البندقية وجنوة، ومرسيليا، مستوردة المنسوجات والسلاح ومصدرة الخيل والجلود والأغنام والشمع والقطن والصوف.

وكانت سجلماسة بتافيلالت مركز ملتقى قوافل الصحراء الرابطة بين شمالي إفريقيا وتوات وإفريقيا السوداء، كما كانت بنكا للذهب المستورد من الخارج وسوقا عامة للعملات الصعبة.

وشهدت الفلاحة ازدهارا توخى في منطلقه نوعا من التخصص باعتبار المزروعات والمناطق الصالحة لها... مما قد يشعر بأن دراسة جيولوجية ما لمعرفة نوعية التربة وما يناسبها من مزروعات، كان عرفها أجدادنا.

فقد اختصت ناحية (سلا) مثلا بزراعة القطن والكتان ـ والدار البيضاء وآنفا بالفواكه والحبوب، ومراكش بالزيوت، ومكناس بالجنات المغروسات والمعروشات، والتي بلغت ـ أي هذه الجنات ـ حسب تعبير ابن غازي اثني عشر مدشرا والتي وصفها لسان الدين بن الخطيب بقوله :

(مكناس مدينة أصيلة، فضلها الله تعالى ورعاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها، اعتدل فيها الزمان وانسدل الأمان، ودنا من الخضرة جوارها فكثر قصادها، من الوزراء، وبها المدارس والفقهاء، ولقصبتها الأبهة والمقاصير والأبهاء).

وتجدر الإشارة ونحن بصدد ذكر الفلاحة لعهد بني مرين ـ إلى أن نظام الري لهذا العهد شهد انتشارا للنواعير الخشبية التي كان من جملتها الناعورة الكبرى المشيدة على وادي فاس وذلك منذ سنة : 685 هـ على يد يوسف.

وإذا كنا بتعرضنا للأوضاع التجارية والفلاحية لهذا العهد، قد رسمنا صورة مصغرة للرخاء الاقتصادي الذي رفل فيه الشعب ليومئذ، فينبغي أن لا ننسى ـ في نفس الوقت ـ الإشارة إلى أن هذا الرخاء ـ وهذا شأن الحياة والدنيا، منذ أن وعاها الإنسان تاريخيا من عهد الأحجار إلى الأوراق والكتابة وقبل ذلك ـ كان يتعرض في بعض الأحايين للزعازع والاضطراب والتدهور، وهذا ما سجلته فترة من تاريخ عهد يوسف حيث ذكر أن العملة انخفضت انخفاضا خطيرا هدد اقتصاد الأمة بالانهيار وانخفاض عملة أمتنا ـ كما نعرف ـ عنوان على انخفاض مستوى المعيشة فيها، وهي بالتالي تضعضع فاضح لقوة الشراء فيها، وكذلك علامة على ما يسميه علماء الاقتصاد في القرن العشرين الذي نحيا ربعه الأخير بالتضخم المالي، والتضخم المالي مرض تسعى كل المجتمعات الواعية لمحاربته وتجنبه ليعتدل ميزانها التجاري والاقتصادي بما يضمن الازدهار والانتعاش ويحقق النماء والرخاء ومن ثمة الهدوء والاستقرار.

ـ وتفاديا لتردي الأوضاع اقتصاديا، ومحافظة على ارتفاع معنوية الأمة، وصيانة لمستوى المعيشة المحترمة، شن المرينيون سياسة مد يد المساعدة للمحتاجين.

وفي هذا الإطار خصص أبو عنان ـ مثلا ـ للمساكين الوافدين على مختلف الزوايا، التي أقيمت في أماكن متعددة من البلاد، بما فيها الفلوات والصحاري طعاما يوميا يكفي الوافدين.

كما كان كل ملوك بني مرين يوزعون ـ بمناسبة عيد المولد النبوي ـ مائة ألف دينار على الفقهاء، والطلبة والحفاظ والأشراف، وكل الحضور ممن يقوم بمهمة ما في هذه المناسبة، فكان كل واحد من الحضور يأخذ عشرة إلى مائة دينار.

وفي إطار قيام نوع من التكافل الاجتماعي أحسته كل الطبقات الشعبية ولا سيما الموسرة، أحدث نظام من التعاون الوطني، تجلت آثاره العملية فيما بوشر يومئذ من وقف وتحبيس لعدة عقارات وأراض على المشاريع العامة بينما كانت مثل هذه الأعمال للعهدين قبل المرينيين قليلة غير سائغة أو لا يقولون بها كما جاء في عبارة ابن سعيد عند حديثه على هذه النقطة لعهد الموحدين، فقد قال ـ فيما نقله عنه الأستاذ المنوني من مخطوطة، (ولكن الأوقاف عندهم على عظمة سلطنة بني عبد المومن والمرابطين قبلهم كانت قليلة ولا يقولون بها).

ب) ـ السياسة الخارجية :

أ) ـ في النطاق العام : سجلت سياسة بني مرين الخارجية العامة، تجاه الدول، بما فيها موقفها من جيرانها

في الأنــدلس وشمالي إفريقيــا مظهرين اثنين متبــاينين لمرحلتين من وجودهم.

مرحلة توطيد أركان الدولة، ورفع قواعدها وتميز وجودها الذاتي، وحماية حدودها الآمنة والكفيلة بإعطائها بعدا محددا، ومرحلة التقعيد والتنظيم، والرفع من المستوى المعاشي في الداخل لجعل الأمة تنطلق في التشييد والبناء وأعداد الطاقات الشعبية لرفع شأن الدولة وبناء مجد الوطن. وفي المرحلة الأولى : (اتسمت سياسة المرينيين الخارجية تجاه جيرانهم بالخصوص بنوعين مختلفين من العلاقات، ففي علاقاتهم مع الجيران الأقربين، وأعني بهم أولئك الذين كانوا يشاركونهم النفوذ الزمني وداخل الرقعة الترابية التي اعتبرت رقعة متماسكة متحدة طيلة الوجود العربي منذ الفتح الأول الإسلامي إلى أن استلموا - أي المرينيين هذه الرقعة - من يد الموحدين، ونعني بهذه الرقعة الجغرافية الشمال الإفريقي كله، أو ما نسميه اليوم ونطلق عليه (المغرب العربي الكبير) فقد كانوا يلتزمون - فيما يخص هذه العلاقات - التمسك بمبدأ إخماد كل حركة انتقاضية ضدهم وضد وجودهم، ومناهضة كل فكرة انفصالية تستهدف تجزئة الامبراطورية الإسلامية الممتدة من حدود مصر الغربية إلى ساحل الأطلسي هنا بالمغرب، وربما في الأندلس. ومن هذه الزواية، وتقيدا، بل تنفيذا لهذا الالتزام، لم يهادنوا العزفيين الذين كانوا يسيطرون على سبتة، وكانوا أقاموا فيها نوعا من الاستقلال الذاتي، وإنما نازلوهم وحاصروهم إلى أن ارغموهم على الاستسلام والخضوع لطاعتهم، والدخول في الوحدة الوطنية الكبرى، ولم يهادنوهم حتى أتموا استرجاع سبتة على يد أبي الحسن كما أشرنا قبل، ومن هذه الزاوية أيضا (وانطلاقا مما أوجبته من التزامات كانت هذه السياسة تصطبغ على الدوام بالصبغة الدينية، وكانت محاولاتهم المستميتة والمتتابعة لإرغام بني عبد الواد الذين كانوا بدأوا ينشؤون دولة انفصالية في المغرب الأوسط، والحفصيين الذين حاولوا بدورهم إقامة كيان مستقل لهم في تونس، وكل ذلك على أنقاض دولة الموحدين المنهارة وهكذا أرغموا جميع هذه الحركات الانفصالية على العودة إلى الوحدة الوطنية، وكما كانت عليه لعهد المرابطين والموحدين.

وتمكن المرينيون من قطع أشواط إيجابية لتحقيق هذا الهدف الوطني والشعبي في آن واحد، وبالأخص في عهد أبي الحسن عندما تمكن من استرداد تونس لإمرته ولتأكيد عزمه على مقاومة كل حركة تمردية أقام هناك طويلا لتوطيد دعائم هذه الوحدة بما يجعلها شيئا مفروغا منه وضروريا لبقاء وجود دولة بني مرين، تماما كما كان الشأن بالنسبة للدولتين قبلهم.

وحاول ابنه أبو عنان سلوك نفس الطريق لما آل الأمر إليه، لولا الأحداث التي شهدها عهدهما معا واظهرهما بأنهما ليسا رجلي الساعة، وأنهما دون أحداث التصدعات الوحدوية، بل أظهرهما دون مستوى هذه الأحداث بما واكبها من كوارث وضوائق لم تكن في الحسبان، ذلك أنه في الوقت الذي كان يباشر فيه أبو الحسن الأعمال التي من شأنها - ولو في نظره على الأقل - أن تدعم هذه الوحدة التي ما تزال مهلهلة ظهر في الجو حدثان خطيران عاقاه عن متابع جهوده الوحدوية وكل تحركاته في هذا السبيل.

وكان أحد الحدثين خارجا عن النطاق البشري إلى حد ما، بينما كان الآخر - جملة وتفصيلا، ابتداء ونهاية، من صنع البشر، الذي «خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعا».

والعامل الأول أو الحدث الذي عاق مواصلة تحقيق الوحدة، والخارج عن النطاق البشري، كان هو ما حدث من طاعون جارف ابتدأ وتفشى في تونس ومنها امتد إلى باقية أصقاع الشمال الإفريقي، حتى أوشك أن يعم أقطار المغرب العربي الكبير، فقد حصد السكان، وأفقر منهم البلاد، وأرجف الناس - وقد بلغتهم أنباء هذا الطاعون الذي استأصل جيوش أبي الحسن - أن من بين ضحاياه أبا الحسن نفسه.

وكان هذا الإرجاف مما دفع بأبي عنان بن أبي الحسن - خوف تشتت الكلمة وتصدع المملكة - إلى الوثوب على العرش، والحلول محل أبيه، وإلى الاستبداد بالسلطان والانفراد بالحكم مكان هذا الأب الذي حيكت حول مصيره المشكوك فيه تلك الأراجيف.

وقد أفزعت هذه الأنباء أبا الحسن، وجعلته يخف

بـالعودة إلى المغرب مقر ملكـه ودار سلطـاتـه أمـلا في استعادتـه المشروعيـة، وقطع ألسنـة المرجفين فركب البحر عـابرا بـأسطولـه الضخم العظيم الـذي قيل إن قطعـه يومئـذ كانت تبلغ خمـمائة قطعة.

وتشـاء سخريـة الأقـدار أن تتمم فصـول مـأسـاة أبي الحسن بنهـايـة مفزعـة مروعـة، فهـاجت العواصف والزوابع البحريـة التي حطمت أسطولـه الضخم ذاك وتغرق جميع قطعه التي تناثرت كـأوراق الخريف، ويغرق كل من كـان في صحبته من رجال حاشيته وبطـانتـه المقربين، بمـا فيهم أربعمائة من فطاحل علماء المغرب العربي، كان أبو الحسن دأب على مرافقتهم معه أينما حل وحيثما ارتحل...

قـالت كتب التـاريخ وتمكن أبو الحسن بـأعجوبـة أن ينجو وحده من المأساة، حين هيأت له الأقدار ـ لما كـانت تعده لنهـايتـه من فواجع مؤلمـة ـ لوح خشب ارتمى فـوقـه وأخـذ يسبح بـه إلى أن رمتـه الأمـواج على شـاطئ من شواطئ المغرب... ليجد نفسه وجها لوجه أمـام ابنـه المتوج مكانه.

وتمعن الأقدار في سخريتها بـأبي الحسن، حين يمتنع ابنه أبو عنان عن تسليم السلطـة لصاحبهـا وقد تحقق الآن من بطلان كل مـا حيـك حول مصير أبيـه، وقـد يكـون أبـو عنـان قطـع أشـواطا غير قصيرة في تنفيـذ مـا خطـه من سيـاسـة، وسنه من قوانين وقد يكون أقام ـ مـدة غيبـة أبيـه، دعـائم جديدة للـدولـة، وبنى كل شيء على أسـاس التخمين بأن أباه انتهى، وأنه وحده الآن المسؤول، وقد يكون اعتقـد في حركته وما اتخذه من موقف، أنه بكل ذلك لم يأت أدا، ولم ينزع يدا من طاعة، ولا خرج عن جماعة.

كـان يمكن أن يفكر في كـل ذلـك، ولكن هـذا لا ينجيـه من المسـؤوليـة الأدبيـة التي عليـه أن يراعيهـا أمـام شخصيته ـ بالإضافة إلى أنها أبوه ـ كانت تطوح في الآفـاق سعيا لتدعيم هذا الملك الذي يتربع دستـه، وتوطيـد أركـان هذا السلطان الذي به يحـاربـه ويقـاومـه، مع أنـه كـان في إمكان أبي الحسن أن يقيم ملكا آخر وسلطانا جـديـدا في تلك الأصقاع التي تمكن من إخضـاعهـا لسيفـه تحت شعـار الوحدة الوطنية.

وكان في الإمكان أيضا حسم هـذا النزاع الـذي تشب بين الوالد وابنه أن لو تنازل هذا الأب الذي حاربته الأقـدار عاكسته الأحداث، وأيد ابنه، ما دام قـد قـام بـالأمر وواصل المـسيرة، لأن الـدولـة أهـداف وأفكـار وأن هـذه استمرار وتواصل وأن الناس مهما يكن مركزهم الاجتماعي والسياسي يذهبون، بينمـا الأفكـار والفلسفـات الصـالحـة تبقى وتخلـد بخلود صـلاح القيمين عليهـا، وبمـا تحملـه في أعمـاقهـا من بذور الخلود والتجاوب مع الأحداث.

ولكن نشوب المعارك بين الرجلين ـ ولكل وجهـة هو موليها، ولكل بواعث مقبولة في حدود النزعـات البشريـة ـ وزج جيوشها في معارك طـاحنـة وحروب إبـاديـة لم يترك المجال صالحا لدعاة وحـدة المغرب العربي أن يبـاشروا مـا كانوا يأتونه من أجل تدعيم الفكرة، وإنمـا على العكس من ذلك أتاح الفرصـة لمريـدي الفتنـة والانفصـال والتصـدع أن يحققوا أطماعهم.

وهـذا التصـدع والانفصـال هو مـا آل إليـه الأمر، فقـد تمكن الحفصيون من إثبـات وجودهم المستقل، وواصـل بنـو عبد الواد جهودهم في نفس الطريق، ولقـد حققوا بعض مـا كانوا يريدون وكثيرا مما كانوا يأملون.

أما العامل أو الحدث الثاني الذي أعاق أبا الحسن عن تحقيق حلمـه في الوحـدة، والـذي وصفنـاه بـأنـه من صنـع البشر، فقـد كـان ـ لـلأسـف ـ عبث الأعراب من بني سليم وبني هـلال ومـا أثـارو، من فـوضى وثـورات دمـويـة، فقـد استشرى إضرارهم بـالأمن والنظـام، وتطـاولـوا على سكـان البوادي بعموم الشمـال الإفريقي، يفرضـون عليهم الأتـاوات، ويـستخلصـون منهم بـالقـوة، والإكراه والقسر مـا يريـدون أو يحتاجون إليه من طعام وأقوات.

أما كيف كان وجود هذه الجماعات من الأعراب سببا في إعاقة الوحدة، فإنهم حين شـاهـدوا استمـاتـة أبي الحسـن في مقاومته لـدعـاة الانفصـال من الحفصيين بتونس، وكيف تمكن منهم وأخمد فتنتهم، وأحـسوا أن النـاس هنـاك استتبوا إلى الـدعـة والهـدوء بفضل يقظـة أبي الحسـن هـذا وصموده، وكيف انحاز الحفصيون الثائرون إلى الجماعة، وكـان هؤلاء الأعراب وقود ما كان ثار من الفتن، والمحرضين على فكرة الانفصـال التي تيسر لهم الاصطيـاد في المـاء العكر، ممـا جعلهم غير مستعدين للتنـازل عمـا اكتسبوا بفضل العـدوان

الذي أضفت عليه الاضطرابات مشروعية ما أثاروا في وجهه عديدا من الثورات، واضعين أنفسهم رهن إشارة كل من يقدم لهم ثمنا أكبر من دعاة التفرقة والانفصال.

ثم دفعتهم رعونتهم وما استمرأوه من فوضى أن يتجرأوا ويفكروا في أن يقطعوا على أبي الحسن طريق العودة إلى مقر مملكته برا، مما اضطر معه إلى ركوب البحر كما رأينا،وزيادة في عرقلة أعمال أبي الحسن وإغاظته له أمدوا بني عبد الواد والحفصيين بالعون العسكري لتنفيذ مخططاتهم الانفصالية حين تطوعوا كجنود مرتزقة مما تحقق معه عمليا ما قدروه وسعوا إليه، وتبخرت فكرة الوحدة وتم الانفصال...

وإذا كان أبو عنان قد حاول ـ بعد انتهاء خلافه مع أبيه بوفاة هذا الأب في ظروف غامضة عاشر صفر سنة اثنين وخمسين وسبعمائة هـ / 752 هـ / أن يعيد الكرة، وينتهج نفس سياسة أبيه فيما يخص قضية الحرص على بقاء المغرب العربي موحدا ولو بحد السلاح، فإن الأحداث الدموية الفظيعة التي كانت ارتكبت بسبب خلافه مع أبيه كانت قد خلقت ندوبا في القلوب، وجروحا في النفوس وأحدثت فجوات بين مختلف الطبقات الشعبية جد عميقة في كل أجزاء هذه الإمبراطورية، ولم يكن بسبب ذلك من السهل أو الميسور طمر تلك الفجوات ولا حتى بناء قناطر لعبورها، بما يتسنى معه تحقيق الفكرة أو بقاء جذوة الإيمان بالعمل لها حية متوثبة.

وقد تأكد أبو عنان، وكل المرينيين الذين جاءوا بعده من عبث محاولاتهم في هذا المجال ومن عدم جدوى كل تحرك فيه، كما تأكدوا أن ليس في الإمكان إرغام الناس على ما يرفضون وما لا يريدون، وخاصة عندما لا يكون هذا الأمر الذي يرغمون عليه صادرا عن ذوي الماضي الطاهر ولا عن ذوي النيات الحسنة والخالصة العمل لوجه الله الكريم وصيانة دين نبيه الشريف.

وأما موقف المرينيين من جيرانهم الآخرين وأعني بهم بني الأحمر النصريين الذين كانوا مملكين في القسم الغربي من جزيرة الأندلس، فإنه رغم الغيوم التي رانت على علاقات الدولتين، بسبب ما كان أبداه النصريون من محاولات الاستيلاء على سبتة، قبل أن تصبح نهائيا تابعة لفاس، فإن مواقف المرينيين من أولئك النصريين اتسمت بكثير من صور التعاون المتبادل، والقائم على المهاداة، وعلى نوعية من الدفاع المشترك، وإن يكن المغرب هو أبدا الذي عليه الغرم وتحمل تبعات الدفاع عن الأندلس.

وبهذا عرفت العلاقات بين الطرفين روحا من المودة والتآخي . تحول إلى تضامن وتحالف، مع الاحتفاظ لكل طرف بحرية التصرف، بما يؤكد ذاتيته الخاصة.

وأرى أنه من هذه الزاوية عالج النصريون قضية التجاء أخوي أبي عنان لكنف أبي الحجاج سلطان غرناطة بإيعاز من أبي عنان نفسه، حين اتسعت رقعة ملكه، بضم تلمسان ومعظم أراضي المغرب الأوسط.

وحين عاد أبو عنان هذا، وطالب بإرجاع أخويه إلى حضرته حين بلغته تحركاتهما لمحاولة الاستعانة بالنصارى

على أخذ ما سماه حقوقهما المشروعة ولكن أبا الحجاج رفض في إصرار تلبية رغبة أبي عنان معللا رفضه بأنه لن يخفر ذمته، ولن يسيء جوار المسلمين المجاهدين والملتجئين، وإن يكن من الملاحظ ـ وفي إعجاب ـ أنه وحتى أمام هذا الموقف السلبي من النصريين لم يندفع أبو عنان لغزو الأندلس رغم قدرته على ذلك.

ويعلل الأستاذ عبد الله كنون مبدأ إحجام المرينيين عن غزو الأندلس بينما لم يقفوا من جيرانهم بني عبد الواد والحفصيين نفس الموقف بأن المرينيين (كانوا يعرفون ما نزل بسلفهم الموحدين من الضعف والانحلال بسبب ذلك القطر الأندلسي ومحافظتهم عليه، ولئن قيل إنه كان سبب عزهم ومجدهم، فقد يقال أيضا إنه كان سبب تعسهم ونحسهم، فمن المحقق أنه لولا واقعة العقاب لم يمكن للمرينيين أن يستولوا على المغرب، ويقلصوا ظل نفوذ الموحدين عنه، فهذه العبرة التاريخية هي التي كانت تثنيهم عن المغامرة في أخذ الأندلس، ولنفرض أنهم أخذوها أليس ما يلزمها من التحصين الدائم، والدفاع المستمر منهكا لقواهم، كاسرا لشوكتهم يوما ما، كما سبق ففعل بالمرابطين وبني مومن، ولهذا فإن فكرة الاستيلاء على الأندلس لم تدر قط بخلد ملوك المرينيين، وإنما كانوا كلما عبروا إليها، واستولوا على حصن أو بلد سرعان ما يسلمونه لبني

الأحمر، قاصدين بذلك إزالة النفرة من أنفسهم وتقوية الروابط معهم، ولم يكونوا يبقون بأيديهم إلا جبل طارق والجزيرة الخضراء وجزيرة طريف لربط خيط المواصلة بين العدوتين، وإنزال المقاتلة وادخار المؤونة مما مصلحته عائدة على الأندلس). النبوغ / ج الأول / 180 / 182 /
وهكذا انتهى المرينيون إلى أن من مصلحة الجميع ومن مصلحة المنطقة ذاتها أن يوجد بين مختلف أنظمتها نوع من التعايش السلمي وتبادل العون والتضحية والتسليم بالحدود التي فرضها الوجود الواقعي لكل الدول المتساكنة في رقعة الامبراطورية الموحدية القديمة.

وهكذا أعاد الحفصيون استقلالهم بمعونة الثائر (أبي محمد بن تيفراجين) الذي كان طارده أبو الحسن حيث فر إلى مصر للنجاة من تلك المطاردة، وقد عاد إلى تونس ثامن عشر جمادى الأولى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة / 751 هـ.

واكتفى ابن تيفراجين بتمثيل دور ابن أبي عامر مع هشام المؤيد في الأندلس.

وفي نظري أن إدراك المرينيين لهذه الحقيقة هو الذي جعلهم يعدلون عن نهج سياسة العداء مع جيرانهم، ويتحولون عنها إلى شن سياسة جديدة تقوم على حسن الجوار والتفاهم، وتنسيق الخطط الكفيلة بتحقيق الرفاهية لكل المنطقة وإبعادها وسكانها عن كل خطر.

وهذا التحول في سياسة بني مرين تجاه الدول سواهم، هو ما نسميه المرحلة الثانية، في وجودهم الدبلوماسي، أو مرحلة التقعيد لملكهم والتنظيم لمختلف سياساتهم ومرافق شؤونهم والعمل على خلق ازدهار اقتصادي ضروري لكل مجتمع ودولة يريدان استشعار الاستقرار والاطمئنان إلى جميل المكتسبات والقدرة الذاتية على حماية الحرية والاستقلال.

ج) - علاقة المرينيين بإفريقيا والشرق الإسلامي :

فيما أسميناه المرحلة الثانية لوجود بني مرين الدبلوماسي يمكن إدراج علاقاتهم في هذا المجال مع كل من إفريقيا والشرق العربي الإسلامي.

والملاحظ أن بني مرين في مرحلتهم هذه - وفيما أقاموه فيها من علاقات مع خصوص الشرق وإفريقيا تبنوا مبدأ تمتين الروابط الإسلامية، مع التقيد بمبدأ عدم التدخل في شؤون الآخرين الداخلية.

وعلى هذين الأساسين أقاموا علاقات جد قوية ومتينة مع مالي والسودان من شعوب إفريقيا السوداء ومع مصر والحجاز بصفة خاصة، ومع الشرق الإسلامي بصفة عامة من شعوب إفريقيا السوداء ومع مصر والحجاز بصفة خاصة، ومع الشرق الإسلامي بصفة عامة من شعوب آسيا.

وسنستعرض في عجالة واقتضاب بعض مظاهر هذه العلاقات لإثبات مدى اهتمامهم بهذا الميدان من حياتهم السياسية.

ثم فيما يخص علاقاتهم بمالي والسودان، نذكر أنها اتسمت على الدوام بالتقدير والاحترام المتبادلين وأنها بلغت من القوة درجة اضطر معها أبو عنان بعد وفاة أبيه أبي الحسن، أو بعد انتحاره بأن قعد نفسه في الدارعين وترك دمه يسيل حتى مات كما يذكر هذه القصة بعض المؤرخين - اضطر أن يبعث وفدا رسميا لكل من هاتين الدولتين برأسه ابن بطوطة صاحب الرحلة يقدم لهما تفسيرات معقولة - أو على الأقل مقبولة - لما أحاط بوفاة أبي الحسن من تساؤلات واستفهامات وغموض نظرا لما كان يتمتع به أبو الحسن من تقدير عظيم في تينك الدولتين، التقدير الذي دفع بشعبيهما أن يقيما المهرجانات التأبينية أسفا على فقدانه.

واضطر ابن بطوطة لتوضيح الموقف بما يعيد المياه إلى مجاريها، إلى تمديد إقامته مدة أطول مما كان يقدر، إذ لم يعد إلا بعد صدور تعليمات أبي عنان له بالعودة السريعة إلى فاس.

أ - قال ابن بطوطة يتحدث عن عودته تلك : (فلما عدت إلى (تكندا) وصل غلام الحاج ومحمد بن سعيد السجلماسي بأمر مولانا أمير المؤمنين آمرا لي بالوصول إلى حضرته العلية، وامتثلته على الفور، وخرجت من (تكندا) يوم الخميس الحادي عشر شعبان سنة : 754 هـ)، في رفقة كبيرة، فيهم جعفر التواتي وهو من الفضلاء). وانظر بحثنا

عن البيعة والخلافة في الإسلام في موضوع هذه العلاقات.

أما عن علاقات المرينيين بدول الشرق الإسلامي، فقد كانت قوية مستمرة وفي مختلف الأشكال، وتباين الأحوال وتعدد المناسبات.

ومن كلمات ابن خلدون - وهو يتحدث عن هذه العلاقات المتينة ويصف أبعادها قوله : (ولم تزل ملوك المغرب على القدم ولهذا العهد يعرفون لملوك الترك بمصر حقهم، ويوجبون لهم الفضل والمزية، بما خصهم الله به من ضخامة الملك، وشرف الولاية بالمساجد المعظمة، وخدمة الحرمين الشريفين، وكانت المهاداة بينهم تتصل، وقد تنقطع بما يعرض في الدولتين من الأحوال).

العبر لابن خلدون ج الخامس / ص 479 / ودعوة الحق ص / 61 عدد / 8 سنة / 8.

وقد ابتدأت هذه العلاقات - فيما يذكر المؤرخون - بين أبي يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني والملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون، الذي كان استقل بمصر والشام والحجاز، ما بين سنتي 678 إلى 689 هـ.

وكانت بداية هذا الاتصال بين السلطانين المغربي والمصري - فيما يبدو - حين طلب الملك المصري من المغرب التدخل لدى ملك قشتالة لصالح حكام مصر كما قد يفهم مما نقله ابن حجر العسقلاني في فتح الباري حين قال :

(أنبأني غير واحد عن القاضي نور الدين بن الصائغ الدمشقي، قال : حدثني سيف الدين قليح المنصوري قال : أرسلني الملك المنصور قلاوون إلى ملك المغرب بهدية، فأرسلني ملك المغرب في شفاعة إلى ملك قشتالة فقبلها) دعوة الحق / العدد 5 / ص / 61 السنة 8.

ثم ازدهرت هذه العلاقات في عهد يوسف بن يعقوب المريني (685 هـ - 706) الذي كان يعاصر - كما قلنا - الملك الناصر محمد المنصور قلاوون الصالحي.

وقد أثبت المؤرخون في مضار العلاقات بين الشرق الإسلامي والمغرب المريني ثلاث سفارات تمت كلها ما بين 700 و704هـ.

والأولى كانت تلك التي تمت سنة : 700 هـ وكانت بالخصوص إلى مصر، ورئيسها مجهول وقد أشار ابن خلدون لذكر تاريخها حين قال : (حضر في سنة سبعمائة وزير من المغرب **في غرض الرسالة :**)، دون الإشارة إلى فحوى هذه الرسالة...

أما السفارة الثانية، فقد كانت بالقصد إلى الحرمين وبرسم الحج، وعبر مصر، وكانت حدثت سنة : 703 هـ حين أوفد السلطان بعثة من العلماء مخفورة بقوة من الجيش قوامها خمسمائة جندي، وكان من ضمن أفرادها القاضي محمد بن زغبوش، وكبير علماء المغرب ليومئذ أبو عبد الله القصار، وبصحبته أبو عبد الله محمد بن ابراهيم البقوري دفين مراكش.

وكانت هذه البعثة تحمل مصحفا أعد خصيصا للحرم المكي مع مصاحف أخرى ومعهما هدايا مختلفة لملك مصر وسكان الحرمين، وقد أورد ابن خلدون أيضا خبر هذه السفارة والمصحف الذي أهداه يوسف فقال : (فأمر يوسف بانتساخ مصحف رائق الصنعة، كتبه ونمقه أحمد بن الحسن الكاتب المحسن، واستوسع في جرمه، وضمن غشاءه من بديع الصنعة، واستكثر فيه من مغالق الذهب المنظم بخرزات الدر والياقوت، وجعل منها حصاة وسط المغلق تفوق الحصيات الأخرى مقدارا وشكلا وحسنا واستكثر من الأصونة عليه).

ويحكي ابن مرزوق : (أنه رأى بمكة هذا المصحف الذي بعثه المولى أبو يعقوب بخط أبي الحسن، وكان وجهه محلى بالذهب المنظوم بالجواهر النفيسة).

ويضيف ابن مرزوق : (وقد انتزع ما عليه، وبقي في قبة التراب يقرأ فيه احتسابا، قال ابن مرزوق : (وقد قرأت فيه في أعوام) دعوة الحق / ص / 62 / العدد / 5 / السنة : 8.

أما السفارة الثالثة فقد حدثت كذلك في عهد السلطان يوسف وفي سنة : 704 أو 705 هـ، وكانت هذه المرة مزدوجة الغاية، الحج وحمل هدايا ثمينة لملك مصر، وكانت برئاسة : (أيد غدى الشهرزوري علاء الدين، وبدلالة أبي زيد الغفائري، وكبيرأهل الفتيا بتلمسان أبي الحسن التنيسي.

وتتحدث الروايات التاريخية أن البعثة حملت معها هدايا سنية إلى الناصر قلاوون بلغت أربعمائة جواد عتيق

مجهزة تجهيزا حربيا، وأربعمائة بغل، مع كثير من ماعون المغرب وسائر طرفه، وجملة من الذهب العين)، ويصفها ابن الوردي فيما حكاه عنه ابن خلدون في العبر بهذه الكلمات.

(ثم دخلت سنة 704 هـ، وفيها وصل من المغرب كثير، صحبتهم رسول أبي يعقوب يوسف ابن يعقوب المريني ملك المغرب إلى مصر بهدية عظيمة : خيل وبغال نحو خمسمائة بسروج ولجم، ملبسة بالذهب المصري).

ولقد رد ملك مصر عليها سنة : 705 هـ، بالأحسن، هدية فيها من طرف الشرق ما يستغرب من الثياب، والحيوانات الفيل والزرافة، وبعض ما كان غنمه قلاوون في حربه مع التتار، تلك الحرب التي جرت بينهما بظاهر دمشق وانتصر فيها قلاوون، فجعل في هديته لملك المغرب أشياء من مغانم هؤلاء، إشهارا لأمر هذا الفتح بالمغرب، فكان صحبة الهدية عشرون أكديشا من أكاديش التتار، وعشرون أسيرا منهم، وشيء من طبولهم وقسيهم.

ويسجل في إطار توثيق الدولة المرينية علاقاتها الدينية والدموية مع الشرق ما أحدثه ملوكها من كتابة رسائل خاصة موجهة إلى الروضة الشريفة بيثرب، والتي أطلق عليها بسبب ذلك في الأدب المغربي لعهد هذه الدولة : (بالرسائل النبويات) وكانت تدبجها براعات الملوك، ويذيلونها بما ينشئونه من قصائد وأشعار في نفس الموضوع، مما قد نتعرض له في حديثنا عن شعر المولديات، وكانت تردف هذه الرسائل بأوقاف سنية يخصص ريعها لتدارسها وصيانتها.

وكان أبو عنان ـ متأثرا بآثار أسلافه الذين كانوا يقدرون البيت النبوي الشريف ـ أول من سن هذه السنة حين أرسل الفقيه البرجي سفيره إلى مصر برسالته النبوية سنة : 756 هـ تلك الرسالة التي نالت شهرة عظيمة في الشرق، والتي وصفها صاحب كشف الظنون بالدرة السنية، وقال عنها ابن الخطيب في الإحاطة إنها تعلن في الخفاء بعد شأو أبي عنان ورسوخ قدم علمه، وعراقة البلاغة في نسب خصله ثم قال ابن الخطيب :

(وكانت متصلة بقصيدة من نظمه، وقد دبجها بخط يمينه، الذي يخجل الروض حسنا ـ كما هو تعبير تحفة النظار عنها ـ، وقد ظلت هذه الرسالة تقرأ إلى ما بعد سنة : 800 هـ / في المدينة المنورة حسبما جاء في كتاب (نصح ملوك المسلمين) ثم جاء بعد أبي عنان أبو فارس عبد العزيز الأول الذي أرسل بدوره رسالة مماثلة لتلك التي أرسلها أبو عنان، وفي نفس الموضوع، وقد كتبها هو الآخر بخط يمينه موجها أياها إلى المقام الشريف.

وقد اشار إليها ابن أبي حجلة في كتابه : (منطق الطير) حيث قال : (فقد وقف المملوك ـ يعني نفسه ـ على الرسالة الملكية السلطانية الفارسية العزيزية المجهزة إلى الحضرة النبوية، المفتتحة بالأبيات الدالية، وهذا هو الفرق بين الرسالتين : رسالة أبي عنان ورسالة أبي فارس حيث أخر الأول القصيدة بينما قدمها الثاني ـ وانتهى إلى ما انجز في ذيلها من الضراعة والظمأ إلى صاحب الحوض والشفاعة، فقد بلغ برسالته التي قرئت بحضرة الرسول، وهبت عليها نسمة القبول، وإشارة لهذه الرسالة نفسها يقول ابن أبي حجلة في قصيدته التي أنشأها تقريظا :

في النبي الهاشمي رسالة ... يكرر فيها شوقه ويعيد
وانشدها بالحج في كل مشهد ... يطيب بها للسمع منه نشيد
وأم بها من طيبة طيب روضة ... بها، قطف الجاني الرضا ويزيد

ثم تتوبعت تلك البعثات على مختلف المستويات، حتى إذا جاء عهد أبي سعيد عثمان الثاني سنة : 804 هـ، وكان التتار بزعامة (تيمورلنك) يعاودون مهاجمة الشام، بعث سفيره أبا عبد الله محمد بن أبي القاسم ابن نفيس الحسيني العراقي بهدايا إلى ملك مصر، وبرسالة أكد فيها استعداد المغرب لإرسال جيوشه لتشارك في المعارك، إذ كان ذلك ضروريا لسلامة الإخوان المسلمين في تلك الديار.

ويعيد التاريخ نفسه في سنة : 1967م حين هاجمت شرذمة الصهاينة الأراضي العربية وبعث الحسن الثاني فيالق من جنوده الأشاوس لتشارك في معركة المصير لولا ما حال دون هذه الغاية من أحداث... وإن تمكن الجيش المغربي في هذا العهد من المشاركة في معركة (سيناء والجولان) سنة : 1974 من شهر رمضان وفي العاشر رمضان.

المرأة في الإسلام

للأستاذ مولاي مصطفى بن أحمد العلوي

انطلاقا من قول الله تعالى : ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء..... إلى رقيبا**﴾، وقوله : ﴿**هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها**﴾، وقوله : ﴿**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة**﴾، فهذا الإنسان المخلوق من طينة واحدة ونفس واحدة استخلفه الله في الأرض ليعمرها ويعيش فيها، وتتعاقب أجياله فوقها إلى أن يشاء الله وقد ركب في خلقته غرائز تدفعه إلى مؤانسة بعضه لبعض وقد قيل : إن ذلك موضوع تسميته إنسانا فكون ذكرانه إلى إناثه والعكس، هو أمر جبلي وطبيعي في تكوين نشأة المخلوق على ذلك لحكمة اقتضاها صنعه البديع والإنسان كسائر المخوقات الحية يتعامل جنسيا، ذكرانه وإناثه، لأنه فطر على ذلك من لدن صانعه الذي فطره على ذلك سبحانه.

والإسلام لا يحارب دوافع الفطرة ولا يتقذرها، وإنما ينظمها ويطهرها ويرفعها عن المستوى الحيواني ويرقيها، حتى تصبح المحور الذي يدور عليه الكثير من الآداب النفسية والاجتماعية والأخلاقية في هذا المجتمع المترفع عن مجرد الحيوانية. فالإسلام يريد من مجتمعه الذي يشترك في تكوينه الذكران والإناث أن يرتفع فيه الطرفان عن الحيوانية التي لا تهدف إلى إقامة أسرة وتأسيس بيت فيه حياة مشتركة بل يريد أن تقوم الحياة الجنسية على أسس من المشاعر الإنسانية الراقية التي تربط بين الإنسانية برباط التقوى وإنشاء حياة دائمة مشتركة بقلبين وروحين طاهرين ينظران إلى مستقبل مشترك يلتقي في الذرية المرتقية والتي يسهر على تكوينها والدان حارسان لا يفترقان.

تلك لمحة قصيرة عن منشأ الإنسان بنوعيه الذكران الإناث في نظرية الإسلام انطلاقا من الآية الكريمة السالفة : ﴿**ومن آيته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة**﴾.

ويجمل بنا قبل أن نفصل القول في موقف الإسلام من المرأة وهي نصف هذا المجتمع أو تزيد.

أن نستعرض بإيجاز موقف بعض الأمم والشعوب والديانات والمذاهب المختلفة في احقاب التاريخ قبل الإسلام لنميز بين وضعية المرأة في تلك الاحقاب وبين ما خصها به دين محمد ﷺ مما يميز بين الحالتين، وذلك حسب المستطاع وما يسمح به الوقت القصير.

فاليونان من أقدم الأمم في تاريخ البشرية وأكثرها حضارة، وفي عصرهم البدائي كانت المرأة عندهم في غاية من الانحطاط وسوء الحال في الأخلاق والحقوق والسلوك الاجتماعي، فلم تكن لامرأة عندهم منزلة أو مقام كريم، وإنما كانت مجرد متاع، وما كان الرجال مطالبين بمثل عليا من العفاف وطهارة الأخلاق. حتى كانت النساء المنحرفات جزءا من صميم المجتمع اليوناني لا ينفك عنه، ولا يعاب على المرأ إذا عاشرهن أو خادنهن، حتى أصبحت بيوتهن مراكز يؤمها الرجال من سائر طبقات المجتمع.

أما الرومان فقد كانت لهم نظرية أخرى في أول عهدهم وازدهار دولتهم فكان الرجل رب الأسرة يتحكم في جميع أفرادها : زوجة وبنين وبنات، وكان العفاف عندهم في أجل مكان من الاعتبار.

ولكن سرعان ما تغير هذا الموقف منهم في شأن المرأة كلما ازدهرت حضارتهم إلى أن انقلب الأمر وانعكست الحال رأسا على عقب فلم يبق لعقد الزواج عندهم اعتبار، وأصبحوا لا يهتمون بتبعات العلاقة الزوجية، ومنحت المرأة حقوق الإرث والملك، وجعلها القانون حرة طليقة لا سلطة عليها لزوج ولا لأب، وأصبح الطلاق عندهم أمرا عاديا لا أثر له في المجتمع، وحتى أصبح النساء يعددن سني أعمارهن بعدد الرجال الذين تزوجت بهم أي في كل عام زواج وطلاق، ذكر أحد المؤرخين مارسل (43 ـ 104م) أن امرأة تزوجت عشرة رجال في ظرف قصير، وقال آخر جووينل (60 ـ 140م) أن امرأة تقلبت في أحضان ثمانين أزواج في خمس سنوات، وهكذا هبط المستوى الأخلاقي إلى أن أصبح كبار علمائهم يعدون الزنى أمرا عاديا كما زعم كاتو (84 ق م). ولما انحلت عرى الأخلاق وصيانة الآداب عند المجتمع الروماني اندفع تيار العري وارتكاب الفواحش وجموح الشهوات، وأصبحت المسارح ميادين للخلاعة والمجون والتبرج الممقوت والعرى المشين، وزينت البيوت بصور ورسوم كلها دعوة سافرة إلى الفجور والدعارة والفحشاء الأمر الذي اضطر معه المسؤولون إلى وضع قانون يمنع نساء البيوت من احتراف مهنة الفساد وصناعته النافقة. وانتشر بالرغم من ذلك السباق إلى العري والاستحمام في مكان واحد يضم النساء والرجال، ولا يخفى ما يجره ذلك من أباحية واختلاط في الإنسان، الأمر الذي يميت الروابط الأسروية التي هي سر وجود مجتمعات متماسكة متضامنة في السراء والضراء.

وجاءت المسيحية منتشرة في أوربا التي كانت تعيش فوضى أخلاقية متناهية فحاولت أن تطهر المجتمع وأعلنت استنكار البغاء، وتوعدت من يتعاطيه من النساء بسوء العاقبة، ودفعت بالراقصات والمغنيات إلى إعلان التوبة على أيدي الرهبان رجال الدين الذين تشددوا في أمر العلاقات الجنسية، وأعلنوا زهدهم فيها، وأشاعوا في الناس في المرأة ينبوع المعاصي، وأصل السيئة والفجور، وهي للرجل باب من أبواب جهنم تغريه وتغرر به حتى الهلاك، لأنها سلاح إبليس الذي لا يوازيه سلاح. وقد قال أحد أقطاب المسيحية (تروتوكيان) : إنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان، وإنها دافعة بالمرء إلى الشجرة الممنوعة ناقضة لقانون الله : وقال كرائي سوستام وهو من كبار رجال المسيحية : المرأة شر لابد منه، ووسوسة جبلية، وآفة مرغوب فيها، وخطر على الأسرة والبيت ورزء وسوء.

وهكذا وبفعل دعوة الرهبان أصبحت العزوبة وتجنب معاشرة المرأة حتى بعقد نكاح من علامات التقوى والصلاح والورع وسمو الأخلاق، وضرب في ذلك المثل رهبانهم في الأديرة والكنائس وتشددوا في هذا الأمر، فكان رد الفعل أن انتشر الفساد والأباحية بشكل خطير، نظرا للإحراج الناجم عن تعاليم الرهبان وعن سلوكهم في الظاهر المنفر من معاشرة المرأة ولو عن طريق العقد القانوني، في حين أن الطلاق غير مسموح به دينيا وقانونيا مما يدفع بالزوجين عند سوء العلاقة إلى أن يتحرر كل منهما من قرينه فتبدأ المخادعة والاتصالات اللامشروعة وبذلك أسرع الفساد إلى المجتمع وانحلت روابطه وتهلهل وضع الأسرة التي هي الخلية الأولى لتكوين مجتمع متماسك.

وفي الجزيرة العربية وقد كانت تحتك بجيرانها من الأمم والشعوب التي خضعت لليونان والرومان وغيرهم ممن فسدت أوضاعهم وحالاتهم، فتأثروا كثيرا بتلك الأحوال ونشأ عن أخلاقهم التي عرفوا بها ـ ومنها عزة نفوسهم وأنفتهم من العار ـ أن كرهوا المرأة بصفة عامة وأصبح الرجل منهم يستنكف من مولودته ويتقزز من وضع يوجد عليه وفي

بيته عدة بنات من صلبه ومن زوجته القانونية، الأمر الذي دفع ببعضهم إلى التخلص من بنته وصبيته فيدفنها في التراب وهي حية تأخذ بلحيته، وهو يضعها في قبر بدون شفقة ولا رحمة، الأمر الذي نهى عنه القرآن وبأسلوب بليغ في النكير ووضع المسؤولية على صاحبها، ﴿**وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت**﴾ وما كانوا يفعلون ذلك إلا خشية العار، أن تبقى البنت في بيت أبويها ولا يأتي من يخطبها ويتزوجها فتضطر لسلوك السبيل الفاسد، الأمر الذي يصبح سبة وعارا على قبيلتها. ولشدة ما كان من وقع كلمة في بيت شعر تلصق العار والشنار بأسرة أو قبيلة لا تصحوه صحائف الدهر وتقلباته.

تلك بعض سمات العصر الذي بعث فيه رسول الإسلام محمد ﷺ وجاء بالرسالة الخاتمة العامة الشاملة لسائر الأمم والشعوب، وكان من أهم ما جاءت به رسالة الإسلام تصحيح عقيدة الإيمان بأن الله وحده لا شريك له هو صاحب الأمر والنهي الخالق الرازق المدبر المحي المميت بيده كل شيء وإليه المصير. وبعدها العمل على صلة الخلائق بصانعها ومربيها سبحانه، وذلك بتقبل ما أنزله على عبده ورسوله سيدنا محمد، هذا القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو المعجزة الكبرى الدالة على صدق محمد في رسالته هاته. والآن وقد مضى على بعثة رسول الله أزيد من أربعة عشر قرنا والقرآن كما أنزل لم يضع منه حرف ولا كلمة. وها هو يفتح القلوب ويشرح الصدور، ويعيد للأنفس الطمأنينة بعد الذي أصابها من هزات في المعتقد والسلوك والمعاملة. ويعين على تصحيح الأوضاع وإصلاح الأخطاء، ويرأب الصدع ويلم الشعث وينير للناس طريق الهدى والسعادة في الدارين : ﴿**من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مومن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾.

وبعد، يمكننا الآن أن نستلهم كتاب الله ونتجول في أرجائه لنرى منزلة المرأة في الإسلام، بعد الذي اعتراها من تقلبات وأوضاع منذ آلاف السنين ولدى مختلف الأمم والحضارات، فالإنسان داخل في عموم قول الله تعالى : ﴿**ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون**﴾.

غير أن زوجية الإنسان تمتاز عن زوجية الأشياء الأخرى بما في ذلك الحيوان الذي هو أكثر شبها بالإنسان في مضمون الزوجية التي عن طريقها يتم استمرار وجوده فالإنسان كرمه الله بالعقل وألهمه واستخلفه في الأرض ومهد له سبل الحياة فيها وملكه أمرها، وسخر له جميع ما عليها من نبات وحيوان، وما أودعه في باطنها من خيرات. ﴿**هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات، وهو بكل شيء عليم**﴾ والفطرة الحيوانية في الحيوان هي نفسها في الإنسان يقول سبحانه : ﴿**جعل لكلم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذراكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾ ويقول : ﴿**نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله**﴾. والشبه المقصود هنا والله أعلم هو ملازمة ما بين الزوجين من هذا النوع من العلاقة الدائمة المستمرة دون سائر أنواع الحيوانات فالزارع يلازم زرعه وأرضه وإنتاجه يرعاه ويحافظ عليه باستمرار. والزوجان يحافظان على علاقتهما دوما ويرعيان ما ينتج عن علاقتهما الجنسية بالعناية تنشئة وتربية ورعاية لأنه استمرار لهما في هاته الحياة. والسر الذي أودعته الفطرة التي فطر الله الناس عليها هو ما أشارت إليه الآية : ﴿**ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة**﴾، فهو الاطمئنان والسكون وتبادل العطف والود والرحمة والتكامل المتجلي في الآية : ﴿**هن لباس لكم وأنتم لباس لهن**﴾، وهكذا انفرد الإنسان دون بقية الحيوانات والمخلوقات الأخرى بأن علاقة زوجية ليست علاقة جنسية عابرة فقط وإنما هو التكامل والتعاون والحب والرحمة والمودة والحفاظ على بقاء السلالة البشرية عن طريق هذا الاتصال الجنسي وما ينجم عنه، فبالرغم من مدلول الآية : ﴿**وحملته أمه وهنا على وهن**﴾، وقوله تعالى : ﴿**حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا**﴾، فإن علاقة هذا الحمل ومستقبله مرتبط بوالديه بشكل لا وجود له في غير الإنسان من الحيوانات كما تفيده الآية : ﴿**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين**﴾ فهذا الحب وهذا الحنان

الفطري هو الذي يقيم أواصر النسب والمصاهرة بين أفراد الإنسان، وعنه تنشأ روابط الأسر والعائلات ومنها تتألف القبائل والشعوب مصداقا لقول الله جل شأنه :: **﴿وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا﴾**، وقوله : **﴿يا أيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**، فرابطة الرحمة وأصرة الصهر والنسب هي في الحقيقة حجر الزاوية فيطبيعة التمدن الإنساني، ويتوقف قيامها ومتانتها على أن يكون الأولاد من الآباء المعروفين المعلومين، وذلك سر حفظ الإنسان من الزلف والاختلاط... حتى بعد موت الأبوين تظل هاته الروابط قائمة فيما خلفوه من بنين وأموال **﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾**، أما مجهولو الآباء فقد قطعت هاته الآصرة منهم بحكم الله **﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾**.

وقد ميز الله الإنسان من بين المخلوقات بغريزة الحياة، فالحياة غريزة طبيعية فيه دون غيره من المخلوقات، ومن ثم كان مجبولا على الرغبة في ستر بعض أجزاء جسمه تلك الأجزاء التي هي أدعى إلى إثارة فتنة بعضه ببعض وقد بين القرآن هذا عندما تحدث عن آدم وزوجه وقد سترا بعض تلك الأعضاء كما تقتضيه الفطرة والحياة التي أودعها الله فيهما، فجاء إبليس اللعين يوسوس بينهما ليبديا ما ستراه حياء **﴿فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سؤاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هاته الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين فد لاهما بغرور﴾**. فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سؤاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، ثم نبههما سبحانه إلى شيء آخر فقال : **﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سؤاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾**.

وهكذا نرى الإسلام يسير بتدرج في ضبط هذا الجانب الحيواني في الإنسان بصفة خاصة لأن الله تعالى كرمه واصطفاه ليكون خليفته في الأرض ومن ثم ميزه عن غيره من المخلوقات بأن علمه كيف يتصرف جنسيا، ووهبه صفة العقل والتفكر، وأنعم عليه بصفة الحياء، وبذلك أمكنه تصريف غريزته الجنسية على شكل منضبط سليم دائم مستقى.

وبما أن البعض من أفراد هذا الإنسان تدعوهم ضرورة القرابة الدموية إلى أن يكونوا على اتصال دائم ومستمر في كل الظروف الحياتية فقد حرم عليهم القرآن هذا الميلان الجنسي بصفة قاطعة ودائمة فقال : **﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعتكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نساءكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف﴾**. كما حرم عليهم ذوات الأزواج والمحصنات من النساء. وحرم أيضا الاتصال بمن سوى ذلك بدون عقد ونكاح مشروع مما يعد زنى. فقال : **﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا﴾**.

وبهذا سدت أبواب الفوضى الجنسية بحكم الإسلام، وإذن فباب المتعة الجنسية مقيدة بقيود نص عليها القرآن : **﴿وأحل لكم ما وراء ذلك أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين﴾**، وقال : **﴿فانكحوهن بإذن أهلهن﴾**، وقال : **﴿محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان﴾**. هذه ميزة الإسلام لا يأمر بكبت العلاقة الجنسية ولكنه ينظمها ويضع في طريقها ترتيبات وشروطا إذا توفرت كان أثرها طيبا، وأنتجت مجتمعا متماسكا، فالصلة الجنسية إذا فقدت شروطها كانت محرمة ومستقذرة، وتعود على فاعليها بشر مستطير، وإذا وقعت داخل الإطار الشرعي في دائرة الزواج المستكمل للأركان والشروط كانت مباحة ومستحسنة ومرغبا فيها، وتصبح عبادة إذا صاحبتها النية والقصد إلى إحصان المرأ نفسه من الوقوع في المحرمات. وقد علمنا المعلم الأكبر محمد ﷺ هذا فلنستمع إليه يقول : «من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

ثم يقول في حديث آخر : «والله أني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأنام وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني».

ويقول ﷺ : «لا تصوم المرأة وبعلها شاهد إلا بإذنه» ثم يقول : «إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع».

ويقول : «إذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فإن معها مثل الذي معها».

وقصده من هذا ﷺ سد أبواب الفوضى الجنسية وإرشاد المسلمين إلى ما فيه صلاح أمرهم وانتظام شؤونهم، وهذا كله داخل في الوقاية من جريمة الزنى التي هي جرم فظيع في نظر الإسلام.

تنظيم الأسرة :

وعندما تناول الإسلام تنظيم الأسرة راعي في ذلك تكوين كل عضو من عضوي الأسرة : الزوج والزوجة. ونظر إلى ظروف كل منهما وتكوينه الجنسي والعاطفي، وأناط بكل منهما ما يصلح له فألقى على الرجل بمسؤولية كل متاعب الحياة التي من شأنه أن يضطلع بها. وفي مقدمتها النفقة، فليس على المرأة أن تنفق على نفسها ولا على ما تنجبه من أولاد حتى ولو كانت ذات مال.

وعلى الزوج الاطعام والكساء والعلاج والسكن والتربية للزوجة والبنين في كل الحالات.

وحتى في حالة الرضاعة. وعلى الزوجة الحمل وما له وعليه، والارضاع وتربية الرضيع والطفل وتنظيم البيت. فلنستمع إلى القرآن الكريم وهو يقول : ﴿**والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين، لمن أراد أن يتم الرضاعة، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها، لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده**﴾.

فحقوق كل من الزوجين مضمونة بحكم الإسلام ﴿**ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة**﴾. ولعلها درجة الانفاق والله أعلم.

وإذا كانت قوامة الرجال على النساء بحكم الآية الكريمة : ﴿**الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم**﴾، أثبتت نوعا من الأفضلية فليست هناك مفاضلة تقتضي أن أحد الجانبين محتقر عند الله فالتفاضل الحقيقي عند الله إنما هو بالتقوى، وإنما هنا مفاضلة في العلم على ما يقوم به أمر الأسرة وقيادتها وزيادتها للخير وإبعادها عن الشر، وهو ما يستفاد جانب منه من قوله سبحانه : ﴿**وبما أنفقوا من أموالهم**﴾.

ثم قد يكون هناك فرق في القدرة على التفكير وتحمل الصدمات التي قد تعترض المرء في حياته ومما لا ريب فيه أن الرجال في هذا أشد تحملا من النساء.

ومن هذا الجانب فقط والله أعلم تفرعت عدة نقط في علاقة المرأة بالرجل. فبالرغم مما تفيده الآية : ﴿**ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف**﴾، فإن هناك عدة أحكام أقرها الإسلام وهي لصالح الطرفين. وقد تكون لصالح من يظن أنها نقص من حقه، وذلك كأخذ رأي المرأة عند عقد النكاح مثلا بالنسبة للولي والقاضي، فليس للولي، ولو كان أبا أن يعقد على امرأة بغير رضاها، ولكن إذنه شرط لأخذ الاحتياط في العقد، وإنه مستوف للشروط التي من أهمها الكفاءة المادية والمعنوية حتى لا تقع المرأة فيما لا تحمد عقباه، بدافع من الدوافع العارضة.

ولا يمس هذا بالمساواة في الحقوق وإنما هو تأكيد لتلك الحقوق. بدليل أنه عندما يكشف الحال ويتبين أن من له الحق في هاته المشورة أراد أن يستعمل ذلك الحق، في غير محله فقد جاء النهي صريحا في قوله سبحانه : ﴿**ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن**﴾. وإذا وقف ولي في وجه زواج امرأة بغيرحق تدخل القضاء وتم العقد بإذنه.

وهكذا يثبت الإسلام للمرأة حق التصرف في أمرها بنفسها بما في ذلك الترابط الدائم في الزواج وحفاظا على حقوق المرأة منع الرجل من الأساءة لزوجته بحكم القوامة التي إنما منحت له للحفاظ على سلامة الأسرة وقيادتها في طريق الخير والصلاح.

وكذلك أعطيت المرأة حق تنمية كفاءتها وما منحها الله من مواهب فكرية في حدود النظام الإسلام وقيوده التي هي في صالح بناء الأسرة، والرأة من أهم عناصر

الأسرة، وبرقيها في العلوم والمدارك واستثمار المواهب التي منحها الله تكون الأسرة في أوج السعادة والازدهار.

وفي الميدان الاقتصادي فالإسلام عكس جميع الأنظمة الوضعية التي قيدت المرأة في هذا الصدد، وجعلتها مرهونة بإذن شريك الحياة في كل أمر تريده في مالها. فالإسلام منحها حق التصرف فيما تملكه بما في ذلك صداقها الذي تأخذه من شريك الحياة عند عقد الزواج ولا يجوز له أن يأخذ منه شيئا. قال تعالى : ﴿**وآتيتموا إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا**﴾.

والميثاق الغليظ هو عقد الزواج.

وإذا كان هذا فيما أخذته صداقا فكيف بما ورثته من موروثها مطلقا وما تكتسبه من عمل يدها.

إنه لا يوجد نظام أعطى حرية التصرف في المال للمرأة كالإسلام، فلا يجوز لأحد أن يقيدها في هذا إلا أن يكون في تصرفها شطط وأسراف فيتدخل القضاء كما يتدخل عندئذ في شأن الرجال سواء.

أما قضية الميراث فإن الله تولى أمره صراحة فقال :

﴿**للذكر مثل حظ الأنثيين**﴾، ولو جاز وأستغفر الله سلفا من قولي هذا لو جاز أن ينعت هذا التشريع بنوع من الشطط أو الحيف تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا لكان الأمر بعكس ما يتوهم الناس فيه مساسا، بحق الرجل، لأن المرأة عندما تأخذ نصف حصة تنصرف فيها ولا تنفق منها على نفسها ولا على أولادها ولا على غيرهم، بينما الإنفاق وكل شؤون المال الذي تحتاجه الأسرة على عاتق الرجل وذلك يجسم أن المرأة في هذا الأمر محظوظة وتلك قسمة الله، ومن لم يرض بها فليحمل مسؤوليته، وأستغفر الله مرة أخرى.

أما قضية الطلاق وانفصام العصمة التي جعلها الإسلام بيد الرجل فالحكمة في ذلك والله أعلم أن الرجل أولا هو الذي دفع مالا في هذا العقد والميثاق الغليظ كما وصفه الله ثانيا أن الرجل غير سريع التأثر عندما يقع ما من شأنه أن يقلق ويغضب من تصرفات قد تحدث في وسط الأسرة، بل إنه يسمع ويرى بتبصر ولا يقدم على إعلان الفصام إلا بعد التروي واستعمال كل الوسائل الممكنة ليتفادى أمر الخلاف، وقد أرشد القرآن الكريم إلى هذا فقال : ﴿**وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصالحا بينهما صلحا، والصلح خير**﴾، وقال في نفس المعنى : ﴿**فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها أن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما**﴾.

وأعطى للمرأة الحق في أن تطالب أيضا بهذا الفصام وحل رابطة هذا العقد ولكن عن طريق القضاء. فهناك التطليق أن ثبت الضرر وهناك الخلع على مال إن لم يثبت ضرر وبذلك يكون حق المرأة هنا مضمونا شرعيا، مع ملاحظة أن رباط الزواج أمر الله أن يكون سرمديا ولذلك نعته بأنه ميثاق غليظ وقال الرسول عليه السلام : «أبغض الحلال إلى الله الطلاق».

أما الشهادة وقد وقع التنصيص على أن شهادة عدل واحد تعدلها شهادة امرأتين فليس ذلك عن نقص في عقيدة الشاهدة أو في سلوكها. ولكنه مبني على أمر آخر وهو سرعة الانفعال والتأثر وقد ينجم عنه الغفلة والنسيان، ولذلك ورد التنصيص على هذا المعنى في الآية الكريمة : ﴿**فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى**﴾، وإذن فلا نقص ولا غضاضة على المرأة في هذا، لأنه قد يكون هناك شاهد من الرجال ولا تقبل شهادته لعلة أخرى لا دخل فيها للجنس ولا لكونه ذكرا أو أنثى. والله أعلم.

أما الولاية العامة فهي أيضا لا يوذن أمرها بنقص في المرأة وإنما نظر الشرع فيها للعاطفة الرقية التي عند النساء. والولاية خصوصا أن القضاء يحتاج إلى قوة وصرامة فمن الصعب أن لا تتأثر عاطفة المرأة وهي تبحث في إعلان حكم بالموت أو الأشغال الشاقة أو الجلد بدون شفقة ولا رحمة كما نص على ذلك الكتاب العزيز في تأديب الزاني غير المحصن ﴿**ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تومنون بالله واليوم الآخر، وليشهد عذابهما طائفة من المومنين**﴾. ففي مثل هاته الظروف يحتاج الحاكم إلى شيء من القوة وذلك ما لا يتوفر في غالبية النساء، وهناك ظروف خاصة ذكر علماء

طب النفس أن المرأة لا تكون كاملة التفكير قوية الإرادة فيها وذلك أيام الطبت الذي ينتاب المرأة فترة من كل شهر قد تستمر ثلث أيامه.

تلك بعض النقاط التي يظهر أن فيها فرقا بين الرجال والنساء، وهما طرفا الأسرة وعمدتها، والأسرة هي حجر الزاوية لكل مجتمع يريده الإسلام نظيفا طاهرا قويا متماسكا متضامنا حتى تتكون منه خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتومن بالله.

وليكون هذا المجتمع نموذجا فريدا في القوة والتعاطف والتكامل والتضامن، وضع له الإسلام عدة عوامل توجهه إلى الغاية المنشودة.

1) العامل الوقائي : فقد أعطى الإسلام عدة تعليمات في هذا الميدان إذا نفذت تقي الفرد والمجتمع من الوقوع في مستنقع الرذائل ففرض نوعا من السلوك من شأنه أن يجعل المجتمع في مأمن من الأخطاء والانحرافات التي تمس بسلامة الأفراد والأسر، وبالتالي المجتمع فجعل حدا لفيضي الاختلاط بين الجنسين للتخفيف من وقع الجاذبية الخاطئة، وبين المحارم التي يجوز معها الاتصال بدون قيد. وهن اللاتي يحرم الزواج بهن في قوله تعالى : ﴿**حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم إلى آخر الآية السابقة**﴾.

ثم حدد العورة التي يجب سترها على الرجال والنساء. وهي في حق الرجال ما بين السرة والركبة وفي حق المرأة سائر جسدها ما عدا الوجه والكفين مع مراعاة أن يكون الساتر قضفاضا حتى لا يشخص أجزاء معينة من الجسم تثير الفتنة وتحرك الغريزة الجنسية، كما استنكر إبداء الزينة ونهى عنها صراحة في قوله : ﴿**ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها. وليضربن بخمرهن على جيوبهن**﴾.

كما أمر الجنسين الرجال والنساء بغض الأبصار معا يدل على أن القصد هو تجنب ما يثير الشهوات لدى كل طرف أزاء الآخر. قال تعالى : ﴿**قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون، وقل للمومنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعلتهن أو آبائهن أو أباء بعولتهن أو أبنائهن**﴾. الآية (30 ـ 31 ـ النور) كما أن خروج المرأة بدون قيد، لا تراه شريعة الإسلام مناسبا للمرأة المومنة التي تريد الحفاظ على شرفها وعلى حرمة مجتمعها الذي تعيش فيه وتتحمل فيه مسؤولية تكوين الأجيال المستقبلية، فقد أمر الله تعالى نساء نبيه بملازمة بيوتهن فقال : ﴿**وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى**﴾. وقد رأى كثير من العلماء أن هذا غير خاص بنساء النبي، وإن ورد الخطاب لهن، لأن المسلمين مأمورون بالاقتداء بالنبي وصحبه وبالتالي أهل بيته وأزواجه، ومع ذلك فلا بأس أن تخرج المرأة لقضاء مآربها وهي مطيعة لأوامر الله الواردة في الآية السابقة، وفي نطاق موافقة الأزواج على الخروج، فقد ورد النهي عن خروج المرأة بغير إذن زوجها، وإذا خرجت فيجب أن لا تكثر من الحديث مع غير المحارم إلا في حدود الضرورة وقد ورد النهي عن الكلام في قوله تعالى : ﴿**فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا**﴾.

وها هو الأمر يتناول الصلاة فقد أمر النبي ﷺ النساء بأن لا يجهرن بالقراءة في الصلاة وحتى إذا كانت المرأة في صلاة مع الإمام ووقع له سهو فلا تسبح له كما هو شأن الرجال ولكن تصفق. ولم يغفل الإسلام شيئا آخر مما يثير المشاعر نحوهن، فقد ورد النهي عما يمكن أن ينشأ عنه شيء من ذلك فقال تعالى : ﴿**ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زنتهن**﴾. وأمر آخر ربما لا يخطر بالبال أن يتعرض له هذا الباب باب الوقاية من الفتنة وهو ما أخبره عليه السلام أن المرأة إذ تطيبت فمرت بالمجلس فهي كذا يعني زانية وقال إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيبا.

والغاية من هذا كله هو الوقاية وهي خير من العلاج كما قيل، فالغريزة الجنسية قوة طبيعية في الرجال والنساء على السواء، ولكن الإسلام لا يكبتها ولا يأمر بذلك ولكنه يريد تنظيمها وتصريفها فيما أمر الله، لأن فيها سر بقاء النوع البشري ﴿**وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا**﴾. صدق الله العظيم.

هذه بعض الإشارات إلى ما وضعه الإسلام لوقاية الإنسان من الوقوع في المحرمات، والسير مع الهوى

والغريزة الحيوانية مما يفسد المجتمعات ويقوض صروح الأمم والشعوب كما سلف في أعصر سابقة من تاريخ البشرية الطويل، وكما يبدو على مجتمعات توجد اليوم في طريق الازدهار.

أما عندما لا يعمل الإنسان بمضمون هاته التعاليم فيقع في المحظور، فقد فرض الإسلام عقوبات من شأنها أن تزجر المتهاونين والعابثين.

فقد فرض عقوبة الزنى وفرق بين المحصن وغيره، والمحصن هو الذي حصن نفسه بالزواج الصحيح الذي تكاملت شروطه وتمت إجراءاته.

وكانت عقوبة غير المتزوج خفيفة ولكنها رادعة له ولأمثاله من المتهاونين بحدود الله.

يقول الله تعالى : ﴿**الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دن الله إن كنتم تومنون بالله واليوم الآخر، وليشهد عذابهما طائفة من المومنين**﴾. ومع هاته العقوبة الصارمة يغرب عن المكان الذي وقعت فيه الجريمة عاما كاملا. ومعلوم أن الغاية من ذلك هو زجر العاصي وإبعاده من المجتمع حتى لا يشيع أمره ويتكرر ويصبح أمرا عاديا ومالوفا. والله تعالى يقول : ﴿**إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في اللذين آمنوا لهم عذاب إليم في الدنيا والآخرة**﴾.

أما المحصن فعقابه الرجم حتى الموت، وقد وقع هذا في عهد رسول الله ﷺ فقه جضر لديه رجل زني واعترف بجريمته وأمر النبي برجمه حتى مات، كما رجم المزنى بها. وقد يقال إن هذا إفراط في العقوبة مبالغ فيها. والجواب أن الفساد الناجم عن الجريمة أشد فظاعة من العقاب فالعقاب يقع على فرد بينما الجريمة تفسد مجتمعا بأكمله وصلاح مجتمع برمته أولى وأحق من الحفاظ على شخص أبدي خبثه، إن ترك سرى في المجتمع خبثه، على أن الإسلام طوق هذا الجزاء بشروط تكاد لا تتوفر ولا يمكن الوصول إلى تطبيق العقوبة إلا مع إقرار الجاني بنفسه، كما وقع للصحابي الذي اعترف للرسول عليه السلام، فأعرض عنه عدة مرات فلما أصر على اعترافه أمر برجمه، ثم قال بعد ذلك في حقه لقد تاب توبة لو قسمت على كذا من الناس لو سعتهم أنه العلاج مع الرحمة من الله العلي القدير.

وقد قال عليه السلام : «إدرأوا الحدود بالشبهات فما ثبت من حد فقد وجب».

والإسلام من جهة أخرى شدد العقوبة على من يطلق لسانه العنان في أعراض الناس، فمن رمي أحدا بالزنى فعليه أن يثبت ذلك بأربعة شهود يشهدون برأيتهم للفعل في وقت واحد ومكان واحد، ولا يكفي أن يقولوا رأيناهما في مكان خاص ولا حتى تحت ثوب واحد. فإن لم يتم الإشهاد جلد كل من شهد ثمانين جلدة وأصبح منبوذا لا تقبل شهادته بعد، وعد من الفاسقين. ولم يستثن من هذا حتى الزوج، غير أن عقوبته تأتي في شكل آخر وهو أنه إذا رمى زوجته بالزنى حلف خمسة إيمان وحلفت هي الأخرى كذلك بالصيفة الواردة في الآية : ﴿**والذين يرمون أزناجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين**﴾. ﴿**ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين**﴾.

ثم يفرق بينهما بدون طلاق ولا إجراء آخر.

وهذا فيما أرى منتهى الحذر والاحتياط من شيوع الفحشاء بين الناس الأمر الذي يمهد لتحطيم معنوية المجتمع بسوء العمل والقول.

وهكذا يعمل الإسلام لصيانة المجتمع الذي ينشئه مبنيا على الإيمان واليقين والصدق والإخلاص لله والنصح لجميع الناس ومعاملتهم بالعدل والانصاف والمساواة.

على أن الإسلام الذي يريد أن تستمر الصلة بين جنسي الإنسان وثيقة العرى سرمدية في كل ظروفها وحالاتها كما عني بالمرأة طفلة وشابة وزوجة وشريكة حياة لم يغفل أمرها كأم فأوجب رعايتها وصيانتها ومحبتها واحرامها إلى حد القداسة فقد سئل رسول الله ﷺ من لدن أحد أصاحبه إذ قال : «يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي قال أمك ثم قال ثم من قال أمك وفي الثالثة قال أبوك، وبين القرآن علة هذا فيما يظهر لي عندما قال :

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين﴾. وقال في آية أخرى : ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسنا، حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾، فعلاقة الابن بأمه أشد من علاقته بأبيه فهي كأبيه حملته في لحظة عابرة كانت لذتها أكبر من شيء آخر والوالد يخرج من تلك اللحظة وقد لا يعيرها أي انتباه بينما الأم لا تمضي عليها إلا أيام قلائل حتى تبدأ محنتها بما يعرف عندهم بحالة الوحم وهي من الحالات الاستثنائية في حياة المرأة ولعلها من دواعي إعفائها من عدة مسؤوليات ثقيلة كما سلف.

ثم تتوالى الأيام والشهور فيأتي الوضع وما يصاحبه ويتلوه من تكاليف الرضاع والمعالجة وما أصعبها معالجة ممن لا ينطق ولا يعرف ما يراد به ولا له، ويمتد سنوات وإذا كان الرجل مكلفا بالإنفاق وما في معناه فإن الأم تقاسي من التربية الشيء الكثير مما لا يستطيع القلم وصفه في هاته العجالة ونترك الأمر للمعلم الأكبر ﷺ فقد استوقفه رجل يحمل أمه الطاعنة في السن على ظهره يطوف بها حول الكعبة وقال : يا رسول الله، هذه أمي عجزت عن الطواف وها أنا أطوف بها فهل أكون أديت حقها علي إذن ؟ قال رسول الله الله ﷺ : «لا ولا بزفرة من زفراتها» تلك القولة الحكيمة أيها السادة هي منتهى ما يمكن أن يعبر عنه لسان في حق الأمهات وما تعانيه كل امرأة وهي تنشيء الأجيال اللاحقة التي يستمر عن طريقها وعن صنعها وجود هاته الخليقة إلى أن يشاء الله.

فهل نريد نحن في هذا العصر ويدعو الرقي والحضارة والتقدمية أن تصبح المرأة عندنا مبتذلة في الأسواق والمسارح، وكأنها سلعة تعرض ليساومها خفا كل من يشعر بأنه يملك قليل مال في حين أنه لا يملك قلبا شريفا ولا ضميرا حيا.

إننا نريد أن تتعمق المرأة المسلمة في فهم دين الإسلام ومقاصده كلا وما يريده بها من خير وسعادة بدنية ونفسية، دينية ودنيوية، حتى تتشبث وتعتز بشريعته وأحكامه، وتسير وفق المبادئ والأسس التي جاء بها وخص بها المرأة، إن الإسلام يريد المرأة أن تعيش عيشة عزة، وتحيى حياة كرامة ومروة في ظل هداية الإسلام وشريعته الحكيمة، وأخلاقه الفاضلة، وأن تعمل في إطار الحدود التي رسمها لها، والحقوق التي منحها إياها على بناء الأسرة المسلمة، وأن تكون عنصر بناء وإسلام في تكوين المجتمع الإسلامي النظيف كما يريده الإسلام لهذه الأمة التي جعلها الحق سبحانه خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتومن بالله.

والله من وراء القصد، والهادي إلى سواء السبيل ونعم المولى، ونعم النصير.

والسلام عليكم ورحمة الله.

مولاي مصطفى بن أحمد العلوي





قيمته :

وتتجلى قيمة الكتاب في أنه أكبر موسوعة في مصطلح الحديث، لم يترك شاذة ولا فاذة إلا وتناولها ـ بنظم سلس، لا غموض فيه ولا تعقيد، وله على الأصل استدراكات وتكميلات، فمن استدراكاته :

1 ـ المبحث الثاني من الباب الأول في قواعد علم الحديث ـ رواية ودراية، وأول من صنف فيه، ومن تبعه إلى الإمام السيوطي، وضمنه (27) بيتا :

(هـذا ولم تخل القرون الأول
من بحثهم في الاصطلاح نقلوا) (343)

2 ـ المبحث الثاني في ذكر جملة ممن ألفوا في علم المصطلح ـ زيادة على من تقدم ذكرهم ـ إلى شيوخه، وضمنه (20) بيتا :

(وكم أبان شيخنا قطب الرضى
تاج بني الكتانيين المرتضى) (344)

3 ـ المبحث الرابع في تقسيم الحديث ـ رواية ـ إلى قدسي ونبوي، وتعريفهما، والفرق بينهما، وضمنه (14) بيتا :

(وذو الرواية لقدسي قسموا
ونبوي، وحد كل رسموا) (345)

4 ـ المبحث التاسع في بيان أصح ما ورد في فضل السور، وفي فضائل الصلاة، وضمنه (22) بيتا :

343) ر : 4 ـ (أ)، 5 ـ (ب).

344) ر : 6 ـ (أ ب).

345) ر : 7 ـ (أ ب).

(وفي فضائل الصلاة يؤثر
صلاة تسبيح على ما حرروا)
وقسموا الوارد في فضل السور
إلى ثلاثة روى من قد أثر) (346)

5 ـ المبحث العاشر في الكلام على ابتداء تدوين الحديث والأثر، والآمر به، وتاريخ الأمر، وضمنه (20) بيتا :
(قد كانت الأولى تؤدي لفظا
وتأخذ الحديث حقا حفظا) (347)

6 ـ واستدرك عليه في المبحث العشرين ـ المضعف ـ وهو النوع الرابع، وضمنه (13) بيتا (348).

7 ـ وفي المبحث الحادي والعشرين ـ زاد على الأصل مراتب ذكرها صاحب التدريب، وضمنه (16) بيتا :
(وزاد في التدريب منها جمله
فهاكها بلفظ (حا) مشموله
من ذاك أو هي العمرين ذكروا
محمد حفيد حفص حرروا
بل قال حافظ الأنام ابن حجر
فهذه ـ حقا لدى ذوي الأثر ـ
تسمى بسلسلة أشنع الكذب
فاحفظ ولا تغتر بلغو ذي اللعب (349)

8 ـ واستدرك عليه في الباب الثالث ـ القسم الرابع من المبحث الخامس ـ في الرباعيات الجامعة لأدب الطالب، وضمنه (57) بيتا :
(وللبخاري نبت رباعيات
في أدب الطالب لاحت نيرات
قد وردت في أثر لطيف
مستحسن مرونق التأليف
ذكره الإمام في التدريب
متمما به معنى الأريب) (350)

9 ـ كما استدرك عليه في الباب الخامس ـ المبحث الثاني في بيان ذيل النوع المتقدم (المؤتلف والمختلف)، ورتبه على مقدمة، ومقصد، وخاتمة، وضمنه (182) بيتا :

ـ المقدمة ـ وتقع في (12) بيتا، يقول فيها :
(هذا وجزئيات هذا النوع
كثيرة قد أفردت بالجمع
رتبتها على حروف المعجم
ليسهل الأخذ عليكم ـ فاعلم) (351)

ـ وجعل المقصد قسمين :
أ ـ في باقي الأسماء والكنى المشتبهة ـ داخل الكتاب، وفيه خمسة ملاحق :

ـ الملحق الأول في حرف الألف، وضمنه (7) أبيات :
(فإن ترد مشتبها لدى الكتاب
فهاكها في النظم مكشوف النقاب
من ذاك اخـزم بخاء معجمه
وليس فيه احـزم يهمله) (352)

ـ الملحق الثاني في حرف الباء ـ إلى آخر الخاء :
(برة اسم بنت أم سلمه
كذا لزوجي طه قد كان سمه) (353)

ـ الملحق الثالث في حرف الدال المهملة ـ إلى آخر الظاء المشالة المعجمة :
(داود جم في الرجال الجله
ودلهم وديلم ـ قل جمله) (354)

ـ الملحق الرابع في حرف العين ـ إلى آخر الكاف :
(وليس في الصحب ولا الاتباع
عبد الرحيم ـ قل بلا نزاع) (355)

ـ الملحق الخامس في حرف الميم إلى النون ـ وهو آخر هذا القسم، وضمنه (26) بيتا :
(مبارك مع المثنى مجزاه
مجمع محرر ـ خذ نباه) (356)

346) ر : 12 (ب) ـ 13 (أ).
347) ر : 13 ـ (ب) ـ 14 (أ).
348) ر : 23 ـ (أ).
349) ر : 23 ـ (ب).
350) ر : 71 ـ (أ ب) ـ 72 (أ ب).
351) ر : 103 ـ (أ ب) ـ (104) ـ (أ).
352) ر : 104 ـ (ب).
353) ر : 150 ـ (ب).
354) نفس الورقة.
355) ر : 106 ـ (أ).
356) ر : 107 ـ (أ).

ب ـ القسم الثاني المشتبه ـ خارج الكتاب، وفيه سبعة ملاحق :

ـ الملحق الأول في حرف الألف ـ إلى آخر الثاء، وضمنه (9) أبيات :

(أمـــا المشتبــه بخـــارج الكتـــاب
فهـاك منـه مـا صفـا بـالانتخـاب
أهبـان إشكـــاب كـــذا الإسكـــاف
واجلـــح أو يسهم عفـــــاف) (357)

ـ الملحق الثاني في حرف الجيم ـ إلى آخر الخاء المعجمة :

(الجملي جبريـــــل نجـــــل أحمر
وجرهـــد نجـــل رزاح السري) (358)

ـ الملحق الثالث في حرف الدال المهملة ـ إلى الشين المعجمة :

(دحيــــــة بــــــالكسر وضم دخشم
ميمـــا ونـونـــا ثم تصغير نمي) (359)

ـ الملحق الرابع في حرف الصاد إلى آخر الغين المعجمة :

(أم صبيــــــــــــــة صغر ثم صرد
ضام طرفـــان ضرار ـ أكسر تفـــد) (360)

ـ الملحق الخامس في حرف الفاء إلى آخر القاف :

(فطر وفـــــــــــــائت وفروة فرات
فضـــالـــــة وفرج ـ لابـــد آت) (361)

ـ الملحق السادس في حرف الكاف إلى آخر الميم :

(أبـــو كـــــديـنـــــة وكردوس أتى
ثم أبـو كبشـــة ـ خـــذه مثبتـــا) (362)

ـ الملحق السابع في حرف النون إلى آخر الياء :

(ونسبـــــوا النحـــــوي للقبيـــــل
وتـــــارة للعلم ـ يـــــا خليلي) (363)

ـ ثم الخاتمة ـ وضمنها (12) بيتا :

(هـــــــذا مـــــــا أردت ذكره
فـاحفظـه كـالأصل تنـال خيره) (364)

10 ـ وذيل على تاريخ الرواة ذيلا خاصا، وضمنه نيفا وستمائة بيت، وهو الذي حللته في الحلقة الخامسة قبل هذه.

11 ـ بالإضافة إلى زيادة عشرات الأبيات في كل باب من أبواب الأصل. هذا، وهناك بعض مآخذ على المؤلف، يرجع بعضها إلى الشكل، والبعض الآخر إلى الموضوع.

أ ـ فمن حيث الشكل :

1 ـ الحشو، فالناظم قد تلجأه ضرورة الوزن إلى إدراج جمل أو كلمات في بعض الأبيات ـ بعيدة عن المعنى المقصود، مثل كلمات (الرضى) و(المرتضى)، و(الامام) ـ بالنسبة للرواة الذين ذكرهم بحلاهم...

ومن الحشو في الجمل : قوله :

(فاعن بتحصيله يا ذا الشأن) (365)، (فاحفظ ـ رعاك الله ـ ما قد حرروا) (366)، (لكي تصير في الورى عالي الجناب) (367). (فاحفظ لترقى ذروة المناصب) (368)، إلى غير ذلك من الجمل التي جاءت تكملة للبيت لا أقل ولا أكثر.

2 ـ بعض عيوب القوافي ـ كالتضمين، مثل قوله :

(... عللوا) ـ بالخوف من اختلاط بالقرآن...) (369)

ـ (أو غيره من كـــــل علم ينفـــع
أو ولايـة ـ كمـا سـأجمع) ـ مذيلا (370)

ـ (فـــاصـــدر الأمر أمير المـومنين
ذاك الرضى عمر فخر المسلمين) ـ بجمع كل ما... (371)

---

357) نفس الورقة.
358) ر : 108 ـ (ب).
359) ر : 109 ـ (أ).
360) ر : 109 ـ (ب).
361) نفس الورقة.
362) نفس الورقة.
363) ر : 110 ـ (أ ب).
364) ر : 111 ـ (أ ب).
365) ر : 34 ـ (ب).
366) ر : 41 ـ (أ).
367) 43 ـ (أ ب).
368) 54 ـ (ب).
369) 54 ـ (ب).
370) ر : 123 ـ (أ).
371) 13 ـ (أ).

ب - ومن حيث الموضوع :

1 - إدراجه بعض التعريفات اللغوية في موضوع المصطلح، مثل قوله :

(حقيقـــة التـــدليس إخفـــاء المرام
لأنـــه من خلـــط نـــور بظـلام) (372)

وقوله :

(ثـــالثـــة : إجـــازة وهي لغـــه
مشتقـــة من التجـوز - أعلمـــه) (373)

2 - ادخاله بعض المحترزات في الحدود - وذلك شأن الشروح والحواشي مثل قوله :

(وبعدها المحترزات تجتلى :
فـــاحترزوا بـــأول عن معضـــل
وذى انقطـــاع وكـــذا عن مرســـل
بـــالثـــاني عمـــا قـــد روى الجهـول
عينـــا وحـــالا كـل ذا منقـول) (374)

3 - إغفاله لطائفة من مشاهير رجال الحديث - في ذيله على تواريخ الرواة، ولنذكر منهم على سبيل المثال - لا الحصر - :

بقي بن مخلد (ت 276 هـ)، ومحمد بن عبد السلام الخشني (ت 286 هـ)، وقاسم بن أصبغ (ت 340 هـ)، وعبد الرحمان بن فطيس (ت 402 هـ)، وابن الفرضي (ت 403 هـ)، والطلمنكي (ت 429 هـ)، وأبا عمرو الداني (ت 444 هـ)، وأبا عمر بن عبد البر (ت 463 هـ)، والحميدي (ت 488 هـ) وأبا علي الصدفي (ت 514 هـ)، وابن فتحون (ت 517 هـ)، ورزين بن معاوية السرقسطي (ت 535 هـ)، والرشاطي (ت 542 هـ)، والاقليشي (ت 550 هـ)، وابن قرقول الفاسي (ت 569 هـ)، وابن خير صاحب الفهرست الكبرى (ت 575 هـ)، والملاحي (ت 619 هـ)، وابن الرومية (ت 637 هـ)، وابن الطيلسان (ت 642 هـ)، وابن عتيق التجيبي (ت 646 هـ)، وأحمد بن فرح الاشبيلي (ت 699 هـ)، ومحمد بن عبد الرزاق الغماري - شيخ الحافظ ابن حجر - (ت 802 هـ).

ومن المتأخرين :

- الحافظ محمد بن سليمان الروداني (ت 1094 هـ)، وابن الطيب الشركي (ت 1170 هـ)، والشيخ الطيب بن كيران (1227 هـ)، في آخرين.

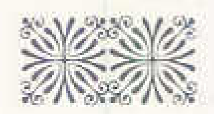
ولعل عذر المؤلف في ذلك، أنه اقتصر في نظمه على ما في وفيات ابن قنفذ - كما قال :

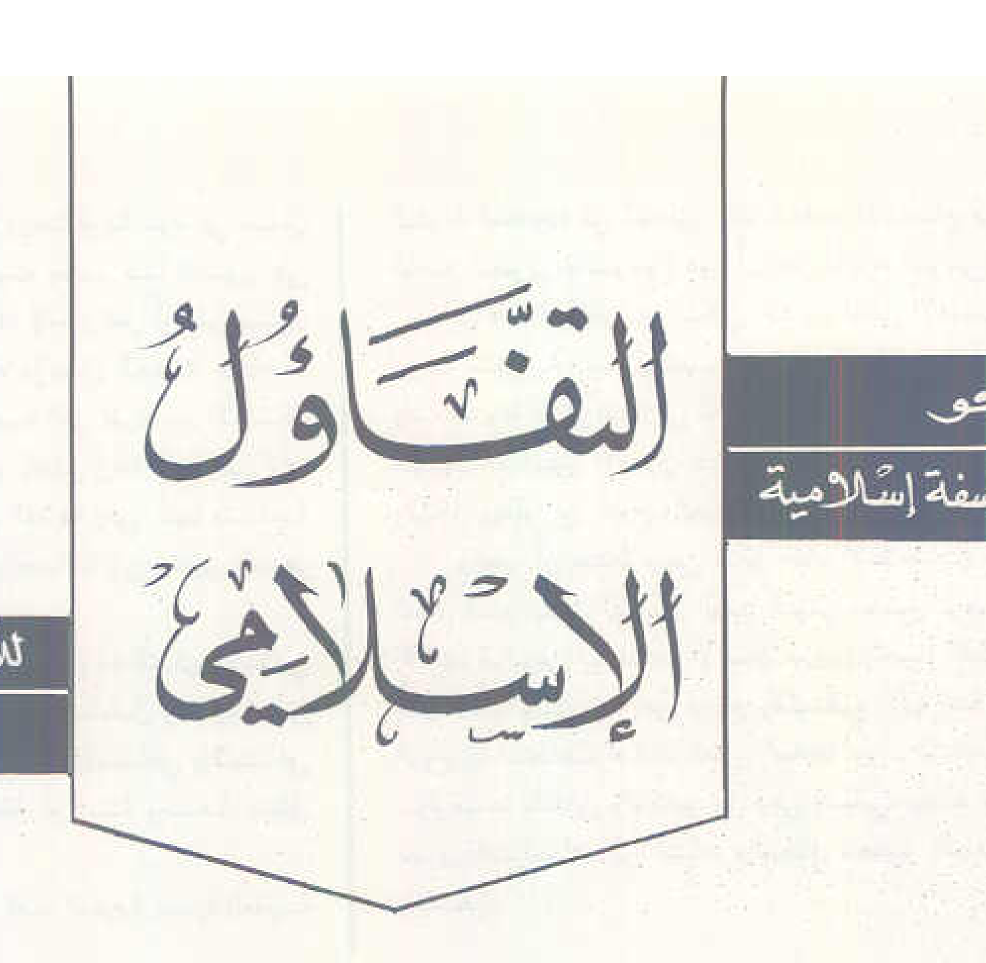
(هنـــا انتهى مـــا خطـــه الخطيب
في الـــوفيـــات جـــازاه الرقيب)

ومع ذلك فلم يستوفها.

على أن هذه الهانات وأشباهها، لاتعد شيئا بجانب ما قدمه إلينا المترجم من تراث ضخم في علوم الحديث، وقد عاد إلى عشرات الدواوين يستوعبها، فاستخرج منها دررا، ونظمها قلائد - في ألفين وأربعمائة وأربعين (2440) بيتا، وهو عمل لا نجد له نظيرا في مثل هذا الميدان، وكل ما نتمنى أن يرى النور هذا الكنز الثمين، وينفع الله به وبأصله، والله الموفق، والهادي إلى أقوم طريق.

تطوان : سعيد أعراب





للأستاذ حسن الصائغ

-3-

كل حركة لابد لها من باعث، والحاجة هي الباعث لحركة الفكر، فالإنسان يتكلم ليحقق فعلا أو ليطالب بتحقيق فعل... والباعث يستمر بشرط أن يكون يطلب نتيجة أي يكون متيقنا أنه سيحصل على شيء، وذلك هو التفاؤل بأنه يستلقى الجواب بالكلمة، أو الفعلب وبالحصول على ما يرجوه لتحقيق ذاته.

التفاؤل أساسي لاستمرار الباعث، للأن التفاؤل تخطيط لكل جوانب الواقع الذي يستطيع المتكلم أن يرجو وراءه شيئا... فلو لم نكن متفائلين لكنا متشائمين نعترف بالعجز عن التعامل مع الواقع فلذلك لا نطلب منه شيئا، ولا نبعث على الحركة لتحقيق الحاجات أو تصبح قدرين أو هروبين استسلاميين.

ولهذا كان الفكر الإسلامي متفائلا في معاملته مع الواقع لأنه ينطلق من الإيمان، أي الثقة بالموضوع لأنه ينشأ عن مطلب يقره الخالق، ولأن الباعث نتيجة نسبية يحمل الإسلام على دفع الإنسان إليها.

ومن هنا كان التفاؤل يطبع كل حركة، وكانت كل حركة حية مؤمن بها لأنها متولدة عن الإيمان بالمبدإ والحق وما يريد الله أن يكون.

وقد قسم الإسلام الباعث إلى ضرورة لحفظ النفس والعقيدة والمصلحة العامة، فكانت هذه القضايا مجال دفع المسلمين إلى العمل واستشهادهم كما أن (الحالة) التي يعيش عليها الإنسان من فقر أو غنى وصحة أو مرض، لم تمنعه أن يكون متفائلا لثقته بالله فكان الباعث دائما إلى العمل ولم يعرف الإسلام الاستثمار لأنه لا يقرر حق الإنسان فيما يملكه الله وحده وهو أن يغير حالته بما هو أعلى وأحسن. ولهذا فقد طبع التفاؤل حياة المسلمين وكانوا دائما في حركة دائمة لأن لكل حركة باعثا، ولأن الباعث الديني أقوى من الباعث العقلاني.

ومما يزيد في حركة الفكر الإسلامي علاقة الجسم بالأعراض النفسية (بسيكوسوماتيك) ذلك أن تحريم الخمر والمخدرات ولحم الخنزيل والوقاية من الإجهاد النفسي وآثار المغامرات وتحريم القمار، كل ذلك يغلب جانب الموضوعية على تأثير الذاتية... وبهذا يتحرك الفكر من ميكانزم أكثر صفاء.

وهذا ميكانزم الذي خص به التفكير الإسلامي من ذو فعالية في خلق حضارة جديدة تغاير معطيات مختلف الحضارات التي سبقت الإسلام. فقد جعلت من الإنسان قادرا بعقله ووجدانه على الإبداع والقدرة على النقد النزيه والموضوعية العلمية.

ولقد بث هذا الميكانزم روحا قوية سواء في ميدان التصور والتحليل للموضوع حيث يعتمد هذا التصور على نية سليمة، هي أساس كل إرادة لإنجاز فعل أو على مستوى العقيدة المحكمة القوية الواثقة بالإيمان الذي لا يصاحبه شك، أو على مستوى المنهجية التي تفرق بين الأهداف والغايات والوسائل والأساليب لتحقق إرادة الله وهي إرادة كرامة الإنسان أو على مستوى المعرفة وهي كلها متسامية متعالية تتجاوز مصالح الفرد والجماعة إلى تحقيق (الجوهر الإنساني).

وإن هذا الميكانزم الذي خص به التفكير الإسلامي يرتكز على المعرفة غير المحدودة بالعقل والتجربة ومن التقابل بين المحدود واللا محدود والمتناهي واللامتناهي يتجاوز التفكير معطيات العقل أو البيئة وحدها. متظل المعرفة متنامية بلا حدود.

فالعلوم الإسلامية لا تحد المعرفة بقدرة العقلية البشرية المحدودة في المطلق، كما تدفعه للاندماج في الوحدة التصويرية للموضوع دون أن تخل بأجزاء الموضوع.

إن هذا الميكانزم هو تشكيل جديد للعقل الإنساني ليوجه مسؤولية البناء والتعمير وتحقيق العدل والمساواة والسلام، واقة الفكر الإسلامي أنه فقد أساليب التفكير التي انتهجها المسلمون الأولون، فأغرقوا في الكلام والقشور والشكل وغفلوا عن الروح والجوهر.

ويجب أن نحتاط ونحن ندخل (عالم الإعلاميات) أي العالم الذي يسلب الإنسان الوعي الذاتي ليخضع لتوجيه الآلات، فالوعي بإنسانية الإنسان ضروري لحياة العالم بأسره، لأن الإنسان له عقل وروح ولاتستطيع الآلة امتلاك الروح إذا استطاعت امتلاك العقل، المعادلة بين - الثنائيات - وتوحيدها بالتقابل والتكامل عن وعي إنساني، ولابد من تجاوز التناقضات إلى التناغم والوفاق لتحقيق التطور والاستمرار.



المجتمع الإسلامي وانعدام كل مظاهر الفقر.

الشرود الذهني داء فهل له دواء؟

للأستاذ المبارك الريسوني

إن شرود الذهن حالة من حالات الأمراض النفسية، وإفراز من إفرازات القلق، وهو نتيجة حتمية لمعاناة الطفل نفسيا، ينشأ هذا المرض عن سوء المعاملة في البيت أو عن خلطة مع رفاق السوء أو عن إهمال في التربية وتجاوزات عن بعض الأخطاء أو عن نقصان في المبرة والرحمة والرأفة، أو ينشأ عن سوء التغذية، ونقصانها إلى غير ذلك من العوامل والعلل والأخطاء التي ترتكب أثناء تنشئة الطفل، ولا يغيب عن أذهاننا أن عدم الانتباه في مثل هذه الأحوال يكون اللا إراديا بمعنى أن الطفل لا يتحكم في نفسه، وبمعنى من المعاني فالشرود خلاصة أخطاء الماضي بل رواسب ما يتعرض إليه وما يلاقيه الطفل، ولذلك يصعب عليه التحكم في نفسه، كما يصعب عليه ضبطها وإخضاعها، فالشرود بمعناه الدقيق يتضمن بعض الأفعال ينعدم التناسق بينها، وشرود الذهن تعبير عما يعانيه الطفل ويضمره ويخفيه في نفسه من تناقضات.

وبعد هذا نتساءل، فهل يمكن حمل الطفل مثلا على التركيز بوسيلة من وسائل القمع والضغط والاكراه ؟ وهل بوسعه ذلك ؟

إن بعض الآباء في تربية أبنائهم يجنحون إلى الطرق اليسيرة السهلة، فلا يجشمون أنفسهم أي عناء أثناء تنشئتهم ليختاروا من المنظومة التربوية ما يلائم ويفيد، ولا يكلفون أنفسهم أية مشقة للبحث عن أسباب العلل التي كانت السبب في الانتكاسة النفسية، على الأقل لاستئصال شأفة الأورام الخبيثة، والا ستظل تنمو وتترعرع وتفرز وتفرخ شذوذا وأمراضا وأوبئة تجتاح بقية النشئ وتمتص القيم الأخلاقية والمثل العليا.

أين هم من الحقيقة ؟ البعض يعزو كل شيء إلى الطفل نفسه فيصفونه بالعقوق والتمرد والعصيان والرفض، ولذلك يصبون عليه جام الغضب باعتبار أن ذلك منه تهاونا واستهتارا فيجنحون إلى الميزد من الضغوط والاسترقاق، ويعتبرون كل تبلد استخفافا منه فيتأسدون ويعاقبون ويحتقرون ويذلون ويكبلون بالاغلال والاصفاض، أقول

الاصفاد وأقصد الذلة والإهانة، أعتقد جازما أن الإهانة تلازم الإنسان ما بقي على قيد الحياة.

«جراح السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان».

لم كل هذا الاضطهاد ؟ ولم هذا السلوك الذي يسلك إزاء الأبناء ؟

أجل فما أكثر العوامل التي تودي إلى انحراف الأطفال وإلى زيغهم وفساد أخلاقهم، بل وإلى فشلهم في الحياة الاجتماعية، وما أكثر نوازع الشرور وبواعث الفساد التي هي قاب قوسين أو أدنى من الأطفال تحيط بهم إحاطة، وتكتنفهم، فلا معنى للتوصل بطرق عقيمة تكون سببا في تكريس المزيد من الانهزام النفسي فيتفاحش الخطب ويتجدر الداء، ويصبح العلاج إذ ذاك مستعصيا وميؤوسا من شفائه.

فإذا لم يكن القائمون بالتربية على علم ببواعث الانحراف، وعلى بصيرة بأسباب العلاج، وطرق الوقاية فإن الأطفال لأمراء سيكونون في المجتمع جيل الضياع والشقاء، وعصبة الفساد، وشرذمة الجريمة.

وبعد، فما هي أسباب الانحراف ودواعي الزيغ والفساد ؟

من المعقول أن الطفل حين لا يجد ما يكفيه من غذاء يسد به حاجياته الجسمية وكساء يقي به جسمه من شر القيض والزمهرير، ولا يرى إطلاقا - رغم خصوبة خياله - ما يستعين به على بلغة العيش وأسباب الحياة وينظر إلى ما حوله فيجد الفقر والجهل والجفاء والغلظة والشدة والحرمان فإنه لا ريب سيلجأ إلى طرائق ليحتال لنفسه وليغش ويكذب بحثا عن أسباب العيش، وسعيا وراء الرزق فتتلقفه الأيدي العابثة الماكرة وتصنع منه منحرفا شريرا يهوى الجريمة ويمارسها انتقاما ممن حرموه نعمة الكفاف والعفاف. والإسلام بتشريعه العادل قد وضع الأسس الكفيلة لمحاربة الفقر وقرر الحياة الكريمة لكل إنسان، ووضع من التشريعات ما يؤمن لكل فرد الحد الأدنى من مسكن ومطعم وكساء لحفظ الكرامة الإنسانية وتحقيق العيش الأفضل في مجتمع تنعدم فيه كل مظاهر الفقر والبؤس والحرمان.

ونجد كذلك سببا آخر يدعو إلى الزيغ وانحراف الأطفال عن الطريق المستقيم إن هذا السبب يكمن في شجار الأبوين الدائم، فما ذنبهم ؟ وماذا جنوه ؟ حتى يحيو حياة القلق الدائم بين أبوين ملازمين للشجار والتراشق بكلمات بذيئة تتنافى والقيم الإسلامية ؟ ويحتد بينهما النزاع في أعظم ساعات اللقاء والاجتماع، والطفل حينما يعيش ظاهرة الخصومة في كل وقت وحين يفتقد الإحساس بالطمائنينة ويشعر بانعدام الأمن، إذ ذاك يشرع في البحث عن البديل ويفر من محيط الأسرة المبوء باحثا عن رفاق يقضي وإياهم وقته ويصرف في مخالطتهم معظم فراغه، وهو ما هو عليه من قلة الحيلة والتجربة في الحياة فهؤلاء إن كانوا قرناء السوء نال منهم روح الشر والكيد والخبث والرذيلة وأقبح العادات، ومع توالي الأيام سيكون لهذه الخصال السيئة التي تشبع بها انعكاسات خطيرة على البلاد والعباد، والإسلام بما اشتمل عليه من توجيه وإرشاد في هذا المجال مجال الحياة الزوجية ورعاية الأبناء يغني كل باحث أن يروم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله في التماس العلاج وطلب الدواء لكل داء اجتماعي ﴿**قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجه من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى سراط مستقيم**﴾، ففي مبادئه الحكيمة الخالدة رسم لكل من الزوجين أن لا يقبل أحدهما الآخر إلا بعد التأكد من سيرة الثاني والتحقق من السلامة العقلية والجسمية والنفسية، وخلو كل منهما من عيوب تكون السبب في كثير من النزاعات، وما كل هذه التحريات سوى لتحقيق المودة والمحبة والتفاهم والتعاون لبناء أسرة على أسس سليمة يغشاها التراحم ويحفها نكران الذات من أجل أن ينشأ الأطفال في هذه البيئة السليمة نشأة حسنة يمتصون رحيق الإيمان ويستشفون القيم والمثل العليا من سلوك الأبوين.

ومما لاشك فيه فإن إعداد البيت وخلوه من كل المشاكل لمن أعظم البيئات الصالحة لنشأة الطفل نشأة سليمة كريمة، يعيش محفوفا بين أبوين مؤمنين بارين رحيمين كريمين يسعيان على الدوام والاستمرار في ترك الخلف مفخرة لهما يكون جديرا بحمل لقب الأسرة يعلي

من شأنها ويرفع من قدر بلده، هذا هو طموح كل أسرة شريفة الحسب والنسب تتوق إلى المجد وتتطلع إلى الرفعة.

وإذا نحن واصلنا الحديث عن الأمراض الاجتماعية التي تؤثر في الأطفال فنجد أيضا ظاهرة الطلاق وما يواكبها من تشرد، وما يصحبها من ضياع، وما يعقبها من تشتت وفراق، بعض الآباء تنعدم من قلوبهم الرأفة والرحمة فلا يفكرون سوى في أنفسهم وارضاء شهواتهم واشباع غرائزهم، وإن مثل هؤلاء الذين يلقون بأبنائهم في أحضان الرذيلة مشكوك في انتسابهم إلى بني آدام ﴿**ولقد كرمنا بني آدام**﴾ ممن يتميزون بالحكمة وغير مشكوك في سفاهتهم يتصرفون طبقا لما تميله عليهم غرائزهم.

إن التكريم هو السمو والإعلام وهو الحق والمروءة، وفوق كل هذا وذاك هو الالتزام، وهو الطاعة والامتثال لكل أمر أمر به الله، والانتهاء عن كل نهي نهى عنه، فالطلاق بالنسبة للأبناء يعني باختصار التشرد والزج بالأطفال في أحضان الرذيلة وكذا الزج بهم في شركالمفسدين فيتلقون عن هؤلاء الذين لفظهم المجتمع وتنكر إليهم ضروبا من الانحراف وألوانا من الفسوق والفجور.

إن الأطفال الذين حرموا من عطف الأبوة وحنان الأمومة حتما سيجترفون الإجرام، والسبب في ذلك واضح. فماذا ننتظر منهم حينما يجدون أنفسهم في عرض الشارع لا من يرعاهم من الذئاب «إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع» ولا من يحميهم من غوائل الزمن وهم في أشد الحاجة إلى الرعاية والعناية.

إن البيئة الأولى التي تتلقف الطفل هي البيت، إذن هو المدرسة الأولى، وفي ظل الأبوين ينشأ، وفي أحضانهما يترعرع، وكلما صلح البيت صلحت تربية الأطفال، ولذلك وجب على الأبوين أن يراعي كل منهما حقوق الآخر ليحل الوفاق محل الفرقة، وتحقق المحبة محل الكراهية، وتعيش الأسرة بأكملها على أحسن ما تعيش من السعادة والتفاهم والاستقرار. إن مسؤولية تربية الأطفال تربية حسنة جسيمة وشاقة، ولا يمكن بلوغ المراد فيها إلا إذا انسلخ كل من الأبوين عن أنانيته، وتنكر لنوازعه الذاتية، واستحال كل ذلك إلى صنع الإنسان ذلك الإنسان الذي ينشد الرفعة، ويتوق إلى ترك أثر حسن في الحياة الدنيا «ولد صالح يدعو له».

وهناك أمور أخرى تكون السبب في نقل العلل النفسية إلى الأطفال كالاستخفاف بوقت الفراغ، وترك الحبل فيه على الغارب فيقضيه الطفل في غيبة عن الآباء دون توجيه وإرشاد منهم.

إن الأطفال ميالون إلى اللعب، ومجبولون على المغامرة، ومحبون للفسحة والتمتع بالمناظر الطبيعية، ومنغرس في أعماقهم حب الاستطلاع وخلال هذا قد يخالطون أصنافا من الأطفال يتأثرون بسلوكهم فينقلون عنهم بعض المساوئ فتصبح طبيعة وجبلة في أخلاقهم، ويصبح علاجها أمرا صعبا أو مستحيلا، وما ذلك سوى نتيجة لإهمال وقت الفراغ. إن وقت الفراغ لمن أهم الأوقات التي يجب استغلالها خير استغلال لتنشئة الطفل تنشئة صالحة وتعويده على ممارسة أخلاق حسنة وقيم ومثل، ولتحقيق هذه الأهداف والمقاصد لابد من التوسل ببعض الوسائل ومن أعظمها تعويدهم على العبادات التي لها أبعد الأثر في إصلاح النفوس، وتقويم الأخلاق، واستقامة السلوك، ولا سيما الصلاة التي هي عصمة من الانحراف والاضرار بالناس، ووقاية من كل شرك، وتحفظ من كل أذى، وعدها الإسلام عمود الدين وقوامه وركنه الأساسي لما لها من الفوائد الروحية والمنافع الجسمية والآثار الخلقية النفسية (إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر).

والزكاة ركن من أركان الإسلام يعمل هذا على الركن تأليف القلوب وتطهير النفوس من الحقد والحسد لتعيش الأسر رغم تباينها المادي في وئام تام وانسجام كامل تكلأهم عناية الله «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها».

والصوم تهذيب للنفوس، وتدريب على الطاعة والبعد عن الاضرار بالغير، وهو فوق كل هذا وذاك امتثال لما يأمر به الله. ﴿**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام، كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾.

والحج مؤتمر إسلامي يستقطب عامة المسلمين من كل أنحاء الدنيا، وخلال أداء هذه المناسك تعقد جلسات

دورية بين جموع المسلمين للتشاور والتذاكر فيما يهم العالم الإسلامي ويفيد مستقبلهم **﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات﴾.**

إن الذين ينسلخون عن إيمانهم ويتخلون عن عقيدتهم سيكونون وبالا على أنفسهم وأسرهم وأمتهم لأنهم من المذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وسوف يندمون ويتحسون لكن بعد فوات الأوان، ويقول الإمام الشافعي رضي الله عنه.

«شكوت إلى وكيع سوء حفظي
فأرشدني إلى ترك المعاصي
«وأخبرني بأن العلم نور
ونور الله لا يهدي لعاصي»

والحياة عبارة عن فرح وقرح وسعادة وشقاء لكن المؤمن في خير على الدوام، لأنه مع الله «ومن يؤمن بالله يهده».

ومن الأمور التي تؤدي أيضا إلى فساد الأطفال وانحرافهم معاشرة رفاق السوء، والخلطة الفاسدة، ولا سيما إذا كان الولد بليد الذكاء ضعيف العقيدة سرعان ما يتأثر بمصاحبة الاشرار ومرافقة الفجار، ويكتسب منهم أحط العادات وأقبح الخصال حتى يصبح الإجرام عادة متأصلة من عاداته ويصعب بعد ذلك إنقاذه من وهدة الضلال. كما أن مشاهدة الأفلام الخليعة وقراءة الكتب الفاسدة وبعض المجلات التي تحرك الشهوات وتوجهها تؤدي إلى الانحلال الخلقي، لأن الصور التي تنطبع في الذهن وتتأصل في المخيلة تجعله يعمد إلى محاكاتها وتقليدها ودون قصد يجد نفسه منقادا إلى أحضان الرذيلة والفساد، ولذلك وجب على الأبوين القيام بمسؤولياتهما المناطة بهما إزاء أبنائهم وذلك بوضع منهج قويم يعتمد على الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح، ومن مبادئ هذا المنهج الوقاية الكاملة من كل ما قد يكون سببا في غضب الجبار ودخول جهنم، وامتثالا لقوله تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة﴾.**

ومن خلال هذا العرض يتضح بأن الأباء يتحملون مسؤوليات زيغ أبنائهم عن الجادة، وانحرافهم عن الطريق المستقيم، وكل تقاعس منهم أو تهاون أو تخاذل فلن يزيد الأطفال إلا فرارا وسخطا ورفضا لكل قيم المجتمع وعاداته وتقاليده وأعرافه.

ومجمل القول فإن الآباء مدعوون في زمننا هذا أكثر من أي وقت مضى للوقوف إلى جنب أبنائهم وفلذات أكبادهم لمنعهم من ممارسات أفعال منافية للمبادئ الإسلامية، إننا في عهد تكالبت فيه قوى الشر الوبغي والاغراء لجذب هؤلاء الشباب إلى اللهو واللعب بغية إقصائهم عما هم مؤتمنون به ومطوقون من أعمال لبناء حاضر الأمة ومستقبلها.

فما على الآباء سوى الاعتماد على منهج الإسلام القويم في تربية الأطفال، ومعالجة انحرافهم، وتقويم سلوكهم، وإصلاح نفوسهم، وتثبيت عقيدتهم، وتلقينهم مبادئ الخير والفضيلة والأخلاق، حتى يروا صغارهم كالملائكة في ظهر أرواحهم، وصفاء نفوسهم، ونقاء سريرتهم، وامتثالهم لأمر ربهم، ويصبحون بعد كل هذا قدرة صالحة لغيرهم في كل مكرمة وفضيلة وإنتاج وتضحية وخلق وعمل صالح.

إن خير ما يتحصن به المرء من كل ضروب الشر الضاربة أطنابها كتاب الله، وحينما يرى الطامعون المتسلطون الناقمون على الإسلام والعروبة شباب الأمة الإسلامية متمسكين بالكتاب والسنة سيعودون من حيث أتوا يجترون الفشل ويجرون أذيال الخيبة، وسوء العاقبة، رجائي من الباري عز وجل أن يلهم شباب أمتنا العربية والإسلامية إلى ما فيه عزهم وسعادتهم، وأضرع إليه أن يهبهم الإيمان الصادق والرشد ليكونوا خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

المبارك الريسوني

في رثاء الرحالي الفاروق

للشاعر أحمد بن الحاج الشهيدي

هل درى القوم ما ثوى في التراب ... من سجايا ومن علوم الكتاب

من حديث ومنطق وأصول ... وفنون من البديع العجاب

وتفاسير كالمنار ضياء ... تبعث الأمن في حجا المرتاب

وروايات من غريب البخاري ... كم تصدى لشرحها في اقتضاب

وقضايا من الحداثة تعنى ... بفتاوي تزيل كل حجاب

يتوخى مضمونها في اناة ... وذكاء ينير عين الصواب

قد تمنى أبو الوليد ابن رشد ... لو رآه نهاية في الخطاب

يعرض النص والقياس ويحكي ... مصدر الخلف من خلال الجواب

وإذا الفى بالمصادر لبسا ... أسس الرأي من بيان الكتاب

واحتفى بالأقوال كيف رآها ... بحوار يدعو إلى الإعجاب

يتلقى بحرمة كل رأي ... واحترام الآراء نصف الصواب

فاق في الشرق «عبده» في بيان ... سال من فيه مثل در مذاب

وتصدى لكل فكر مريب ... لا يرى في التراث غير اضطراب

أن يعبر فسجعه في انطباع ... أو يراسل فنثره في انسياب

لم يهاجم في غمرة الخلف شخصا ... بعنيف من الجدال معاب

ذلك المجد لاكتساب المعاني ... في حياة تمر مر السحاب

بزغ النور في هداه صريحا بوضوح لم يعتم بضباب
فرأى المسلمون سر هداهم ووعى العالمون فيض الفرابي
ودعته الجموع وهي حيارى كيف يخفى الشهاب في ذا التراب

□ ● □

ان للشيخ موقفا لا يبارى في اجتهاد يسرى على الأحقاب
كان صرحا من المعالي منيفا ومنارا لسائر الطلاب
وشجاعا يواجه الخطب حتى ضاق منه الطغاة بعد الصحاب
راودوه عن بيعة فتأبى ثم عادوا وهددوا باستيلاب
لم يداهن لما رأى الأمر جدا فانبرى للجلاد دون اضطراب
وقف الكل معجبا بفقيه كيف ضحى بأهله والمآب
في سبيل الأوطان والعرش تحلو خلوة السجن واحتمال العذاب
هكذا الفاروق الأبي تحدى سلطة الغىّ في ثنايا الرحاب
لم يطق أن يرضى حياة جبان رب جبن يجر مر العتاب
كم تمنى الصحاب حذو خطاه فاستحال التقليد عند الصحاب
إن هوى صرحه وبات رفاتا فهو في الكون نفحة في كتاب
رحل الفاروق العظيم عزيزا خالص السر طاهر الأثواب
كزهور من الرياض إذ ما قطف الزهر غب طل السحاب
وطوى الموت عالما كان يبدو صادق السعي في جلال الصحابي
وسيبقى للمكرومات مثالا رغم بعد الثوى وطول احتجاب

□ ● □

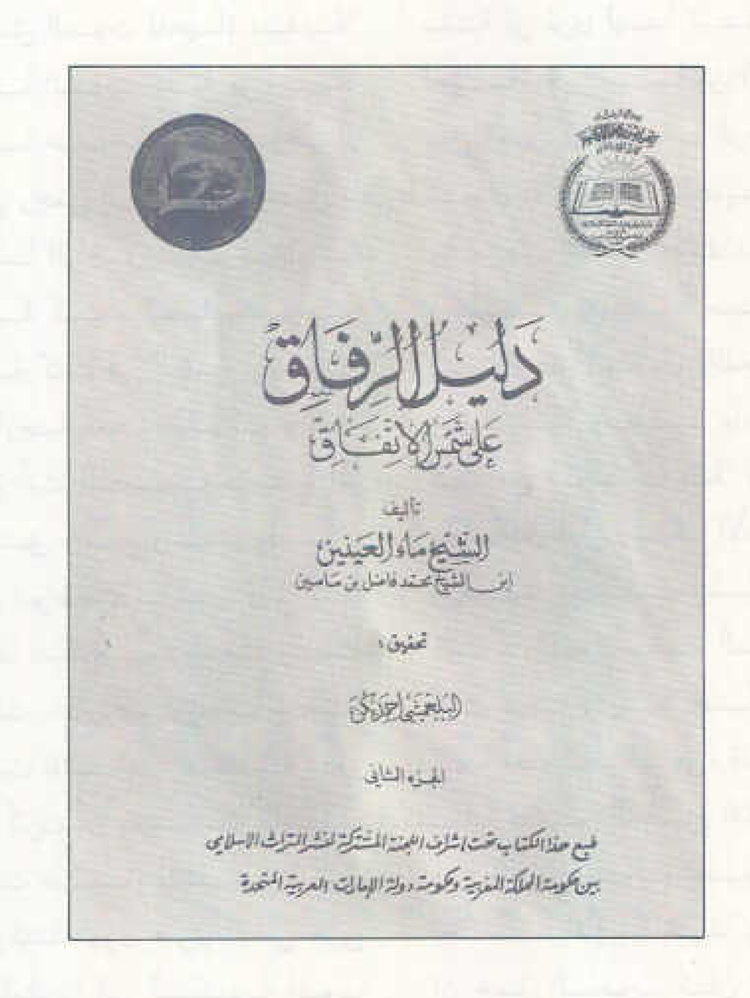
يا أبا النصح لم يفز من يداجي في حديث جمهوره أو يحابى
حولك اليوم موكب من شيوخ ومريدين من جميع الشعاب
وشباب مجلل ووقار يكظم الحزن والأسى في اكتئاب
أطرق الكل للجلال واضحى يمعن الفكر في اقتراب الحساب
يوم لا تجدى ثروة أو نفوذ أو جمال أو عزة بانتساب

□ ● □

نم هنيئا فلست أو نجم يرتضى الصخر مرفأ للإياب
فجنان الخلود حسبك بشرى من رحيم بعبده تواب

وعليك السلام ما دمت أشدو ... بمزايا الأعلام والآداب
وعليك السلام ما بزغ الفجر وأضحى بنوره في الرحاب
ودعاء كنفحة من جنان ... يغتدى قبركم ليوم الحساب
وصلاة على الحبيب المرجى ... لأليم الأسى وعظم المصاب
وعلى آله هداة البرايا ... وعلى الصحب سادة الأقطاب

أحمد بن الحاج الشهيدي



دليل الرفاق
على شمس الاتفاق

تأليف
الشيخ ماء العينين
ابن الشيخ محمد فاضل بن مامين

تحقيق:
البلعمشي أحمد يكن

الجزء الثاني

طبع هذا الكتاب تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي
بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة

الرحّالي المقيم قيمة وقمة

للشاعر عبد العالي المنوني

خلق المـوت للحيـاة بـديـلا   سنـة لن ترى لهـا تبـديـلا
إنمـا المـوت نقلـة من حيـاة   لحيـاة خير لنـا من الأولى
إنمـا هــذه الممـات رحيـل   ومن الجبن أن نهـاب الرحيـلا
هي رجعى إلى الكريم، وهـل نلقى لـدى الأكرمين إلا الجميـلا ؟
أيهـا الراحـل المقيم سـلامـا   يـا نـزيـل الجنـان طبت نـزيـلا
قيمـة كنت مرشـدا ونصـوحـا   وخطيبـا وداعيـا مسـؤولا
قمـة كنت في العلـوم ويـامـا   خضت منهـا المنقول والمعقـولا
شـارحـا معجز الكتـاب وفقهـا   وحـديثـا ومنطقـا وأصـولا
علم أنت للمعـالي أثم   كنت في النـائبـات ظلا ظليـلا
خلـق رائـع ونبـل وفضـل   وصفـات جعلن منـك الأصيـلا
كم تـواضعت بـأكبير، وكم كنت   رفيقـا محببـا سلسبيـلا
وإذا المكرمـات مست وديست   كنت ـ واللـه ـ سيفهـا المسلولا
كنت ـ فاروقنـا ـ إمـامـا وحصنـا   كنت كهفـا ودرعنـا المـأمـولا
كنت للتـائهين مشكـاة نـور   كلمـا أحلو لـك الـدجى، قنـديـلا
ثم آثرت أن يغيبـك اللحـد، كمـا تعشـق النجـوم الافـولا
غبت عنـا، وللنفـوس ازورار   وعن النهـج حـولت تحـويـلا
وركبنـا الهوى هـوى النفـس حتى   أخـذتنـا الأوزار أخـذا وبيـلا
أسلمتنـا إلى الـذنـوب ذنـوب   ان حمـل الـذنـوب كـان ثقيـلا
وغـوينـا وللغـوايـة سبـل   فـاتخـذنـا غير السبيـل سبيـلا

وجرينـــا وراء إبليس نستجـــديـــه سما : تفـــاحـــه المعـــولا

فاغفر الذنب ـ يامهيمن ـ واجعل　　ـ يـا إلاهي ـ دعـاءنـا مقبـولا

نحن وحـدنـا ربنـا واتخـذنـا　　ه ظهيرا وملجـــأ ووكيـــلا

نحن آمنـــا بـــالبشير نـــذيرا　　ونبيـــا وشـــاهـــدا ورسـولا

نحن أنصـــار دينـــه وحمـــاة　　نحن عن نهـج نهجـه لن نـزولا

رصنـــا للجهـــاد صفـــا فبعنـــا　　ه شبـــابـــا وفتيـــة وكهـولا

أيهـــا الـوارثـون مشعـل نـور　　أوقـدوا النور، بينـوا التنـزيـلا

كنتم خير أمـــة أخرجت للنـــاس تبنـون أنفســـا وعقـولا

قـد خبت جـذوة اليقين : فهـلا　　قبس منكم يُـــذكّي الفتيـلا ؟

فـأعيـدو للـدين صرح شموخ　　وأعـدوا للـذود جيشـا مهـولا

قـدسنـا ترتجي الخـلاص، وقـد ملت بكـاء ومـأتمـا وعـويـلا

ورمـال لنـا تفـدى بـأروا　　ح شباب أعطى الكثير الجزيـلا

قـاده للفـدا سليـل أبـاة　　حسن المكرمـات : دام أثيـلا

مراكش　　**عبد العالي المنوني**



العبرة الكبرى
من الدروس الحسنية الرمضانية

بقلم: محمد بن محمد العلمي

إن المملكة المغربية دولة ذات سيادة، دينها الإسلام، ومذهبها مذهب الإمام مالك بن أنس، ولغتها هي اللغة العربية التي أنزل الله بها كتابه الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. هذا هو المنطلق السليم ! وهذا هو المنبع الصافي الذي لا ينضب ولا يغيض !

وملوكنا الأبرار، ابتداء من الدولة الإدريسية، وحتى الآن في ظلال الدوحة العلوية المباركة إنما هم امتداد لذلك النور المحمدي الوهاج، يكملون ويتممون تلك الرسالة الخالدة.

ومما هو جدير بالإعجاب والتنويه والإشادة، تلكم الرسالة النبيلة التي يضطلع بأعبائها صاحب الجلالة، مولانا أمير المؤمنين، وحامي حمى الوطن والدين، بكل إخلاص وتفان واستماتة، ويقظة ووعي وأمانة، وسعي دؤوب، لا يمسُّه أي نَصَب أو لُغُوب. أليس هو الساهر الأمين على إحياء وازدهار الأخوة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ؟ أليس هو ذلك الملك العظيم، الصالح المصلح الذي يهتم أعظم اهتمام، بشؤون الأمة الإسلامية جمعاء ؟ أليس هو الذي يجدد باستمرار، التقليد المجيد، الذي درج عليه أجداده الغر الميامين بإحياء الكراسي العلمية، وإكرام العلم والعلماء، والتشاور معهم والأخذ برأيهم فيما فيه نفع عميم للبلاد والعباد ؟! وذلك نابع من كون الإسلام دين يعامل الناس بالإنصاف والسوية، ويلزم بالشورى بين الراعي والرعية. فالله اختار لنا أن نكون أمة وسطا، رحمة بنا، وحفاظا على وحدتنا وألفتنا، وضمانا لاستمرار حياتنا، ووقاية لنا من أضرار التطرف التي تهددنا من كل صوب وحدب، من تلكم الإيديولوجيات الدخيلة والعميلة شرقا وغربا.

فالطريق مفتوح على مصراعيه في وجه الأمة الإسلامية، لتتبوأ الصدارة من بين الأمم. ومن أجل ضمان ذلك، يجب الحفاظ على تلاحم الأسرة واتحادها وتماسكها وتضامنها في ظل التعاليم الإسلامية الرشيدة، والعمل بجد واجتهاد ومواظبة على حمايتها من عوامل التفكك والتمزق والانحلال. فإنه بالتخطيط الإسلامي المحكم، والعمل المتواصل المنظم للدعوة الإسلامية الموحدة، يتغلب المجتمع الإسلامي على كثير من الأزمات، ويتصدى لكثير من التحديات وينتصر على كثير من المكايد والدسائس، والمعوقات والمثبطات.

فعلينا نحن المسلمين كافة، فرادى وجماعات، أن تتحمل مسؤولياتنا التاريخية بكل شهامة وإخلاص، في

الـداخـل والخـارج، حتى يـواصل الإسـلام سيره، وينشر إشعاعه، ويسترجع مركزه الممتاز.

وليست الدروس الحسنيـة الرمضانيـة، سوى حلقـة ذهبيـة من سلسلـة تـاريخ الإسلام المجيـد، تحفزنـا وتشحـذ طـاقـاتنـا، الحسيـة والمعنويـة، لنكون في مستوى مشارف القرن الحـادي والعشرين. إذ من واجب قـادة المسلمين في كل الربـوع والأصقـاع، ومن واجب الـزعمـاء البـارزين، أن يفتحوا الطريق أمـام القـائمين بـالبعث الإسـلامي، والـدعـوة الإسلامية. فكل مسلم يعتبر واليا وراعيا مسؤولا عن رعيتـه في دائرة اختصاصاته ومسؤولياته والمهمات المناطة به.

ولقـد امتـاز المغرب على امتـداد العصـور والأجيـال، بملوك بررة، كرام بـأقـوالهم وأفعـالهم، جعلـوا الحفـاظ على الإسـلام، والـدفـاع عنـه، ونشره بين الأنـام، مهمتهم الأولى، وشغلهم الشاغل. ففي الإسلام - والفضل لله - طاقـات زاخرة بالعطاء والجود، ما تزال مكنونة لم يتم استثمارهـا إلى حـد الآن. فما علينا إلا أن نكشف الستـار عنها، ونستثمرهـا لكي نستفيد منهـا. والإسلام دين يقرر ويكرس كرامـة الإنسـان، ولا يرتضي لـه أبـدا التعرض للـذل والاضطهـاد والهوان. فهو دين السلم والأمن والأمـان والطمـأنينـة والحريـة والـوفـاء بالعهود.

إن الـدروس الحسنيـة الرمضـانيـة تبلـور الاستمسـاك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، فهي تبشر الأمة المغربية التي هي جـزء لا يتجـزأ من الـوطن الإسـلامي الكبير، وتتمسـك بعوامل الوحـدة، والوعي الكـافي الـذي ينفع الفرد والجمـاعـة في آن واحـد، انطلاقـا من قول اللـه تعـالى في سورة التـوبـة : ﴿**ومـا كـان المـومنين لينفروا كـافـة. فلولا نفر من كل فرقـة منهم طائفـة ليتفقهـوا في الـدين، ولينـذروا قـومهم إذا رجعـوا إليهم لعلهم يحذرون**﴾. وانطلاقا أيضـا من قول الرسول الكريم ﷺ : «أفضل الناس المؤمن العـالم الـذي إذا احْتِيجَ إليـه نفَعَ، وإذا استُغنِيَ عنـه أغنى نفسَـهُ». إن الأهم هـو إفسـاح المجـال الأوسع للاجتهاد تحت لواء الكتاب والسنـة، ينبوع الشريعة الإسلامية والإسهام بأوفر نصيب، وجهد المستطـاع، في إثراء التراث الإسـلامي، والفكر القرآني، وجعلـه مـواكبـا لجميع العصور.

ولهذا كـانت الـدروس الحسنيـة الرمضانيـة استرسـالا مشكوراً في انتشار الأنوار المحمـديـة في هـذا البلـد الأمين

الذي توحده لغة القرآن في طبعه وسجيتـه، ويرى في القيم الإسلامية المثلى نعمة وأية نعمة ! الدين الإسلامي لا مكان فيه للفروق العنصرية، فهو يتحدث بلغة الصفـاء والمسـاواة، والغاية القصوى التي يتوخاها هي كمـال المعنويـة. وذلـك هو السـر الأعظم في العهود الأخـويـة التي تربـط بين أبنـاء المغرب المسلم في الحواضر والبوادي، في البطـاح والنجود، في الأطلس الشـامخ، والريف الأشم ! وعليه، فالمؤمنون كما جاء في الحديث الشريف، يسعى بـذمتهم أدنـاهم، وهم يـد على من سـواهم ! وخلال انعقاد الدروس الحسنية الرمضانية، تصبح المملكـة المغربيـة ملتقى الشموس والأقمـار والنجوم السـاطعة وتلك مجـالس الـذكر تضم المؤمنين على تقوى من اللـه ورضـوان للتـدبر في القرآن الكريم، والحـديث النبـوي الشريف، ولإبراز ما يدعو إليـه الإسلام من تسـامح، وإنـارة العقول والبصائر والأفئـدة ! تلـك فطرتنـا التي فطرنـا اللـه عليها، وذلك رصيدنـا، وتلـك ذخيرتنـا التربويـة القويمـة ! فالهداية كلها في الإسلام، وطريق اللـه أجدى وأفيـد ! فلا مجـال للـزنـدقـة والإلحـاد، ولا للنـزعـات الغبيـة ! ولا للهامشيات الطائفية ! فمن اهتدى بدين الله، فإنـه لا يضل؛ والإسلام فيه سلام البشريـة، لأنـه قـائم على التوحيـد الـذي يمحو كل انحراف وشِرْكٍ ووثنية، بـل يـدعـو إلى خلوص الطوية، وحسن النية، والمحافظة على الأصول الجوهريـة ! فلا انحلال، ولا عصبية مع الإسلام ! بل فيه انفتـاح الـذكـاء والعبقرية ! وفيه دروس من بدر، وأُحُد، والقـادسيـة وأشبـاه تلـك المـلاحم البطـوليـة ! وعلى سبيـل المثـال : معركـة الـزلاّقـة، ومعركـة الأرك، ومعركـة وادي المخـازن، وحرب الريف، وهلم جرا...

إن دولـة الإسلام، سيف اللـه المسلـول على كـل ظلم

وطغيان، لذلك فهي دولة الفتوح الواقعية ! وتلك الروح نفسها هي التي تدعونا أجمعين إلى تحرير القدس الشريف من رجس الصهيونية ! كيف لا، وصرخة تلك البقاع المضرجة بالدماء، تنادي وتستصرخ الضمير العالمي ؟! إذ لم يعرف العالم كله، منذ فجر التاريخ جنسا أبلغ في التحدي والكيد والبهتان والاستعلاء والتعصب المقيت، أكثر من إسرائيل ! ولكننا أصحاب دين يدعو إلى الحياة الكريمة، وإلى العدالة والأخوة الصادقة، وإلى محاربة الشرك والإلحاد، والذل في منطق ديننا، يعني المنية : **﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾**. والتواصي بالحق والصبر هو عين المنعة لدولتنا الإسلامية. وكل هذه المثل العليا تشد قلوب المؤمنين والمسلمين إلى (رباط الفتح)، خلال شهر رمضان المعظم، حيث تعقد المجالس، لتدارس القرآن الحكيم، والحديث النبوي الشريف، مما يقدم الدليل تلو الدليل على أن أمتنا المغربية دائمة الارتباط بالملة السمحاء، وأن لها قصب السبق في الاعتناء والاهتمام بشؤون دينها، إذ منه تستمد ذلك النور الذي تنقشع أمامه الأباطيل والضلالات والانحرافات. فهي تعتمد على دينها وأصالتها للاجتهاد في حل مشكلاتها، وتحسين حالتها، بما يرضيها هي، ويرضي الله ورسوله قبل كل شيء !

ونحن في الجناح الغربي من الدولة العربية الإسلامية الكبيرة، جنود مجندون للحفاظ على جوهر الإسلام الصافي من التشكيكات الدخيلة. فالتاريخ لا ينسى مثلا - في عهد الدولة العلوية المجيدة - ما قام به المولى اسماعيل، من تطهير البلاد، من فئة (العكاكزة) الضالة المنحرفة،، كما لا ينسى التاريخ محاربة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، لفلول برغواطة، حتى قضى عليهم نهائيا. وبالإضافة إلى ذلك فإن هذا العاهل العظيم، يعتبر بحق، مجدد البحوث في علوم الحديث النبوي الشريف، وباعث كتاب الموطأ للإمام مالك، وكتب الأسانيد في هذا الميدان. ويذكر التاريخ كذلك بالكثير من الإعجاب، غيرة الملك العالم، مولاي سليمان، وما تميز به عهده من عبر ومواقف شريفة من الحفاظ على السُّنّة، وإماتة البدعة، معطيا من سلوكه القويم مثالا يقتدى لرعيته. ثم جاء عهد المولى عبد الرحمان بن هشام الذي كان لا تأخذه في الحق لومة لائم.. ويعتز المغاربة بعهد المولى الحسن الأول، وما كان يطمح إليه من انفتاح على العالم الجديد، والنهضة العصرية الحديثة، مع الحفاظ كل الحفاظ على أصالته ومقوماته الحضارية والثقافية الإسلامية.. وكان المولى عبد الحفيظ ذا باع طويل في علوم الحديث الشريف. وتفسيره لألفية العراقي شاهد على ذلك.. كما كان يبز علماء الحديث في مجالسه المشهورة، فيفوقهم درسا وإمعانا وتمحيصا وتحريا ! أما مواقف مولانا محمد الخامس - قدس الله روحه - فهي أكبر من أن نوفّيها حقها من الاستقصاء والتنويه، كيف لا، وهو بطل التحرير، ومحقق الاستقلال.. وتحمل أعباء الأمانة بعده، شبله البار، مولانا أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني - أيده الله ونصره - فقضى القضاء المبرم على شرذمة البهائيين وطهر البلاد، من رجسهم، ثم حرر الصحراء بتلكم المسيرة الخضراء السلمية المظفرة وحقق وحدة البلاد، ويسعى إلى انعتاق باقي الجيوب.. واسترجاع مدينتي سبتة ومليلية إلى حضرة الوطن الأب. ويكفينا أن نشير هنا - على سبيل المثال لا الحصر - إلى الاحتفال بمرور أربعة عشر قرنا على نزول القرآن الكريم، وذلك سنة 1387 هـ/1968 م، وإلى انعقاد الموتمر الإسلامي الأول بالرباط سنة 1969، في أعقاب حريق المسجد الأقصى.. وإلى تنظيم السيرة الحسنية، وانطلاقها في 6 نوفمبر 1975 نحو أقاليمنا الصحراوية، بعد أن أصدرت محكمة لاهاي رأيها الاستشاري حول الصحراء، بكونها لم تكن أرضا خلاء، وأن في أعناق أهلها عهد البيعة والولاء للملوك العلويين الأبرار.. كما نشير إلى مؤتمر فاس الأول والثاني، وإلى موتمر القمة الإسلامية الرابع المنعقد بالدار البيضاء، فيما بين 16 و19 يناير 1984.. وإلى الحلقات المتوالية للدروس الحسنية، كلما حل شهر رمضان المعظم، وإلى رحلة الجنوب الأخيرة التي فيها أكثر من استفتاء، وأكثر من تجاوب تلقائي بين القمة والقاعدة.. فمن طنجة إلى الكويرة، تتوالى المسيرات

الإنمائية المباركة، وتتلاحق النتائج الإيجابية التي أسفرت عنها الحركات الملكية الموفقة، التي تعتبر ـ ولاشك ـ مشاعل وهاجة في طريق الوحدة الإسلامية المنشودة.

حفظ الله حامي الحمى، وراعي الرعية، مولانا الحسن الثاني، وأقر عينه بولي عهده، صاحب السمو الملكي الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه السعيد المولى الرشيد، فهذا البيت الماجد، استمرار للأنوار المحمدية السرمدية، وله من الله سبحانه وتعالى عناية السبع المثاني الأحدية ! وبارك الله في ذلك الالتحام والانسجام والامتزاج والجاذبية والعشق التلقائي بين العرش والشعب ! فالمشاعر الإسلامية تأتي في حماه دافقات مشرقات حاتمية ! ونِعْمَ التكليف والتشريف في الاضطلاع بأعباء المسؤولية ! فمن الهمة العالية لمولانا أمير المؤمنين، ما ينالنا منه أجمعين من توجيهات سلفية، تزيد رعاياه الأحرار يقظة وصحوة وحمية ! فبارك الله في صوت الحق المنبعث من الأصول الهاشمية العلوية ! فنحن نفخر كل الفخر، ونعتز كل الاعتزاز بناصر الوحدة الإسلامية ! وهذه الدروس الحسنية قد طاب منهلها، ولسان الحال منها يقول : لن تصلح هذه الأمة إلا بما صلح به أولها !

الرباط — **محمد بن محمد العلمي**

من ميراث الرسول في مجال الدعوة

للأستاذ محمود يوسف مصطفى

- استخدام لغة المتلقى :

اللغة هي وسيلة تعبير الإنسان عن نفسه وعن أفكاره ومشاعره «فالفكرة تظل حبيسة في صدر صاحبها لا يعرف الناس عنها شيئا إلا إذا تجسدت في صورة ألفاظ أو خطوط أو صور أو أصوات أو إشارات أو حركات. واللغة هي مجموعة الرموز أو الأصوات أو الحركات التي تحمل معان معينة يتساعد الإنسان على نقل أفكاره (1).

وتأكيدا لما قيل عن أهمية الخبرة المشتركة و ضرورة تبادل أفكار معينة معلومة للمرسل والمتلقى فإنه من الضروري «بالنسبة للمتكلم والمستمع أن يتماثلا مع بعضهما عن طريق الاشتراك في تبادل أفكار معينة بلغة واحدة» (2) فمن العناصر المؤدية إلى نجاح عملية الاتصال أن تكون الرسالة بلغة المتلقى.

ومن عوائق الاتصال استعمال الرسالة لكلمات وعبارات غريبة غير معروفة بالنسبة للجمهور (3) ولعل هذا يوضح صعوبة التفاهم بين شخصين يتكلمان لغتين مختلفتين أو ينطقان بلهجتين متباينتين (4).

فإذا لم نكن على سبيل المثال قد تعلمنا اللغة الروسية لا نستطيع أن نصيغ أفكارنا بالروسية أو أن نفك رموز اللغة الروسية (5) وعلى القائم بالاتصال أن يكون قادرا على تقديم رسالته في رموز يفهمها المتلقى (6) أي أن تصاغ الرسالة مستعملة الكلمات الشائعة المألوفة Familiar Words للجمهور مع ضرورة إدراك النقاط الثلاث التالية :

1 - يجب أن تعني الكلمات والعبارات بنفس الشيء للمرسل والمتلقى.

---

1) إبراهيم إمام، الإعلام والاتصال بالجماهير، ط 2 (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية، 1975) ص ١١١.

2) john Makay and T Thomas Sauver, speech Communication New : U.S.A : charles Merrill publishing Company, 1973, P. 53.

3) Laurence Nolte, Fundamental of public Relations, Second ed. New Jork : pergamon Press Inc, 1978, P. 327.

4) إبراهيم إمام، فن العلاقات العامة والإعلام، ط 2 (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية، 1975) ص 194.

5) جيهان أحمد رشتي، الأسس العلمية لنظريات الإعلام، ط 2 (القاهرة : عالم الكتب، 1976) ص 186.

6) Cutlip and Center, Effective Public Relations : Third ed, New Jersy Prentie Hall - Inc, 1964 P. 147.

2 - إن تكـون الرسـالـة مرتكـزة على الخبرة المشتركة.

3 - إن الجماهير المختلفة ربما تحتاج إلى كلمات مختلفة (7).

يتضح لنا مما سبق أهمية مخاطبة المتلقى بلغة يفهمها وكلمات يستعملها وصولا إلى نجاح عملية الاتصال وتحقيقا لاقناع المتلقى بفكرة أو رأي.

ونحن إذا طالعنا القرآن الكريم نجده يكشف عن هذه الحقيقة ويؤكد أن الأنبياء وقد حملوا على عاتقهم تبليغ رسالات السماء إلى الناس كانوا ناطقين بلسان أقوامهم، قال تعالى : ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم**﴾ (8) وهذه نعمة للبشر في كل رسالة أن يرسل الرسول بلغتهم ليبين لهم وليفهموا عنه فتتم الغاية من الرسالة. وقد أرسل النبي بلسان قومه وإن كان رسولا إلى الناس كافة لأن قومه هم الذين سيحملون رسالته إلى كافة البشر (9).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لم يبعث الله عز وجل نبيا إلا بلغة قومه (10) فلننظر كيف خاطب النبي بدعوته المتلقى وقد راعى لغته فاستعمل كلمات يفهمها المتلقى وألفاظا يدركها ولا يحار في فهم معناها» وكان العرب لغاتهم مختلفة وألسنتهم شتى ويعسر على أحدهم الانتقال من لغة إلى غيرها أو من حرف إلى آخر بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولا بالتعليم والعلاج ولا سيما الشيخ والمرأة (11).

وليس أدل على هذا الاختلاف في اللغة واللهجة بين قبائل العرب أنه قد تستعمل قبيلة كلمة ولا تستعملها القبيلة الأخرى أو تستعمل غيرها. فقد روى أن أبا هريرة لما قدم من دوس عام خيبر لقى النبي وقد وقعت من يده السكين فقال له ناولني السكين فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ولم يفهم ما المراد باللفظ فكرر له القول ثانية وثالثة فقال المدية تريد ؟ وأشار إليها فقيل له نعم فقال أو تسمى عندكم السكين ثم قال والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ (12).

والأساس في رسالات السماء أن يقوم الأنبياء بتبليغها إلى الناس وتوصيلها لهم ويترتب على هذا التوصيل سؤال ومساءلة وحساب لمن وصلته الدعوة، قال تعالى : ﴿**ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون**﴾ (13) ومن هنا تنقطع الاعذار بوصول الحق إلى الناس وعرضه عليهم فلم يعد لهم من حجة أو دليل (14).

ولذلك كان من الضروري أن يصل منهج الله للناس على أيدي رسله بلغة يفهمونها حتى لا يكون لهم حجة تجعلهم يقولون لم نفهم ما خوطبنا به فكيف نسأل عنه ولكان ذلك مدخلا إلى عدم إيمانهم يتحاجون به (15) كما قال الله تعالى : ﴿**ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته**﴾ (16).

ولذلك كان الرسول ﷺ عندما يتحدث يراعي لغة سامعيه فيحدث كل واحد على حسب لغته وينتقل من لغته القرشية إلى غيرها وربما تحدث النبي مع بعض الناس بكلام قد لا يفهمه أصحابه القرشيون فقد ذكر على بن أبي طالب أنه سمع النبي يخاطب وفد بني نهد فقال له يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره، فقال النبي أدبني ربي فأحسن تأديبي، ومن ذلك كتبه الغريبة التي كان يمليها ويبعث بها إلى قبائل العرب يخاطبهم فيها بألفاظهم ولا يعدو ألفاظهم وعباراتهم فيما يريد أن يلقيه إليهم وهي ألفاظ خاصة بهم وبمن يداخلهم ويقاربهم لا تجوز في غير أرضهم ولا تأتلف مع أوضاع اللغة القرشية (17).

---

7) Laurence Nolte, op. cit, PP. 329 - 330.

8) إبراهيم / 4

9) سيد قطب، في ظلال القرآن، ط 8 (بيروت : دار الشروق، 1979) ص 2087.

10) ابن كثير، كفير القرآن العظيم، جـ 2 (القاهرة : دار إحياء الكتب العربية، بدون تاريخ) ص 522.

11) على الحيذي، تاريخ الأدب الجاهلي، ط 3 (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية، 1969) ص 162.

12) أحمد أمين، فجر الإسلام، ط 10 (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، 1965) ص 52.

13) القصص / 51.

14) سيد قطب، مرجع سابق، ص : 27.

15) أحمد أحمد غلوس، علم الخطابة، ط 1 (القاهرة : دار الخيل للبطاعة، 1971) ص 149.

16) فصلت / 44.

17) مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط 2 (القاهرة المكتبة الأهلية، 1926) ص 336 - 337.

وكانت الوفود إذا قدمت على النبي وتكلم من فيها بكلام يصغى النبي إليه ثم يحدثهم بجنس كلامهم وبألفاظ من ألفاظهم وربما كانت ألفاظا غاية في الصعوبة على غيرهم وتحتاج إلى شرح وتفسير ولكنها ضرب من بلاغتهم، وسيوضح الكاتب أمثلة لمخاطبات النبي لهذه الوفود على النحو التالي :

مع وفد نهد :

وبنو نهد قبيلة باليمن كانوا يتكلمون بألفاظ غريبة لا تعرفها أكثر القبائل وكان النبي في مثل هذه الأحوال يخاطب كل قوم بلغتهم فتكلم مع كل ذي لغة غريبة بلغته، ومع كل ذي لغة بليغة بلغته اتساعا في الفصاحة واستحداثا للألفة والمحبة (18).

التقى هذا الوفد بالنبي فاستمع لكلامهم فتحدث منهم طهفة بن رهم النهدي فإذا هو ينطق بكلمات على النحو التالي : «اتيناك من غورى تهامة بأكوار الميس ترتمى بنا العيس نستحلب الصبير ونستخلب الخبير ونستعضد البرير ونستخيل الرهام ونستجيل الجهام من أرض غائلة النطاء غليظة الوطاء وقد نشف المدهن وييس الجعثن وسقط الأملوج ومات العسلوج ومات الودى وهلك الهدى يرئنا إليك يا رسول الله من الوثن والعنن. وما يحدث الزمن لنا دوعة الإسلام وشرائع الإسلام ما طمى البحر وقام تعار» (19) هكذا كانت ألفاظهم على هذا النحو، وتحتاج هذه الألفاظ البالغة أعلى أنواع البلاغة إلى التفسير :

فغورى تهامة ما انحدر منها والأكوار : الرحل، الميس (فتح الميم سكون النياء) شجر صلب يعمل منه رحال الإبل، نستحلب الصبير (فتح الصاد) سحاب أبيض يتكاثف أي نستدر السحاب، نستخلب الخبير هو العشب في الأرض شبه بخبير الإبل وهو وبرها : واستخلابه : احتشاشه بالخلب وهو المنجل. وقيل نستخلب الخبير أي نقطع النبات ونأكله. ونستعضد البرير أي نقطعه والبرير ثمر الأراك وكانوا يأكلونه في الجدب لقلة الزاد ونستخيل الرهام بكسر الراء وهي الأمطار الضعيفة وأحدثها رهمة أي نتخيل الماء في السحاب القليل، ونستجيل الجهام (فتح الجيم) السحاب الذي فرغ ماؤه أي تظن مالا وجود له كالسحاب والمطر موجودا.

وقوله من أرض غائلة النطاء (كسر النون) أي المهلكة للبعد، ويقال بلد نطىء أي بعيده والمدهن (بالضم) نقرة في الجبل ومستنقع الماء وكل موضع حفرة السيل، وهذا كناية عن جفاف الماء في جميع نواحيهم، وييس الجعن : أصل النبات، والأملوج : ورق شجر يشبه الطرفاء ومات العسلوج وهو الغصن إذا يبس وذهبت طراوته، يريد أن الأغصان يبست وهلكت من الجدب، وقوله مات الودى (بشد الياء) هو فسيل النخيل، وهلك الهدى (فتح الهاء) وكسر الدال وشد الياء : ما يهدي إلى بيت الله الحرام من النعم لينحر ويريد يبست النخيل وهلكت الإبل. الوثن الصنم يعنون أنهم تركوا عبادة الأصنام، العنن أي الاعتراض يقال عن الشيء لي إذا اعترض، كأنه قال برئنا إليك من الشرك والظلم وقيل أراد به الخلاف والباطل... وقوله ما طحى البحر أي ارتفع بأمواجه، تعار اسم جبل» (20).

فلما رأى النبي كلامهم على هذا النحو رد عليهم وقد رآهم يشكون الجدب بدعائه لهم على النحو التالي : «اللهم بارك لهم في محضها ومخضها ومذقها وأبعث راعيها في الدثر بيانع الثمر وأفجر له الثمد، وبارك له في المال والولد، من أقام الصلاة كان مسلما ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصا لكم يا بني نهد ودائع الشرك ووضائع الملك لا تلطط في الزكاة ولا تلحد في الحياة ولا تتثاقل عن الصلاة (21).

وهذا الكلام للرسول ﷺ، يبدو صعبا ولكنه من جنس كلامهم ويحتاج لتفسير : «قوله ﷺ اللهم بارك لهم في محضها أي خالص لبنها، ومخضها ما خض من اللبن وهو الذي حرك في السقاء حتى يتميز زبده فيؤخذ منه ومذقها وهو اللبن الممزوج بالماء، وهكذا دعا النبي لهم في ألبانهم بأقسامهم والقصد الدعاء لهم بخصب أرضهم وسقيها

18) على برهان الدين الجلي، السيرة الحلبية، جـ 3 (القاهرة : المطبعة الأزهرية، 1320 هـ) ص 8.

19) المرجع السابق، ص 80 ـ 81.

20) المرجع السابق، ص 12.

21) المرجع السابق، ص 81.

فكأنه قال اللهم اسق بلادهم وأجعلها مخصبة ملبنة وابعث راعيها في الدثر (بالسكون أو الفتح) وهو المال الكثير وقيل الخصب والنبات الكثير لأنه من الدثار وهو الغطاء لأنها تغطي وجه الأرض وافجر له الثمد فتح الثاء سكون الميم أي تفتح الماء القليل أي صيره كثيرا.

وقول النبي ودائع الشرك، قيل المراد بها العهود والمواثيق التي كانت بينهم وبين من جاورهم من الكفار، ووضائع الملك (بكسر الميم) هي الوظائف التي تكون على الملك وهو ما يلزم الناس في أموالهم من الزكاة والصدقة. أي لكم الوظائف التي تلزم المسلمين لا نتجاوز عنكم ولا نزيد عليكم فيها شيئا بل أنتم كسائر المسلمين وقوله ولا تلطط (بضم التاء سكون اللام والطاء الأولى مكسورة والثانية ساكنة) في الزكاة أي لا تمنع الزكاة وقوله ولا تلحد (ضم التاء سكون اللام كسر الحاء) أي لا تمل عن الحق مادمت حيا والخطاب لطهفة بن رهم (22).

وهكذا دعا النبي لهم بكلام من كلامهم وشرح لهم ووضح أن الإسلام يحترم عهودا سابقة لهم مع غيرهم وأن الزكاة فرض على المسلمين وأوصاهم الا يحيدوا عن الحق ولا يتثاقلوا عن الصلاة.

والنبي عليه أن يوضح للناس ما أنزله الله إليه «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم» (23) وقد شرح النبي الإسلام ووضح أركانه على هذا النحو بلغة هؤلاء الناس وقد كتب النبي لبني نهد كتابا كانت عباراته وكلماته من كلامهم.

كتاب النبي لوائل بن حجر :

كتب النبي لوائل بن حجر كتابا خاطبه فيه بعباراته وألفاظه التي يتكلم بها فقال النبي «إلى الاقيال العباهلة والأرواع المشابيب في التبعة شاة لا مقورة الألياط ولا ضناك وأنطوا الثبجة وفي السيوب الخمس ومن زني مم بكر فاصعقوه مائة واستوفضوه عاما ومن زني مم سب فضر جوه بالأضاميم ولا توصيم في الدين ولا غمة في فرائض الله تعالى وكل مسكر حرام ووائل بن حجر يترفل على الاقيال» (24).

وتفسير هذا الكلام على النحو التالي :

«الاقيال هم الرؤساء وقيل الملوك. والعباهلة الذين أقروا على ملكهم لا يزالون من عبهلت الإبل إذا تركتها ترعى متى شاءت والأرواع (فتح الهمزة وسكون الراء) جمع رائع وهم ذوو الهيئات الحسنة الحسان الوجوه والمشابيب (فتح الميم والشين) السادة الرؤوس) الحسان الوجوه فهم مع اتصافهم بالحسن متصفون بأنهم رؤساء سادات.

وقوله في التيعة بكسر التاء : أربعون من الغنم وفي القاموس التيعة أدنى ما تجب فيه الصدقة من الحيوان.

وقوله ولا مقورة : (ضم الميم وفتح القاف وشد الواو) والألياط (فتح الهمزة سكون اللام) أي لا مسترخية الجلود لكونها هزيلة، وقوله ولا ضناك (بكسر الضاض) وهي الكثيرة اللحم ضد ما قبلها (السمينة) فلا تؤخذ لجودتها. وقوله وانطوا أي أعطوا بلغة اليمن أو بني سعد روى في الدعاء قوله لا مانع لما أنطيت أي أعطيت، والثبجة (تاء وباء وجيم مفتوحات) أي أعطوا الوسط في الصدقة لا من خيار المال ولا من دنيه. وفي السيوب جمع سيب وهو الركاز أو المعدن ومن زني مم بكر (كسر الراء) لأن الأصل من البكر لكن أهل اليمن يبدلون لام التعريف ميما فادغمت النون فيها وحذفوا همزة الوصل في الرسم تخفيفا فلذلك اتصلت النون بالميم لفظا وخطا فأدغمت. فاصعقوه (سكون الصاد فتح القاف وضم العين) أي أضربوه على الرأس وقيل الضرب ببطن الكف. ويروى فاصفعوه بالفاء بدل القاف، يقال صفعت فلانا أصفعه إذا ضربت قفاه واستوفضوه (كسر الفاء وضم الضاض) أي غربوه وانفوه.

وقوله فضرجوه (الضاد المفتوحة وشد الراء والجيم المضمومة) من التضريج وهو التدمية أي أرجموه حتى يسيل دمه ويموت، وقوله ولا توصيم في الدين (صاد مكسورة) تفعيل من الوصم وهو العيب والعار أي لا عار في إقامة الحدود ولا تحابوا فيها أحدا وهذا بمعنى قوله تعالى :

---

22) المرجع السابق، ص 82 ـ 14.

23) النحل / 44.

24) على برهان الدين الجلبي، مرجع سابق، جـ 3، ص 91.

﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ (25) وقوله ولا غمة في فرائض الله (بضم الغين، وشد الميم) أي لا تستر ولا تخفى بل تظهر ويجهر بها إقامة للحدود واظهارا للشعائر. يترفل : شد الفاء أي يتسود ويترأس» (26).

وهكذا يشرح النبي ﷺ لوائل بن حجر ما تجب فيه الزكاة مما يملكون ويوضح له بعض ما نهى الإسلام عنه كجريمة الزنا ويبين عقوبة فاعلها من كان أعزبا ومن كان متزوجا ويجعله النبي ملكا على قومه ويثبته على ملكه. كل ذلك في لغة من جنس كلامه. وكانت تلك طريقة النبي في مخاطبة الناس يسمع كلامهم فيحدثهم بلغتهم كما حدث في مخاطبته وكلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد وككلامه مع ذي المشعار الهمداني وطهفة النهدي وقطن بن حارثة العليمي والاشعث بن قيس ووائل بن حجر وغيرهم من اقيال حضرموت وملوك اليمن (27).

وقد قدمت صورا من مخاطبات النبي لبعض هؤلاء.

كان النبي ينوع من كلماته ويغير من ألفاظه في مخاطبة قبائل العرب ويتخذ الكلمات التي تلائم كل مستمع فيخاطب أهل الحضر بكلام الين من الدهن وأرق من المزن ويخاطب أهل البدو بكلام أرسى من الهضب (28).

وعندما كان النبي يشرح للناس أمرا ما فإنه كان يتخير الألفاظ التي يكونون على علم بها فنراه عندما يشرح معنى المسئولية ويؤكد عليها في حديثه كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته «يستعمل ألفاظا مستوحاة من البيئة ولها القدرة على توصيل المعنى المراد» فمن وحى البيئة الصحراوية التي تقوم على الرعي اختار ألفاظه فالراعي والرعية والرعي الصق شيء بحياتهم. والعرب تعرف أثر الراعي بغنمه وحاجتها إلى عين يقظة ساهرة للمحافظة عليها فإذا غفلت عنها شردت أو وقعت فريسة للذئاب فالتعبير بلفظ الراعي أدل على هذا المعنى من غيره لشدة التصاقه بحياة العرب (29).

*

25) أبو الفضل عياض بن موسى، الشفا بتعريف حقوق المصطفى (القاهرة : بدون ناشر، بدون تاريخ) جـ 1، ص 58.

26) على برهان الدين الحلبي ما مرجع سابق، جـ 3، ص 59 ـ 60.

27) المرجع السابق، ص 80.

28) المرجع السابق، ص 81.

29) عبد القادر حسين، من بلاغة النبوة، سلسلة دراسات إسلامية، العدد 191.

(القاهرة : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) ص 39.

رسالة للمرحوم الأستاذ عبد السلام ابن سودة

يعرف فيها بنفسه وببعض مؤلفاته

تقديم وتعليق :

الأستاذ أحمد العراقي

انتقل إلى رحمة الله يوم 28 شعبان 1400 (12 يوليوز 1980) البحاثة المؤرخ العدل الأستاذ عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة المري. وقد كان عالما مؤرخا نسابة أديبا، اشتغل طيلة حياته بالبحث والتنقيب عن مصادر تاريخ المغرب ومظانه، وأوسع رجالاته ترجمة وتعريفا. وخص مسقط رأسه «فاسا» بعناية كبيرة، فأفرد مواقعها بالتأليف وكذلك عائلاتها وقضاتها وأمثالها، حتى ليمكن عده بحق مؤرخ فاس بلا منازع في وقتنا الحاضر.

وكان ـ رحمه الله، كما عرفته في أخريات حياته، وبالرغم من تقدم سنه ـ مثال الجد والمثابرة على البحث والتنقيب، كريما جوادا لا يبخل بعلمه ولا بكتبه على قاصديه من طلاب العلم والمعرفة، ويكاد بيته لا يخلو منهم في كل حين، يسارع إلى مدهم بمؤلفاته القيمة ومكنونات خزانته العلمية الزاخرة.

وقد كنت سألته مرة ـ خلال إحدى زياراتي له في بيته بفاس ـ عن نفسه ومؤلفاته، فما كان منه ـ رحمه الله ـ إلا أن دفع لي بضعة أوراق مبعثرة، ونبه أن بها طلبتي. وكانت هذه الأوراق عبارة عن نسخة من رسالة جواب له عن رسالة بعثها إليه أحد الباحثين في نفس الشأن.

تقع هذه الرسالة في أربع صفحات من القطع الكبير، مرقمة من «1» إلى «4». وهي بخط صاحبها، ويلاحظ أنه لم يصرح فيها باسم المرسل إليه، وأنه لم يثبت تاريخ الإرسال. وقد أمكننا تدارك تاريخ الإرسال عن طريق ورقة مستقلة عن الرسالة، هي بقية نسخة أخرى من نفس الرسالة، لكنها تختلف عن الأولى في كونها كتبت بضمير الغيبة، كتبها عن صاحبها أحد تلاميذه، لم يصرح باسمه، وورد في ختامها ما يلي : «حرر بفاس، في 1 ـ 10 ـ 1961. تلميذكم المخلص : م.ح».

وهذا هو نص الرسالة (1) :

ص 1 :

بسم الله. فاس، في : (1961/10/1)

جناب الأستاذ المحترم.

تحية صادقة، وسلاما عاطرا.

وبعد، فقد تشرفت برسالتكم ذات اللفظ الأنيق والمعنى الرقيق، تطلبون فيها من صفيكم أن يبعث إليكم ـ بوصفه مؤرخا باحثا في تراث المغرب الخالد ـ بترجمته الشخصية منذ استنشق نسيم الحياة إلى الآن، مع ما سطرته

---

1) بيان الرموز المستعملة في متن الرسالة : (...) : استدراك أو تصويب.
ص متبوعا بعدد = إشارة لرقم صفحات الرسالة مخطوطة.
../. = نهاية صفحة وبداية أخرى من الرسالة مخطوطة.

يمناه من أبحاث ومؤلفات في تاريخ هذا القطر العزيز الذي ندين له بكل ما نملك من غال ورخيص. وأيم الحق إنه لتقدير أعتز به كل الاعتزاز، وأتمنى صادقا أن أكون عند حسن الظن وجميل الثقة اللذين انبعثا من صميم إخلاصكم للبحث وتفانيكم في تدوين أخبار هذه الديار، وما دونه أبناؤها من تراث خالد، لا تبلى جدته ولا تذبل زهرته.

غير أنني ـ والخجل يحبس لساني وقلمي ـ أصارح الأخ الباحث بأنني وجدت عبء ذلك ثقيلا على كاهلي، وكأنما كنت أحول جبلا، فيلتوي لساني ويضطرب قلمي، إذ كيف أؤرخ لنفسي.؟ وكيف أكتب تاريخ حياتي..؟ أم كيف أبوح بسري، فأنشر المحاسن وأطوي المساوئ، وأنت الخبير أن المؤرخ لا أصعب عليه من أن يؤرخ نفسه، في حين يسهل عليه أن يكتب تاريخ الأفراد والشعوب..؟ وما ذلك إلا لأن المؤرخ يخشى أن يتهم بكل ما يتهم به المتحدثون عن أنفسهم حيث يبدأون حديثهم بـ «أنا» ويختمونه بـ «نحن». وربك أعلم بصحة ما يقولون.

ص 2 :

فإذا تفهمتم عذري، وعلمتم حق العلم وضعي وموقفي من مطلبكم، سهل عليكم أن تلتمسوا لي مبررا فيما تلاحظونه من اختصار واقتصار على الواجب الأكيد. وأملي ألا تغيب هذه الملاحظة عن أذهانكم، وأنتم تكتبون تاريخ حياة أخيكم ومجهوداته في هذا الميدان في كتابكم الذي تنوون إخراجه للناس عن وطننا المفدى بالمهج والأرواح.

وها هي الترجمة المتواضعة :

عرفت الحياة في مدينة فاس الفيحاء، عاصمة المغرب العلمية والفكرية وموطن الآباء والأجداد منذ القرن الثامن الهجري. واشتهرت أرومتي التي أنتسب إليها باسم «ابن سودة» بالأندلس والمغرب، الأسرة العربية الشهيرة التي هاجر جدها الأعلى من الأندلس إلى المغرب أيام الأمير أبي عنان المريني. وقد عرف بهذا الجد القادم الوزير الخطير لسان الدين ابن الخطيب في كتابه الإحاطة (2).

2) هو أبو القاسم محمد بن محمد بن علي ابن سودة المري، قدم من غرناطة إلى فاس سنة 754 هـ.
(ترجمته في = الإحاطة، لابن الخطيب، جـ 3، ص 168 ـ 171).

واتخذ فاسا دار إقامة، تناسل بها أحفاده من القرن الثامن إلى الآن. وتكفلت كتب التاريخ الشهيرة بترجمة أعلام هذه الأسرة في القضاء والعدالة والخطابة والفتوى والتأليف (3).

وكان ميلادي بمسقط الرأس فاس سنة 1319 هـ. وتربيت بين أحضان سيدي الوالد حفظه الله (4)، والأعمام وأبناء العم، وما منهم إلا عالم أو قاض أو خطيب أو موثق. وتولى كبير تربيتي وتعليمي جدي من قبل الأم العلامة الخطيب سيدي العابد بن العلامة المحدث أحمد رحمهما الله (5).

ودخلت للدراسة في كلية القرويين، فتلقيت العلوم الإسلامية على جلة من أعلامها، ذكرتهم في الفهرسة مع وافر من ترجمتهم. ولما أسس النظام القروي سنة 1350 منعت من الالتحاق مع جماعة من الزملاء بسلك الامتحان لأننا من الوطنيين. فبقيت أدرس لنفسي، وأختار ما يوافق مشربي، وكنت مغرما بكتب التاريخ والأنساب. ووجدت في خزانتنا الأحمدية (6) ما (يشجعني) على تغذية هذه الرغبة التي صارت جزءا مني لا أقصد دون تحقيقها بكل ما أملك من وقت وفكر.

واشتركت في الحياة العامة للبلاد، واتصلت بكثير من رجال العلم والأدب والتاريخ في بلادنا، ولم آل جهدا في الاستفادة من كل من عنده شيء يشبع هوايتي، وفي أثناء ذلك اشتغلت بالتوثيق العدلي. ثم عينت في البحث بحرم خزانة القرويين الذي كان متراكما بها (7)، فكانت النتيجة

3) وقد أفردهم بالتأليف =
ـ سليمان الحوات في كتابه «الروضة المقصودة والحلل الممدودة في مآثر بني سودة» (دليل. جـ 1، ص 101)
ـ العابد ابن سودة في كتابه «الأنباء المنشودة من شمائل رجال بيت بني سودة» (دليل. جـ 1، ص 71).

4) توفي سنة 1389 هـ (ورد ذكره في الدليل. جـ 2، ص 359، وفي مواضع أخرى).

5) توفي سنة 1359 هـ (ذكره في = الدليل. جـ 1، ص 35، وفي مواضع متفرقة أخرى).

6) نسبة إلى جده من قبل الأم القاضي أحمد بن الطالب ابن سودة المتوفى سنة 1321 هـ.
(ترجمته في = الإعلام، للمراكشي. جـ 2، ص 455 ـ المطبعة الملكية).

7) عين في ذلك بمعية المرحوم محمد العابد الفاسي، وذلك في 19 صفر 1362 هـ (انظر مقدمة فهرس مخطوطات خزانة القرويين، لمحمد الفاسي الفهري. جـ 1، ص 10 ـ 11).

حسنة، مع الخطابة في ضريح المولى إدريس الأزهر إلى سنة 1369 حيث سعى بعض الطغاة المسيطرين في ذلك الوقت في حرماني من الخطابة وما إليها، لأغراض شخصية ذهبت (لذتها) وبقي وزرها عليه.

وبعد إعلان الاستقلال عينت في وظيفة بخزانة القرويين وما زلت فيها إلى الآن (8).

أما مؤلفاتي فهي :

1) «دليل مؤرخ المغرب الأقصى»، ذلك الكتاب الذي حوى من مصادر تاريخ المغرب ما جعله عمدة الباحثين في المغرب والمشرق، وصيره مرجعا عند كثير من المؤلفين (9). جمعت فيه أكثر من ألفين وثلاثمائة اسم كتاب. وذكرت فيه أكثر من ألف وفاة. وقد طبع أولا بتطوان (10)، في جزء واحد. ثم تولت إدارة دار الكتاب بالبيضاء طبعه مرة ثانية، في جزأين مع زيادة وتنقيحات عديدة (11).

2) «زبدة الأثر مما مضى من الخبر في القرن الثالث والرابع عشر». جعلته ذيلا لكتاب «نشر المثاني في أخبار أهل القرن الحادي عشر والثاني»، لمؤرخ فاس الشيخ محمد بن الطيب القادري المتوفى سنة 1187 هـ. وقد سرت على نسقه في ترتيب التراجم على تاريخ الوفيات. وابتدأت بسنة 1171 وانتهيت بسنة 1370 هـ، في أربعة أجزاء ضخام. وتناولت فيه بالترجمة 1800 شخصية مغربية. ولا زال الكتاب في مسودته.

3) «اتحاف المطالع بوفيات أهل القرن الثالث عشر والرابع». وهو اختصار لزبدة الأثر، وكالذيل على «التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار أعيان المائة الحادية و(الثانية) عشر»، للشيخ القادري المذكور. في مجلد

8) ثم عين بعد ذلك في معهد الفتيات لإصلاح خزانتها، ثم استدعي إلى الرباط لمراجعة بعض الوثائق بالقصر الملكي، ثم عين بمعهد العلوم الاجتماعية، وأخيرا بالخزانة العامة، ثم أحيل على التقاعد فعاد إلى فاس حيث عاود الاشتغال بالتوثيق العدلي إلى حين وفاته.

9) ورد في الطرة ما يلي = «كالعلامة المؤرخ صاحب معجم المؤلفين، الأستاذ كحالة».

10) وذلك سنة 1950.

11) طبع جـ 1 سنة 1960، جـ 2 سنة 1965.

واحد. وسيقدم للطبع إن شاء الله (12).

4) ذيل اتحاف المطالع. ابتدأت فيه من أول سنة 1371 هـ، وما زال العمل فيه مستمرا إلى الآن. ذكرت فيه تاريخ الرجال والوقائع والأحداث والأهوال التي تعرض لها المغرب أيام الأزمة الاستعمارية الأخيرة، ولم أترك (شاذة) ولا (فاذة) إلا اقتنصتها وأحللتها مكانها اللائق بها بنزاهة قصد وإنصاف في القول والحكم. وهو يبلغ (مجلدا).

5) «إزالة الالتباس عن عائلات سكان مدينة فاس»،

12) وقد أخبرت دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر أنها عازمة على نشره ونشر ذيله. (مقدمة الدكتور محمد حجي لتحقيقه لنشر المثاني، للقادري. جـ 1، ص 4). ومنه نسخة مضروبة على الآلة الكاتبة بالخزانة الحسنية تحت رقم 10651.
(د. محمد المنوني، صداقة أربعين سنة مع مؤرخ فاس عبد السلام ابن سودة، المناهل ع 20).

13) بلغ به بعد ذلك ما يناهز 4000 أسرة، وخرجه على الآلة الكاتبة في جزءين، ومنه نسخة بالخزانة الحسنية تحت 10652. (د. محمد المنوني، صداقة أربعين سنة، المناهل ع 20).

14) وصل بهم بعد ذلك إلى 230، وفرغ من جمعها سنة 1376 هـ وسماها «سل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال».

15) وصل بعدد الأمثال بعد ذلك إلى ما يقرب من 20.000، وهي في جزءين، منها نسخة بالخزانة الحسنية تحت رقم 10653. (د. محمد المنوني، صداقة أربعين سنة، المناهل ع 20).

16) وله بالإضافة إلى ما تقدم مؤلفات أخرها لعله أنجزها فيما بعد أو كان يشتغل بتحريرها ولم يشر إليها في رسالته، ومنها =
- قضاة فاس، في مجلدين.
- مجموعة من خطط فاس القديمة والجديدة وما إليها.
- لقطات وسقطات من علامات عدول وقضاة.
- تراثنا المغربي حول نزول القرآن الكريم.
- لب الغيبة إلى مكة وطيبة، وهي رحلة حجازية، قام بها سنة 1383 هـ.
- الزهر من اكمامه في الشطرنج وأحكامه.
- ذيل دليل مؤرخ المغرب الأقصى، وقد سماه «تنوير السبيل إلى الدليل».
- باهدراز، وهي رواية أقامها على عادات أهل فاس العريقة، وأراد إعطاء فكرة من خلالها عن هذه المدينة.
- ترتيب فهرس المهدي بن الطالب ابن سودة.
- جمع ديوان أبي حفص عمر الفاسي المتوفى سنة 1188 هـ.
- ترتيب كتاب الأنباء المنشودة في أخبار بني سودة، للعابد ابن سودة.
- إخراج كتاب الطب العربي في عصور دول المغرب الأقصى، لمحمد العبدي الكانوني.
- مقالات مختلفة، نشرت في مجلات مغربية متعددة.

جمعت فيه أكثر من 1700 أسرة استوطنت فاسا، وكان لها بها ذكر سواء كانت لا زالت موجودة أو اضمحلت ولم يبق إلا اسمها. ذاكرا بعض أفراد العلم أو السياسة أو الجاه، مع ذكر كثير من أعلام التاريخ (معالم) الآثار التي تنسب إلى كل أسرة إلى الآن. وهو في مجلد (13).

6) الفهرسة، جمعت فيها تراجم الأشياخ والمفيدين الذين أخذت عنهم أو اقتبست من أنوارهم، وهم أكثر من مائة وستين رجلا، في مجلد (14).

7) أمثال أهل فاس وما إليها، جمعت فيه ما يقرب من أربعة آلاف مثل يستعملها أهل فاس سواء باللغة الدارجة أو الفصحى، مع شرح البعض منها إن كان استعماله في معنى بعيد عن لفظه. ولا زلت أعمل فيه إلى الآن (15).

وهناك عدة أبحاث ومقالات وموضوعات ما زلت أشغل نفسي بتحريرها وتتبع مصادرها ومواردها (16).

وأملي أن يوفقني الله لخدمة هذا البلد الأمين بما أخرج من مؤلفات وما (أذيعه) من أبحاث تفيد الباحث وتروي ظمأه من أمجاد الآباء والأجداد. والسلام.

تقديم وتعليق : أحمد العراقي



المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

أربعون حديثا
في اصطناع المعروف

جمع
زكي الدين أبي محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري
المتوفى سنة [illegible] هـ

شرح وتعليق
أبي عبد الله محمد بن إبراهيم السلي
المتوفى سنة [illegible] هـ

تلخيص
أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي
المتوفى سنة [illegible] هـ

علق عليه وترجم للمؤلفين
محمد بن تاويت الطنجي

1405 هـ - 1985 م

اشارات حول

الإشعاع الفكري والحضاري

لمدينة تطوان

-3-

للأستاذ محمد العربي الشاوش

اشتمل القسم 2 من الموضوع المنشور في العدد 229 من هذه المجلة على المعلومات التالية حول الموقف الجهادي لمدينة تطوان في القرن السادس عشر وما بعده، وعلى التعريف ببعض الآثار البارزة والاعلام اللامعة في المدينة، ونبذة عن الموقف الإنساني للدولة المغربية من يهود تطوان، وإشارات عن الحركة العلمية والثقافية بالمدينة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، مع استطرادات لا تخلو من فائدة، وفيما يلي يواصل الكاتب حديثه عن تطوان في القرن التاسع عشر في إشارات تبرز أحداث هذا القرن ومنها حرب تطوان وما تلاها من صحوة فكرية مع ذكر بعض الاعلام النابهة في المدينة.

(18)

وفي القرن التاسع عشر ظهرت على مسرح الحكم والإدارة في تطوان شخصية القائد محمد بن الحاج عبد الرحمان اشعاش المتوفى سنة 1845 وفي أيامه زار السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام مدينة تطوان سنة 1827 فأمر القائد ببناء (برج الاسقالة) بباب العقلة، مع إصلاح بقية أبراج المدينة وتحصينها، ومازال هذا البرج قائما في مكانه يحكى بلأجيال مع (برج القصبة) الأول قصة جهاد هذا الثغر وصموده وحضارته التاريخية الأصيلة.

وفي عهد القائد اشعاش المذكور وفدت على المدينة عدة عائلات جزائرية بعضها من أصل تركي عثماني، هاجرت إلى تطوان بعد احتلال فرانسا للجزائر العثمانية في 5 يوليوز سنة 1830 (14 محرم 1246) فأصدر السلطان مولاي عبد الرحمان أوامره السامية إلى القائد المذكور باستقبال المهاجرين بالترحيب والإكرام، وإدماجهم في المجتمع التطواني ـ كما أدمجت العائلات الجزائرية المهاجرة إلى فاس في المجتمع الفاسي ـ كما أمره بإلحاقهم بالأعمال المدنية والعسكرية التي يحسنونها، كما في

الرسالة السلطانية المؤرخة في 12 ربيع الأول سنة 1246 (31 غشت 1830) والرسالة المؤرخة في 3 جمادى الأولى سنة 1246 (20 أكتوبر 1830) وقد نفذت الأوامر السلطانية بكل دقة، وانتفعت مدينة تطوان بمواهب وحضارة الجزائريين المهاجرين، وانصهرت الحضارة الجزائرية العثمانية في الحضارة التطوانية الأندلسية، ونشأت عنهما حضارة تطوانية خاصة تبلورت في أنماط التقاليد والاعراف الاجتماعية والأساليب الفكرية والفنية التي تميزت بها تطوان أجيالا وأجيالا.

كما ظهر أيضا القائد الحاج عبد القادر بن محمد اشعاش الذي كان من أبرز ولاة تطوان في القرن الثالث عشر الهجري والتاسع عشر الميلادي، وقد عهد إليه السلطان مولاي عبد الرحمان بمهمات ديبلوماسية منها سفارته إلى فرانسا لتحسين العلاقات بين الدولتين المغربية والفرنسية.

ولكنه تعرض لنكبة مشهورة حيث عزله السلطان لما بلغه من استبداده واستغلال نفوذه. ولم يقف الأمر عند العزل فقط، بل تعداه إلى إجراءات قانونية تعرف في الوقت الحاضر بعبارة «من أين لك هذا؟!» وكان هذا الحدث سنة 1850.

ولكن الحاج عبد القادر عاد إلى ولاية تطوان سنة 1862 في عهد أمير المومنين محمد الرابع. وكانت ولايته هذه برسم إصلاح المدينة لما يتصف به من حزم ومقدرة، وكانت المدينة قد تعرضت لنكبة بالغة أثناء حرب تطوان المعروفة بحرب الستين، ولكن الملك اضطر مرة أخرى إلى عزله سنة 1864 ونقله إلى مكناس حيث قضى نحبه فيها، وكان هذا الإجراء بطلب من فرانسا التي هددت بقطع العلاقات مع المغرب إذا لم يقع عزل القائد اشعاش وإبعاده. ونلاحظ أن هذا الموقف الفرنسي المتصلب، وانصياع المغرب له، كان من البوادر الخطيرة للتدخل الأجنبي في البلاد منذ القرن التاسع عشر.

(19)

وكانت حرب تطوان التي أعلنتها إسبانيا على المغرب بدعوى اعتداء قبيلة أنجرة على حدود سبتة، بداية للغزو الاستعماري للبلاد من أقرب نقطة لسبتة المحتلة، وهي مدينة تطوان التي وقعت تحت الاحتلال الإسباني يوم 6 فبراير 1860 (13 رجب 1276) بقيادة الجنرال «ليوبولدو أودونيل» بعد معارك عنيفة بين الجيش الإسباني والمجاهدين المغاربة الذين قاوموا هذا العدوان إلى الرمق الأخير بقيادة الأمير مولاي العباس بن عبد الرحمان أخي جلالة الملك محمد الرابع.

وكان ممن حضر حرب تطوان جدنا الكبير المجاهد محمد بن مصطفى الشاوش المتوفى سنة 1876 دفين الزاوية الريسونية بتطوان، كان من المجاهدين المرابطين في برج القصبة، وقد أخبر بأن البرج لم يكن مجهزا بالعتاد اللازم والمناسب للدفاع، ومع ذلك واصل المجاهدون عملهم بوسائلهم الخاصة، إلى أن وقع الاحتلال تحت ضغط القوات الإسبانية المجهزة تجهيزا مناسبا لعصر الثورة الصناعية التي اكتسحت أوربا منذ أوائل القرن التاسع عشر. وبفضل المرونة السياسية والديبلوماسية التي اتسم بها أمير المومنين محمد الرابع، تحررت تطوان من الاحتلال العسكري الإسباني بعد مفاوضات ناجحة بين الأمير مولاي العباس خليفة الملك والجنرال أو دونيل قائد الحملة الإسبانية، وتم جلاء جيش الاحتلال عن تطوان في يوم 10 مايو سنة 1862 (11 ذى القعدة 1278) بعد تسليم مقاليد المدينة إلى عاملها الجديد القائد الحاج عبد القادر اشعاش السابق الذكر، ومما يلفت النظر أن جيش الاحتلال المنسحب خلف ثروة كبيرة من الخشب قال بأن ملكة إسبانيا أسابيل الثالثة انعمت به على ضعفاء المدينة، فاقترح العامل على جلالة الملك محمد الرابع أن يستعمل الخشب المذكور في إصلاح ممتلكات الأحباس. فأجاب الملك : بأننا لا نرضاه لمساجدنا، وأنه لا يصرف عليها إلا الطيب. وأمر بتوزيع الخشب على ضعفاء المدينة العاجزين عن إصلاح ما تهدم من بيوتهم في الحرب.

ورغما عن الأثار السيئة النفسية والمادية للاحتلال الإسباني لتطوان مدة ثمانية وعشرين شهرا، فقد كان درسا بليغا، وحدثا هاما عسكريا ومدنيا، لو استطاع الشعب المغربي أن ينتفع منه في وقته لما صنفه التاريخ في قائمة الشعوب المتخلفة. فقد حاول الإسبانيون أن يستفيدوا من الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798 بأحداث إصلاحات مختلفة، وإنشاء أول مطبعة في تطوان، وإصدار صحيفتين

باللغة الإسبانية هما « EL Eco de Tetuan » أي (صدى تطوان) و« EL Noticiero de Tetuan » أي (مخبر تطوان) تماما كما فعل نابليون في مصر بإصدار صحيفتين باللغة الفرنسية أثناء الاحتلال هما « Le courrier d'Egypte » أي (بريد مصر) « La Décade Egyptienne » أي (العشرية المصرية) لكن السلوك الفرنسي في مصر كان سلوكا إنسانيا مع التجاوز عن الغطرسة الاستعمارية طبعا. أما السلوك الإسباني في تطوان أثناء الاحتلال فقد كان سلوكا صليبيا محضا تجلى في أهانة المقدسات الإسلامية والعبث بالمساجد والزوايا حتى أنهم حولوا المسجد الأعظم إلى كنيسة كاثوليكية، كما حولوا زاوية الشيخ الصالح سيدي عبد الله الحاج البقالي المشار إليه في رجال القرن الثامن عشر إلى كنيسة أخرى أطلقوا عليها « Nuestra Señora de las Victorias » أي (سيدتنا صاحبة الانتصارات) وبقيت الزاوية كنيسة إلى أن تم الجلاء عن المدينة كما تقدم، وهذا السلوك الصليبي المتطرف هو الذي دفع بأهل تطوان إلى مقاطعة الإسبانيين والأعراض عن حضارتهم وإصلاحاتهم في ذلك الوقت، إذ كل إصلاح يقوم على حساب القهر والهيمنة وإهانة مقدسات الأمة وشعورها فلا خير فيه ولا بقاء له. وقد تفهم أمير المومنين محمد الرابع موقف أهل تطوان، فدعاهم بعد الجلاء إلى القيام على ساق الجد والتعاون لإعادة المدينة إلى حسنها ونضارتها وحضارتها الأصلية كما تقدم في رسالته الموخرة في 14 شوال عام 1278 هـ (أبريل 1862) وقد بذل جلالته بسخاء من أجل تحقيق هذا الهدف الإنساني النبيل.

(20)

وقد برزت في هذا العصر (القرن التاسع عشر) شخصيات تطوانية لامعة في المجالات الفكرية والعلمية والديبلوماسية نذكر منهم حسب تاريخ وفاتهم وعلى سبيل المثال لا الحصر :

□ الشيخ العلامة المتصوف أبو العباس سيدي أحمد بن محمد ابن عجيبة المتوفى سنة 1809 ودفن في قرية الزبج من قبيلة أنجرة قرب مدينة تطوان. وله عدة مؤلفات منها : (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد) و(أزهار البستان في طبقات العلماء والصلحاء والأعيان) و(معراج التشوف إلى حقائق التصوف) وشروح على (التصلية المشيشية) للعارف بالله تعالى الشيخ الإمام المولى عبد السلام بن مشيش المتوفى سنة 1225م. وعلى قصيدتي (البردة، والهمزية) للإمام البوصيري المتوفى سنة 1296م. وعلى (حكم ابن عطاء الله) للإمام العارف بالله الشيخ أحمد بن محمد ابن عطاء الله الاسكندري المتوفى سنة 1308م. وغير ذلك من المؤلفات النفيسة للشيخ ابن عجيبة الذي وصف بأنه «كان صدرا من صدور أئمة الدين، وكبيرا من كبراء الأولياء المهتدين، وقدوة بين أفراد العلماء، الزاهدين» ولنا إشارات أخرى حول هذا الشيخ فيما سيأتي.

□ ومنهم الشيخ العلامة المفتي عبد الرحمان بن محمد الحائك المتوفى عام 1822 وقد تولى قضاء تطوان ثلاث مرات. ومارس تدريس العلوم الإسلامية كالتغير والحديث والفقه والنحو. وله مؤلفات منها : أعراب مختصر الشيخ خليل، وحاشية على تفسير الجلالين، وحاشية على شرح الإمام المواق لمختصر خليل، وحاشية على الفية ابن مالك، وكلها تدل على رسوخه في مجالات العلوم الإسلامية.

□ ومنهم الفقيه الأديب عبد السلام بن أحمد سكيرج المتوفى عام 1834 وكان يمارس مهمة العدالة زيادة على اهتماماته التاريخية التي جعلت منه أقدم مؤرخ لمدينة تطوان حيث كتب مؤلفه الفريد في تاريخ المدينة سماه : (نزهة الإخوان، وسلوة الأحزاب، فمن الأخبار الواردة في بناء تطوان، ومن حكم فيها وتقرر من الأعيان) وهو من الآثار البارزة في الفكر الحضري بالمدينة في القرن التاسع عشر.

□ ومنهم الشيخ الكبير أبو عبد الله سيدي محمد بن محمد الحراق الحسني المتوفى سنة 1845 وصفه الأستاذ محمد داود في تاريخه بأنه كان بحرا زاخرا في العلم، وجبلا راسخا في المعرفة، وإماما في علوم الشريعة والأدب والتصوف، وفي هذا الوصف ما بشعر بجلال مقامه العلمي والفكري في وقته، لكن الشيخ الحراق مال بكليته إلى التصوف، واعتمد فيه طريقة شيخه أبي عبد الله سيدي محمد العربي بن أحمد الدرقاوي المتوفى سنة 1823مؤسس الطريقة الدرقاوية الشاذلية، فصار الشيخ الحراق عميدا

للطريقة الدرقاوية بتطوان، وأسس الزاوية الحراقية حيث يوجد ضريحه المنور. وللزاوية اتباع وفروع في سبتة وطنجة وفاس، والشيخ الحراق شاعر مبدع سلك في نظمه طريقة المتصوف الشهير عمر بن علي المعروف بابن الفارض المتوفى سنة 1235م. ولعل الظروف النفسية والاجتماعية التي عاشها الشيخ الحراق في القرن التاسع عشر تشبه أو تقارب الظروف التي عاشها ابن الفارض في القاهرة على عهد الدولة الأيوبية التي اشتهرت بمواقفها الجهادية في الحروب الصليبية، وللحراق ديوان ممتع مشهور عند الأدباء.

□ ومنهم الديبلوماسي محمد بن عبد الله الخطيب المتوفى سنة 1871 وقد شارك في مفاوضات الصلح بين المغرب وإسبانيا في حرب تطوان السابقة الذكر، وكان وقتئذ وزيرا للشؤون الخارجيةالذي كان يمارس مهمته باسم النائب، وكان مقر هذه الوظيفة في مدينة طنجة.

□ ومنهم الشيخ الكبير سيد عبد السلام بن علي ابن ريسون المتوفى عام 1881 وقد قام بدور روحي كبير في تقوية معنويات المجاهدين في حرب تطوان. كما كان له دور كبير كذلك في إشاعة روح الثقة والاطمئنان بين سكان المدينة بعد الصلح والجلاء. أما دوره في إنعاش النشاط الفكري والحضاري وبعث الروح الفنية في تطوان بأساليبه التربوية التي تمثل مدرسة صوفية راقية شكلا ومضمونا تتجلى في جلسات الذكر وتلاوة السيرة النبوية، أو في جلسات الطرب الأندلسي الأصيل والأمداح النبوية الشريفة، هذا الدور البارز في حياة الشيخ يحتاج إلى عرض طويل لخصناه في محاضرة خاصة شاركنا بها في الاحتفال بالذكرى المائوية لوفاة الشيخ رضي الله عنه نشرت في كتاب الذكرى، وفي مجلة دعوة الحق بعددها الصادر في شهر يونيو سنة 1980. وضريح الشيخ مشهور في الزاوية الريسونية بتطوان حيث يرقد فيها أيضا والده المنعم الشيخ العالم المتصوف سيد علي ابن ريسون المتوفى سنة 1814 مؤسس الزاوية المذكورة.

□ ولا يذكر الشيخ سيدي عبد السلام ابن ريسون بدون ذكر زوجته الصالحة السيدة فاطمة بنت المجاهد محمد الشاوش التي شاركت زوجها في ترسيخ دعائم الزاوية الريسونية والمساهمة الفعالة في اضفاء المظهر الارستقراطي على بيت الأمة التطوانية وهو بيتالسيد زوجها، بما كانت تتمتع به من ثقافة رفيعة وسلوك نبيل. وقد وصفها الأستاذ محمد داود في تاريخه بأنها كانت فريدة في الجمال وحسن الأخلاق مما جعلها تحتل مكانة السيدةالتطوانية الأولى في حياة زوجها وبعد وفاته. وقد تمتعت السيدة فاطمة بعطف ورعاية جلالة الملك الحسن الأول، تجلى ذلك في الرسائل المولوية التي تلقتها منجلالته، وفي الاستقبال الخاص الذي شرفها به عند زيارة جلالته لمدينة تطوان عام 1889 ولا ريب أن حضارة أمة ما، تتأثر إلى حد بعيد بثقافة نسائها وسلوكهن الحضاري الأصيل، وذلك ما اثبتته سيدة الشريف التي التحقت بجوار ربها عام 1890 ودفنت بالزاوية الريسونية قرب ضريح زوجها.

□ ومنهم الفقيه الأديب الأستاذ الكاتب الشريف النبيل سيدي مفضل بن محمد أفيلال المتوفى سنة 1886 وهو من الأدباء اللامعين والكتاب البارزين في عصره، وله آثار شعرية ونثرية ممتعة جمعها الأستاذ داود في تاريخ تطوان، وهي تدل على غزاره مادته وسعة أفقه الأدبي المتسم بالمرح والتفتح، وبالحكمة وبعد النظر كذلك، ومن آثاره قصيدة يتشوق فيها إلى تطوان بعد الهجرة إلى شفشاون في حرب الستين، وأرجوزة طويلة سجل فيها انطباعاته في رحلة إلى مكناس لحضور بيعة السلطان محمد الرابع بن عبد الرحمان سماها (مضحك العبوس ومجلي الهم ونكد البوسي) وهي على نمط قصة لطيفة أشار إليها عبد السلام ابن سودة في : دليل مؤرخ المغرب.

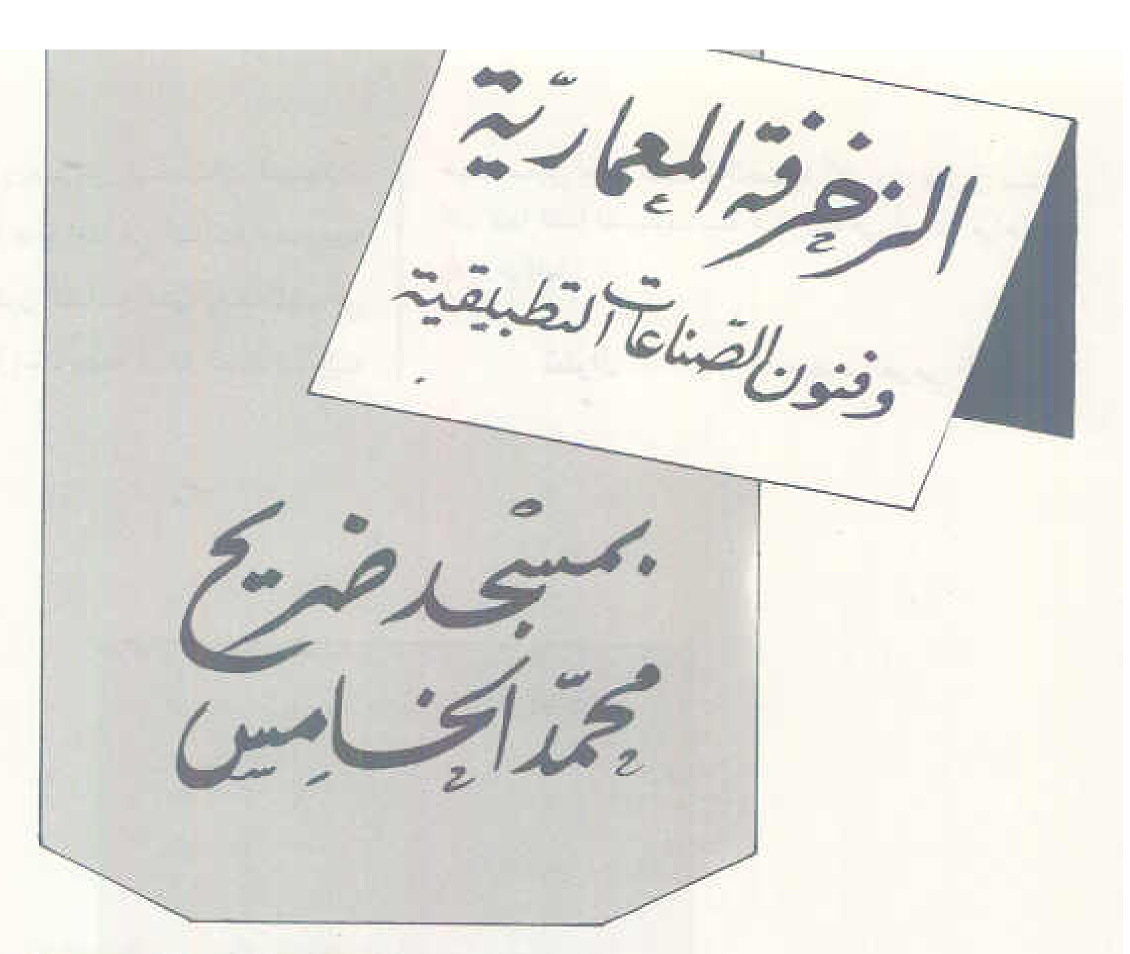
□ ومنهم الديبلوماسي الكبير الحاج عبد الكريم بريشة المتوفى سنة 1897 الذي قام بمهمات ديبلوماسية خطيرة وخاصة في مؤتمر مدريد سنة 1880 وفي سفارته بين المغرب وإسبانيا في قضايا سياسية بالغة الأهمية، ودلت نتائج أعماله على مقدرة وكفاءة نادرة مع ما كان يتمتع به من مرونة وذكاء وقاد، زيادة على ما اتصف به من الديانة ودماثة الأخلاق.

□ ومنهم السياسي اللامع النائب الحاج محمد بن الحاج العربي الطريسي المتوفى سنة 1908 نائب السلطان

في الشؤون الخارجية، ويعتبر من الشخصيات التطوانية البارزة التي لعبت أدوارا هامة جدا في السياسة الخارجية المغربية في غضون القرن التاسع عشر. وقد تقلب في وظائف سامية كان آخرها إسناد مهمة النيابة السلطانية إليه حيث مارس هذه المهمة الخطيرة أكثر من عشرين سنة كان فيها قطبا للديبلوماسية المغربية في أصعب مراحلها وأدق مواقفها.

تطوان : محمد العربي الشاوش

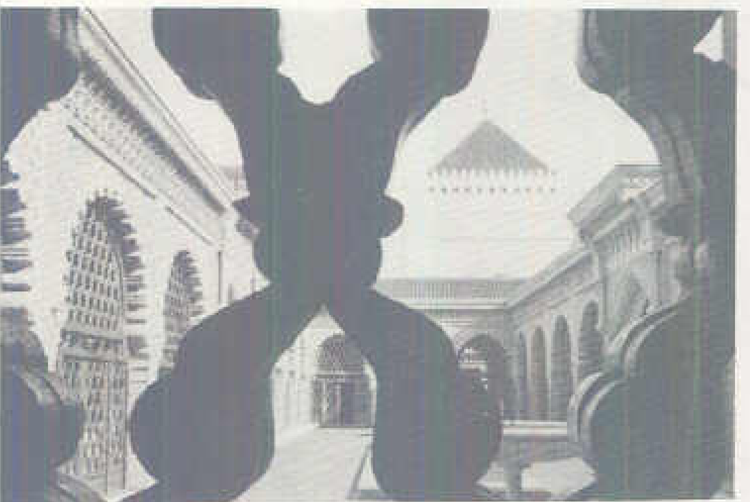




الزخرفة المعمارية وفنون الصناعات التطبيقية

بمسجد ضريح محمد الخامس

3



للدكتور عثمان إسماعيل

ثانيا : الرخام :

وإذا كان الرخام يلعب هنا دورا ممتازا غير أنه لا يبلغ أهمية فنون الرخام بمساجد المماليك المعروفة بالقاهرة، ذلك أن الأرضيات والجدران هناك تكون وقفا على أشغال الرخام بينما تتنوع أساليب الزخرفة المعمارية بالمغرب حيث يشارك الزليج والجص بالجدران الداخلية وينفرد الحجر بالجدران الخارجية.

ويمكن حصر مواضع الرخام داخل مسجد محمد الخامس في أعمدة المحراب الجانبية والداخلية ثم الأعمدة القائمة على جانبي المدخل الرئيسي المحوري بالواجهة الشمالية والمدخلين المماثلين شرقا وغربا، بالإضافة إلى خصتي الصحن الرئيسي وصهريجي الخصتين المذكورتين وأرضيات الصحن الرئيسي ورخام الصحون الجانبية. وفيما يتعلق بمواقع الرخام خارج البناء نشير إلى الخصات المنتصبة أمام الواجهة الرئيسية وصهاريجها وبقية الرخام خارج هذه الواجهة المطلة على صحن مسجد حسان العتيق.

الأعمدة الرخامية بجانبي وداخل المحراب :

يحف بفتحه المحراب مجموعة من ثلاثة أعمدة رخامية من كل من الجانبين ثم أربعة أعمدة أخرى توجد موزعة على جدران المحراب الداخلية وجميعها رخام أبيض اللون إيطالي الأصل ويبلغ مجموعها عشرة أعمدة متجانسة.

وقد تم اختيار الرخام الإيطالي لمؤهلات خاصة يتميز بها تتعلق بنقاء وخصوصية مادته وتفوق واتقان صناعته. لقد ثبتت سلامة ذلك الاختيار بعد أن أرسلت جميع تفاصيل الزخرفة والقياسات والمواصفات على نماذج مغربية من الجص وعادت جميع تلك العينات بذاتها منحوتة في الرخام أعمدة وقواعد وتيجان كاملة الصناعة والزخرفة حسب المواصفات والنماذج المطلوبة بحيث لم يبق إلا فن التذهيب الذي نفذ بكامله هنا بالمغرب في المواضع المقررة لذلك من قبل.

وتبعا لمصطلحات الصناعة التقليدية السائدة اليوم يبدأ العمود من أسفل بما يسمى (قاع) والقاع هو عبارة عن قاعدة العمود. ويلو (القاع) مباشرة (سارية) والسارية هي بدن العمود الأسطواني المرتفع، وفوق السارية تأتي مجموعة من ثلاث وحدات تعرف أوسطها باسم (رأس) وهو تاج العمود، وأسفل الرأس يوجد (عنق)، وفوق العنق توجد (لحية).

الأعمدة الرخامية بجانبي أبواب الواجهة الرئيسية :

يحف بالأبواب الثلاثة بالواجهة الشمالية للمسجد نماذج من الأعمدة الرخامية، فيحف بجانبي كل باب من الداخل عمود رخامي من نفس طراز وصناعة الأعمدة المشار إليها آنفا حول فتحة جوفة المحراب والموزعة بداخله مع فارق واحد أنها هنا بجانبي الأبواب الرئيسية أكبر حجما وأكثر غلظا وهو أمر طبيعي بسبب اختلاف الموقع والغرض.

وتبدأ هذه الأعمدة كما ذكرنا بالقاع وهو القاعدة وفوقه سارية وهي أسطوانة العمود أي بدنه ثم تبدأ المجموعة العليا وأولها (عنق الرأس) وتعرف زخرفته هذه باصطلاح (عنق الرأس بالمحنشة)، وفوق العنق تأتي (الرأس) وتعرف هنا باصطلاح (الرأس بالتوريق) وبعد ذلك نجد (اللحية).

الرخام بالصحن الرئيسي :

1 - خصتا الصحن : يتوسط الصحن الرئيسي صهريج مستطيل يوازي ضلعه الطويل جدار القبلة ويقابل الضلع القصير للصهريج من كل جهة خصة تتوسط صهريجا صغيرا قليل الغور. والصهريج الصغير يتكون من (16) ستة عشر ضلعا مفروشة بالرخام المغربي الملون (صنع الزليج) ما عدا الأبيض منه وهو الذي يكون (القطيب) فهو إيطالي وليس محليا. ويدور بالصهريج حزام من الرخام الأحمر المستورد من البرتغال حوله رخام (أكحل) يعني أسود وهو من صنع مغربي ومادة مغربية.

أما الخصة القائمة وسط الصهريج فهي من رخام أبيض بأسلوب يعرف في الصنعة باسم (خصة بالريشات)، والريشات هي الضلوع التي ينقسم إليها جم الخصة من الخارج بينما يسمى البدن الأسطواني الذي يحملها فوقالقاعدة باسم (العجلوج).

وقد افادني المعلم (بريك) في عين المكان أن أشغال الرخام في السقايات أو الخصص أو الأرضيات كان هو بصفته الفنان المغربي معلم صنعة الرخام بأشغال الضريح يقوم بمناقشتها مع المعلم محمد بن عبد الكريم (رحمه الله) المشرف العام على الأعمال الفنية ومع مهندس الضريح ثم يقدم عدة نماذج من تصيمه ليقع اختيار أحدها عند التنفيذ.

2 - أرضية الصحن الرئيسي : اتخذت أرضية الصحن الرئيسي لمسجد محمد الخامس من رخام أبيض (طلياني) بالقطيب والدرهم، وعلى هذا النحو نجد أن الصحن الرئيسي قد فرش بالرخام الأبيض المستورد بعد أن ألصق بانتظام بديع وتأليف معجز الصنعة غريب الاتقان رائع الترصيع رائق التركيب والرصف انعطفت حول وحداته الرئيسية البيضاء عناصر ملونة (بالقطيب والدرهم) وهو النوع المشهور في الصنعة المغربية منذ أيام المرينيين وقد أشرت إلى نماذج منه بكتبي عن شالة وحفائرها الأثرية وفنونها الزخرفية.

الرخام بأرضية الصحن الجانبي وخصتي الواجهة وصهاريجها والسقايات :

لقد فرشت أرضية كل منالصحتين الجانبيين بالرخام الأبيض وقد جعلت فواصل بالرخام الأسود بين المربعات

الرخامية الكبيرة القائمة على رأسها. وتقف أمام الشواف الأول شرق وغرب الواجهة الرئيسية خصة رخامية من الرخام الأبيض الضارب إلى السمرة وبوسط الخصة قوقعة أشعاعية مفتوحة لا على تتوسطها نافورةنحاسية، ويتكون جسم القوقعة من (14) أربعة عشر فصا وترتفع فوق قائم رخامي قصير أسفله قاعدة رخامية تتشكل من طابقين مثمنين بعدهما قاعدة مستديرة فوقها العمود القصير الحامل للقوقعة. والصهريج المحيط بالخصة يتكون من ثمانية فصوص وأرضيته رخام من نفس النوع وحول ذلك أطار رخام أسود يحيط بالمجموع، وبالإضافة إلى ذلك يوجد الرخام كحوض أسفل كل سقاية من سقايات الواجهة وهو حوض رخام أبيض حافته مشرشرة ومقسم خارجه إلى ضلوع إشعاعية بنفس الأسلوب.

ثالثا : الزليج :

يبرز فن الزليج بالمجد في دوره الطليعي التاريخي الذي احتله منذ عصر المرينيين بشهادة صاحب روض القرطاس حيما شرحت مفصلا بكتابي دراسات جديدة فيالفنون الإسلامية والنقوش العربية بالمغرب الأقصى. ونرى الزليج بمسجد محمد الخامس في جميع حوائط وسواري بيت الصلاة وفي جدار قبلة المسجد بصفة خاصةكما نراه في صهريج الصحن الرئيسي وجدران الصحون الجانبية بين المسجد والضريح من جهة وبينه وبين المتحف الوطني من الجهة الأخرى.

1 - زليج الحوائط والسواري :

تعرف الصناعة التقليدية هذا الأسلوب من الترصيح بالزليج في حوائط وسواري بيت الصلاة باسم (صنعة شعاير) وتسود بهذه الصنعة هنا الألوان الأبيض والأزرق المعروف في فن الزليج باسم (برايا) ثم اللون الأصفر المسمى (خابوري).

وتجدر أثناء دراسة الروافع ودراسة العمارة بالمجد الإشارة إلى أن سواري المسجد الحاملة للعقود ليست أعمدة رخامية مستديرة وإنما هي دعائم مربعة المقطع (50 × 50 سنتيمترا) شيدت من الملاط المسلح وكسيت بالزليج وهذا هو تفصيل زخرفة السارية بالزليج : يبدأ العنصر الأول منأسفل بدون قاعدة وإنما بقم أسفل يسمى (الجنار) في موضع قاعدة العمود، وتكسو بدون السارية حلة من (صنعة شعاير) وهي المحلاة باللونين الأزرق والأبيض كما مر بناء ويعلو الإطار العام المحيط بكسوة بدن السارية زخرفة تعرف باسم (الضفيرة) وتأتي فوق الضفيرة (شرافة) فوقها (حزام علوي) يختم مراحل صنحة الزليج بالسارية من الأرض إلى بداية أشغال الجص التي تغطيموضع التاج الحامل لرجل العقد.

2 - زليج جوفة وواجهة المحراب :

وعلى الرغم من أهمية الدور الكبير الذي يلعبه فن الزليج في جنبات ووسط بيت الصلاة، فإن الصنعة التي ظهرت في جوفة المحراب وواجته كانت أحفل، بل أن صنعة زليج المحراب المذكورة قد طغت بروعتها على بقية أشغال الزليج بمجموع أركان المسجد.

لقد تفنن المرحوم المعلم أحمد العلوي رئيس تعاونية الزليج بمدينة فاس في إبداع تلك النماذج المنسجمة التي جاءت منمقة مرحلة تلو مرحلة تلو مرحلة من الأرض إلى بداية أشغال الجص الموجود بجوفة المحراب بنفس ارتفاع نظيرتها بجدار القبلة.

ونظرا لتراجع كتلة المحراب وملحقاته عن مستوى حائط القبلة لأسباب تتعلق بالتخطيط والهندسة العمارية لملحقات المحراب في التقليد المغربي، لهذا نجد أن زخارف المحراب الداخلية بجوفته ترتبط ارتباطا عضويا مع واجهة المحراب المعمارية من كل من الجانبين بقدر المساحة، التي تشغل اتساع بلاط المحراب، وهكذا أصبح أمامنا ثلاث وحدات واضحة وهي : جوفة المحراب محور التخطيط والبناء ثم كتلة من كل جانب تشكلان مع كتلة المحراب تصميما معماريا وزخرفيا واحدا يتصدر البلاط المحوري وهو بلاط المحراب.

وتعرف صنعة الزليج داخل جوفة المحراب في الصنعة المغربية باسم (معشر بالقطيب مقوم على ثلاثة) يعلوها (ضفيرة) فوقها كتابة ثم شريدا من كتابة أخرى (توريق مؤلف) إلى أن يتوج ذلك كله (شرافة) عليا أخيرة.

وهذا النظام نفسه يستمر بواجهتي المحراب الجانبتين على نفس النسق والصنحة والألوان بحيث يبقى الاختلاف

الوحيد بدخلة المحراب المسطح الذي يحف بالمحراب الرئيسي من كل جانب، وهذه الدخلة التي تمثل المحراب المسطح بكل من جانبي المحراب المجوف قد غشيت مساحتها بزليج من الصنعة المعروفة باسم (إثني عشرى بالقطيب).

3 - زليج الصحن الجانبي بين المسجد والضريح :

تتفق كسوة حائط الضريح المطلة على الصحن الجانبي وكسوة حائط بيت الصلاة في وجود (حزام مثمن بلا قطيب).

أما السقاية الموجودة بالجانب الضيق لمستطيل ذلك الصحن فقد جعلت جوفتها من زليج (معشر بلا قطيب)، في حين جعلت السقاية الأخرى وهي الصغرى الجانبية (معشر بلا قطيب مقطوع بالزقاق) ويستمر الحزام العلوي (إثني عشرى بالقطيب).

وبالنسبة للتصميم العام لزخارف الحائط الشمالي ونظيره الجنوبي بالصحن الجانبي نجد بالوسط عقدا كبيرا حوله عقد من كل جانب أصغر مساحة وقد غطى الزليج بتراكيبه الهندسية وألوانه المتعددة خلفيات العقود والمساحات المحيطة بها بل أن السواري الفاصلة بين العقود جعلت كلها من الزليج كذلك، وإذا تخطينا شريط الحجر المزين بزخارف مضفرة أعلى عقود الزليج نصل إلى شريط أعلى من الزليج هو الآخر.

ولعلها على غير العادة تبدو ظاهرة الإطار الزخرفي (إطار الزليج) هنا جديدة وذات ثراء زخرفي معماري كبير حيث يدور إطار مزلج بجميع وحدات الواجهة تتعدد أشكاله الهندسية وفنون التسطير من خلاله بدون قطيب.

وما دمنا بصدد زليج الصحن الداخلي نذكر بمثال آخر من الزليج يدور بكل من خصتي الصحن الرئيسي صانعا أرضية متعددة الألوان بالقطيب.

4 - زليج السقايات بالواجهة الرئيسية :

مر بنا في دراسة فنون الحجر وجود سقايتين بالواجهة الرئيسية شرق وغرب الباب المحوري يفصل بين الباب وبين كل منها (شواف) وينطوي داخل القوس الحجري الكبير عقد من الزليج مزدوج مفصص نادر المثال نصف دائري يرتكز منبته من الجهتين على عنصر ثعباني (ملفوف) غريب الهيئة والتصميم يكاد يكون مرسوما في عكس الاتجاه المألوف. ويضم العقد الخرختة المزلج أرضية من الزليج بالقطيب، وقد استخدمت الألوان الأزرق والأخضر والقهوي في وحدات التركيب المعروف باسم (معشر بالقطيب) بينما استخدم اللون الأبيض للقطيب. وتدور بأرضية الوحدة الزخرفية الرئيسية بمجموع السقاية زخرفة معمارية عبارة عن حزام مضفر من مربعات ومعينات مفيدة بالقطيب. ويرتكز العنصر الأساسي بالجانبين على خد بتوريق مولف وهو كتلة مستطيلة (بدل السواري) يتوسطها حشوة من زليج مورق حوله إطار من زخرفة هندسية، هذا، وأعلى القوس الرئيسي يوجد توريق مولف بالزليج كبير المساحة يذكر بزخارف الموحدين والمرينيين وبالسقايتين الجانبيتين صنعة 24 بلا قطيب.

5 - زليج النقوش العربية :

وإذا كان الزليج يلعب دوره التاريخي في أساليب الزخرفة النباتية كالتوريق والهندسية كالتسطير ويتحاشى التشبيه بالخالق في عدم رسم الأشكال الآدمية والحيوانية، فإنه لا يغفل فن الكتابة العربية ويمنحنا مثالين في نقوش الزليج الكتابية بالمحراب، الأول عبارة عن شريط من الكتابة المولفة بالزليج يدور بجوفة المحراب وجانبيه بنص قرآني هو عبارة عن نقش بالخط الكوفي المورق تقرأ فيه ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا...**﴾، أما الثاني فهو طراز من الخط الكوفي المربع يدور بنفس الموقع من المحراب وتقرأ فيه عبارة (بركة محمد) مكررة.



● دراسة جديدة تربط بين العبقرية والاضطرابات العاطفية.

● بقلم: وليم بليلوك في (لوس انجليس) ● عن جان ليو ● ترجمة: أحمد عبد السلام البقالي ●

كان الشاعر (روبيرت لوويل Robert Lowel)، الذي توفي سنة 1977، يسمي انقباضه الجنوني «خللا بالمحرك». ومن الواضح أن علم النفس الحديث يوافقه على ذلك. فاضطرابات المزاج المعروفة بالانقباض الخبلي، أو الهوسي، وكذلك الانقباض المصحّي clinical depression (الذي يؤدي بصاحبه إلى المستشفى)، تعدّ أمراضا جدّية. إلا أن باحثة من (جامعة كاليفورنيا بلوس أنجليس ـ Ucla) أعادت كتابة جملة الشاعر (لوول) قائلة : إن اضطراب المزاج، إذا عبرنا عنه بأسلوب فني، فإنه ليس خللا بالمحرك، بل قد يكون المحرك بنفسه !

وتعتقد العالمة النفسانية (كي جيمسون) أن هناك دليلا قويا على وجود صلة بين العبقرية المبدعة، وبين الاضطرابات العاطفية. وتمثل جزءا من ذلك الدليل دراسة قامت بها لمدة اثني عشر شهرا (بأكسفورد) وفي (مستشفى سانت جورج بلندن)، وقد درست (جيمسون) سبعة وأربعين فنانا وكاتبا مبدعا بريطانيا بارزا. (التأهيل الكاتب للدراسة لابد أن يكون حاصلا على جائزة كبرى، أما الرسامون والنحاتون فلابد أن يكونوا أعضاء في الأكاديمية الملكية للفنون). وقد وجدت (جيمسون) أن ثمانية عشر من بين الجماعة كانوا قد دخلوا المستشفيات للعلاج من أضطراب

عاطفي أو عولجوا بـ (كاربونات الليثيوم lithium carbonate أو بصدمات كهربائية تحدث التشنج electroconvulsive. ورغم صغر حجم العينة المدروسة، فإن نسبة 38 ٪ من اضطراب المزاج داخل المجموعة كان أكثر منه بين أفراد الجمهور العادي بست مرات. ويعني هذا بالنسبة (لجيمسون) أن الاضطراب العاطفي ليس كارثة كبرى كما يعتقد الأطباء النفسانيون. فهي تقول : «اعتقد أن هذه الدراسة تبين بوضوح وإقناع أنه يمكن أن تكون هناك جوانب إيجابية للاضطراب المزاجي، وأهمها الإبداع».

والفكرة القائلة بأن الإبداع ربما كان نتيجة مرض نفسي لا تكاد تكون جديدة. فهي موضوع دائم الوجود في الثقافة الغربية، وقد طرقها في السنوات الأخيرة الكاتب (أرثر كوستلر) والطبيب النفساني (أفتوني سْطُوّر). وتعتقد (جيمسون) أن الانقباض الخبلي الذي يتميز بتأرجح المزاج ما بين قمم الابتهاج، وحضيض الغم، أكثر مردودية لمن يعانيه من الانقباض المصحي الذي لا تقاطعه نوبات الابتهاج. وتبدو لائحة (جيمسون) للشخصيات التاريخية المصابة بالانقباض الخبلي كمعجم لاسماء فنانين من الدرجة الأولى. فمن بينهم المؤلفون الموسيقيون (جورج فريديريك هاندل) و(هيكتور بيرْليوز) و(روبيرت شومان)، والشاعر الرسام (دانتي غابرييل روزيتي)، والكتاب (أُنوري دي بالزاك) و(فرجينيا وولف) و(جان راسكين) و(إيرنست هيمنغواي) و(سكوت فيتز جيرالد) و(تشارلز لاَمْ).

ودراسة (اكسفورد) هي طرف من بحث (جيمسون) في مرض الانقباض الخبلي، وهو كتاب تكتبه بالمشاركة مع (ف. ك. غودْوين)، الطبيب النفساني، ورئيس قسم البحث (بالمعهد الوطني للصحة العقلية في باثيسدا) بولاية (ماريلاند) بالولايات المتحدة. ومن ذلك الجانب تبدو الدراسة مخيبة للآمال؛ فمن بين 47 فنانا بريطانيا، ثلاثة فقط هم الذين كانوا مصابين بالانقباض الخبلي، وكلهم شعراء.

ولكن ذلك يتفق مع نظرية (جيمسون) القائلة بأن الشعر هو المهنة الممثَّلَةُ بعدد زائد عن اللزوم في سجلات الانقباض الخبلي.

تقول (جيمسون) إن (بايرون) و(شيللي) و(كولريدج) و(پو) و(جيرارد مانلي هوپكنز) كانوا جميعا مصابين بالانقباض الخبلي، وقد وصلت إلى نتائجها هذه بعد الانكباب على رسائل، ودراسات أخرى، وعلى أعمال الشعراء أنفسهم. وكذلك كان عدد من أصحاب الأسماء الكبرى في الشعر الأمريكي الحديث، مثل (هارت كْرِيْن) و(ثيودور روثك) و(ديلمور شوارتز) و(جان باريمان) و(روبيرت لوويل) و(آن سيكستون) و(سيلڤيا پلاثْ). وحتى القرن الثامن عشر الذي تقول عنه (جيمسون) إنه العصر الوحيد في تاريخ الغرب الذي لم يعان شعراؤه من اضطرابات داخلية، قد ساهم بشعراء مصابين بالانقباض الخبلي. تقول (جيمسون) : إن خمسة من بين واحد وعشرين من شعراء ذلك العصر المسجلين بـ (كتاب اكسفورد الجديد للشعر الإنجليزي من 1250 إلى 1950) كانوا مصابين بالانقباض الخبلي، ومنهم (ويليم كاوپر) و(طوماس تشاترتون). وتقول : إن الشعراء يستفيدون من تغيرات المزاج أكثر من الروائيين، «لأن لغة الشعر هي أقرب إلى مجرى الفكر البدائي والذُهان (1)، أو لأن طبيعة العمل المتواصل قد تكون مختلفة في هذين النوعين من الكتابة».

وتبارع (جيمسون) رئيسة (مصحة الاضطرابات العاطفية) في (جامعة كاليفورنيا بلوس أنجليس)، إلى القول بأن تأرجح المزاج ليس شرطا مسبقا للنجاح في الفنون. «ذلك أن أغلبية المبدعين لم يعانوا من الانقباض الخبلي. أنظر إلى (شيكسبير) : لا أعتقد أن أحدا ضبط عليه خللا نفسانيا».

وتضيف : «ومن جهة أخرى، إن اضطراب المزاج يمكن أن يستغله بعض الفنانين لتبرير سلوكهم الشائن.

---

1) الذهان أو الهُواس : اضطراب عقلي أساسي موصول يتسم باختلال الصلة بالواقع أو انقطاعها.

«فالشاعر (بايرون)، مثلا، استغله للإفلات من العقاب بعد اقتراف كل أنواع التصرفات التي كانت غير مقبولة من أي شخص «طبيعي» أو «عادي».

وكثير من الفنانين المصابين بهذه الاضطرابات كانوا يرفضون العلاج بحجة أنهم قد يضيعون قدرتهم الإبداعية بعد شفائهم من اضطرابهم العاطفي.

وتعتقد (جيمسون) أن هذا الرأي قد يكون معقولا. فكثير من المصابين بالانقباض الخبلي يشعرون، أثناء تحليقهم الإبداعي، بقدرة خارقة على الإبداع، وبشيق كبير، وحماس عظيم. والعلاج العادي للانقباض الخبلي، والذي هو (كربونات الليثيوم) يكفكف من غلواء كل من الانقباض والانتشاء معا. وكثير ممن يتعاطون هذا الدواء يشعرون بفتور الهمة، وبالحرمان من النشوة. ومع ذلك فكثير من الأطباء يختلفون مع (جيمسون) مشيرين إلى أنه لا توجد أدلة قاطعة، في هذا الجانب أو ذاك، على أن الإبداع يتأثر بتغير المزاج.

وقد وجدت (جيمسون) في دراستها أن 42 من 47 فنانا بريطانيا أخبروا بأنهم مروا بفترات من نشوة الإبداع دامت كل منها حوالي أسبوعين، قد قابلتها فترات مماثلة من اشتداد الانقباض الخبلي. وتقول: «تميزت تلك المراحل بزيادة في الحماس، والثقة بالنفس، وتسارع الاقترانات العقلية، والطلاقة في اللسان».

وتقول (جيمسون) إن التأرجحات العاطفية العنيفة هي، ببساطة، الثمن الذي يؤديه المبدع مقابل إبداعه. فقد كتب (هاندل) سيمفونية (المسيح) في أربعة وعشرين يوما أثناء نشوة جنونية. وتضيف: «إن المصابين بالانقباض الخبلي يمكن تشبيههم بسيّارات سباق إيطالية. أي كما لو أن للواحد منهم محركا متناهي الدقة، محركا من الدرجة الأولى، فيدور بسرعة هائلة ثم يصاب بعطب ويتحل انحلالا كاملا حينا من الزمن».

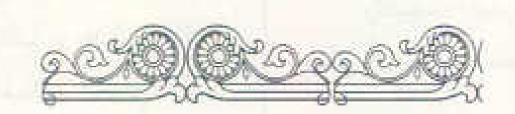
وتشير إلى أن الانقباض الخبلي لا يتنافى مع الإنتاج الكثير: فالعقل لا يفقد الوضوح، ومعاناة الانقباض تعطي عمقا للعمل الذي أنجز في فترة الانتشاء. وهي لا تستخفّ بالآلام التي يعانيها المبدعون، ولكنها تصرُّ بعنادٍ على تأكيد الجانب الإيجابي. وسوف تأخذ (جيمسون) خطوة في ذلك الاتجاه بالمساعدة على تنظيم حفل موسيقي لجوق (لوس أنجليس السمفوني) لا تعزَفُ فيه إلا أعمال الموسيقيين المصابين بالانقباض الخبلي.

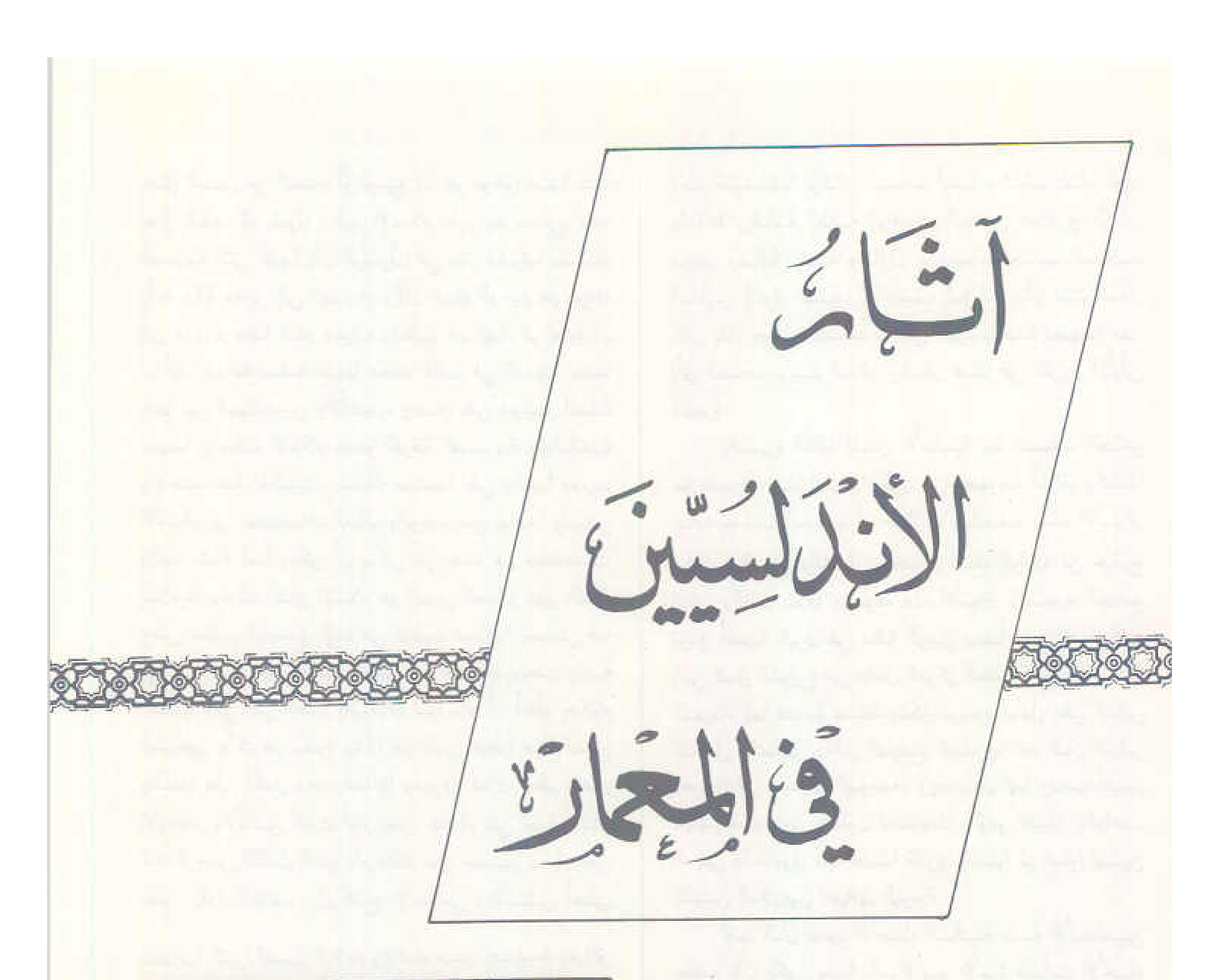
عن جان ليو

بقلم : ويليم بيلوك

ترجمة : أحمد عبد السلام البقالي

عن مقال صدر بمجلة (تايم) الأميريكية عدد 8 أكتوبر 1984، صفحة 58. عنوانه الأصلي The ups and downs of creativity.





آثار الأندلسيين في المعمار

للأستاذ محمد قشتيليو

من الكتب الحديثة التي أصدرها المعهد الأسباني العربي للثقافة التابع لوزارة الخارجية الأسبانية كتاب: «المدن الأسبانية الإسلامية» لمؤلفه: ليوبولدو طريس بالباس ويتكون الكتاب من جزءين من الحجم المتوسط يحتوي الأول على 434 صفحة وبعض صور أثرية وخرائط، ويتناول موضوع تصميم المدن أيام الحكم الإسلامي وما أدخله المسلمون على المدن القديمة من تعديل تتناسب والدين الإسلامي، وكذا التخطيطات الخاصة بالمرافق المدنية والدينية التي تناسب حياة المسلمين، أما الجزء الثاني فيحتوي على 250 صفحة وهو خاص بالتصميمات والبنايات ذات الصبغة العسكرية والتحصينات الخاصة بالدفاع عن المدن وهو أيضا محلى بصور أثرية وخرائط.

إن هذا الكتاب جدير بالاطلاع لما تضمنه من معلومات قيمة وفوائد جمة في ما توصل إليه علم البحث والتنقيب في ميدان علم الآثار بالأندلس، وما أخرجه علماء هذا الفن من نادر الأشياء فيما خلفه المسلمون في شبه جزيرة إيبريا من تراث. ويجمل بنا أن نأتي ببعض ما قيل في هذا الباب وما أورده المؤلف في الموضوع عن آثار الأندلسيين في فن المعمار.

يقول المؤلف: بمجرد ما دخل الإسلام إلى الإندلس عمل على البناء والتشييد وخلق مشاريع للعمران والاستقرار، لذا شرع في وضع التصميمات لهذا الاستقرار

بخلق المدن من العدم، أو توسيع ما هو موجود منها عند أهل البلد، ثم يقول : ظهر الإسلام على يد مدني، بعد الصعوبة التي لقيها (أي الرسول) في نشر دعوته بمسقط رأسه مكة هاجر إلى المدينة، وكان هدفه الوحيد هو عودته إلى مدينته مكة لنشر دعوته وتنظيم حياتها، ثم يضيف ـ أن أول جماعة مسلمة نظمها محمد كانت في المدينة عندما جمع بين المهاجرين والأنصار، وعمل على توثيق الصلة بينهما بواسطة الإسلام ومحو الفرقة العنصرية والطائفية والاجتماعية، فكونت بذلك مجتمعا بقي دائما مضرب الأمثال بين مجتمعات العالم والوحيد من نوعه، وسيبقى دائما مثالا لما يمكن أن يأتي من بعده من مجتمعات إسلامية. وهكذا كان الإسلام هو الدين الحافز على العمل وعلى تنظيم المجتمع الإسلامي تنظيما محكما يتعايش فيه الإنسان مع أخيه الإنسان، في أمن وسلام، وتحت راية العدل، وفي ظل الحب والوئام، لذا نرى أن أعظم حكام المسلمين وأكثرهم سطوة وشأنا هم الذين نهجوا هذا المنهج وطبقوه على أكمل وجه، فسادوا وعمروا، فنرى أعظم عصور الازدهار بالأندلس كانت أيام بعض خلفاء بني أمية أمثال عبد الرحمن الثالث الذي دام ملكه نحو خمسين سنة. نحن نعلم ـ يقول المؤلف ـ إن الفتح الإسلامي بالأندلس أعطى اهتماما كثيرا لتعمير البلاد، وإنشاء مدن جديدة ومرافق كثيرة لهذه المدن من دور وفنادق ومدارس ومستشفيات وخزانات كتب إلى غير ذلك ولكننا نريد أن نعلم ما هي المميزات الخاصة لهذه المدن عن غيرها من المدن التي كانت موجودة بالأندلس عند النصارى، وما هو الطابع الخاص الذي تمتاز به عن نظيرتها، وما هي المرافق التي لم توجد عند غيرها فأنشأتها هي وابتكرتها، وما شكلها الهندسي وتنظيمها وترميمها إلى غير ذلك. هذا هو ما نريد أن نبينه على قدر المستطاع بقدر ما نتوفر عليه من معلومات في هذا الباب. يقول ليوبولدو طريس بالباس في كتابه الآنف الذكر : إن مميزات المدن الإسلامية (يقصد مدن الأندلس) كان يتوسطها دائما المسجد الجامع، ولم يكن هذا المسجد يعتبر كمكان مقدس ديني فقط، بل كان مركزا أيضا للعدالة بيد القاضي ومساعديه، وفي الحقيقة كان هو بيت الأمة ففيه كانت تذاع وتعقد الأوامر السياسية ونشر تعليماتها، وكان المسجد أيضا مكانا لنشر العلم والثقافة وإقامة الطلبة الوافدين إليه من الخارج، فكان يؤدي رسالة علمية ومازال يؤديها. وبجانب المسجد المدارس لإيواء الطلبة، ثم يضيف المؤلف، بأن بيت المال كان يقام بجانب المسجد بل في دائرة واحدة تضمهما معا (أي المسجد وبيت المال) وكان هذا في القرون الأولى للهجرة.

والميزة الثانية للمدن الأندلسية بعد المسجد الجامع هو «السوق» هذا المرفق مكون من مجموعة أسواق وكانوا عادة بجانب المسجد أو حواليه، وملتصقة بهذه الأسواق دكاكين الصناع والتجار ومخازن للسلع الواردة من خارج البلد، وكانت علاقة مجموعة هذه الأسواق بالمسجد الجامع تؤدي أهمية كبرى في صلة الوصل بينها وبين المواصلات التي تصل الشوارع من داخل المركز الحضري لغاية أبواب المدينة، إنها هندسة منسقة بشكل مرسوم يسهل على الناس التعامل والتعايش داخل المجتمع الحضري، لقد كان الناس يعملون في حياتهم اليومية، ويصممون لها ونصب أعينهم شيئين ضروريين يعملون لحسابهما : وهو القيام بالواجب الديني والدنيوي معا فلهذا فكروا وصمموا ثم عملوا لهذين الشيئين الملازمين لحياتهم اليومية.

لقد كان تصميم الأحياء السكنية عند الأندلسيين يخضع لأن يكون بعيدا بالمرأة وسر الأسرة فكانت الأحياء السكنية دائما بعيدة عن أسواق المدينة والشوارع والأزقة ذات الحركة الدائبة، وكانوا لا يقيمون بالأحياء القديمة في المدن التي وجدوها قائمة عند النصارى عند دخولهم إلى الأندلس، لأن شوارعها فسيحة ومكشوفة بالنسبة لحياة المرأة المسلمة المحتجبة، إذ لا يتناسب مع الحشمة والوقار اللذين يحض عليهما الدين الإسلامي، فكانت أبنيتهم غالبا تشرف أبوابها على أزقة ضيقة وبعيدة عن الطرق التي يكثر فيها المارة.

هذه نظرة موجزة عن هذا الكتاب القيم ويا حبذا لو أخرج إلى لغة الضاد لتعم به الفائدة وخاصة على أبناء العروبة الذين هم في حاجة إلى إحياء تراث أجدادهم ليتذكروا ويتدبروا وفي ذلك ذكرى لمن كان له قلب.

الرباط : محمد قشتليو

مدرسة طه حسين

ومصطفى صادق الرافعي

ودورها في ازدهار الأدب العربي الحديث

للأستاذ عثمان بن خضراء

من حق الدكتور طه حسين ومصطفى صادق الرافعي بعد بلائهما الطويل الحسن بالأدب العربي، أن نتحدث عنهما بعض الحديث في هذه المجلة، مجلة دعوة الحق الغراء التي أخذت على نفسها أن تسير في تشجيع الأدب سيرة خاصة جديدة من حيث إتقان الإخراج وحسن التبويب وسلامة الذوق... ومن حق الأدب العربي بصفة عامة أن يديم الالتفات إلى رجاله وأبطاله الأبرار الذين عملوا على رفع لوائه في المشرق والمغرب، وطوفوا به يعلون من شأنه ويزيدون من قدره ويكشفون مخبآته أمام الغريب والقريب، غير هيابين ولا مستحيين، بل هم جد فخورين بهذا التراث الذي أبقاه لهم السلف ونشأه الخلف خير تنشئة وغير مهتمين «بالخصومات» العابرة ولا «بالعقم» الطارئ إبان الاستعمار ـ وقد أعادني إلى الموضوع الأستاذ البشير النظيفي بعد تعليقه القيم بجريدة الرسالة الغراء على «المعركة العلمية» بين الرافعي وطه حسين» التي كنت نشرتها بمجلة دعوة الحق الإسلامية في السنة الماضية.

فلنبدأ بعميد الأدب العربي... وحين نذكر الدكتور طه حسين، فإنما نذكر أيام الشباب الأولى... شباب الأدب، فقد كان هو والرافعي، والمازني والعقاد، وهيكل، والزيات،الدعامات التي قام عليها الأدب العربي الحديث، وكانت الكنانة المصدر الذي كانت تنبثق عنها هذه الأنوار البراقة اللامعة التي أنارت الطريق لكثير من الشباب العربي في كل الأقطار فاهتدوا بها فيما كتبوه ونظموه وحبروه من دراسات وروايات وقصص، وشعر وتراجم ومقالات ـ فالحديث عن طه حسين إذن مرتبط بهذه الفترة ـ والحديث عنه يذكرني بهذه الكتب التي نقرأها، والتي كانت اللبنات الأولى في المكتبة العربية الحديثة ـ ولو أردنا أن نستعرض هذه الكتب لذكرنا على سبيل المثال : «حديث الأربعاء» لطه حسين ـ و«أوراق الورد» لمصطفى صادق الرافعي ـ «وحصاد الهشيم» للمازني ـ و«زينب» لهيكل ـ و«آلام فرتر» للزيات ـ و«المراجعات» للعقاد...

كان طه حسين زميلا لأحمد حسن الزيات في الأزهر... أيام عظمة الأزهر ـ وقد عرف أحدهما الآخر ذات يوم... فقد كان مشايخ الأزهر يدرسون الدروس على الطريقة القديمة المحافظة التي تعتمد على الحفظ وقوة الذاكرة ـ واجتمع الطلاب في الصف مرة، وطرح الأستاذ سؤالا مفاجئا سكت له الطلاب واجمين وصمتوا محرجين، وألح الأستاذ في السؤال وكان يتناول نسب أحد الشعراء الأقدمين، وسمع الناس صوت غلام ضعيف في آخر الصف من الجامع، والتفتوا جميعا ليروا شابا رقيق الحال ظاهر الضعف، كفيف البصر يدرج النسب درجا عجيبا دونما تلكؤ أو لجلجة أو توقف إلى أن انتهى منه، واستمر السكوت

وساد الوجوم، وكان الأستاذ أول الواجمين الساكتين، ولكنه كان سكوت الإعجاب ووجوم الدهشة، وقام الأستاذ ونادى تلميذه الكفيف المجهول وربت على ظهره وهو يشجعه، وقام من الجانب الآخر الزيات نفسه ليتعرف على الشاب الجديد ويصبح وإياه صديقين حميمين.

ويتحدث طه حسين عن الأزهر فيقول في جملة ما قاله : «ويل للأزهريين من خبز الأزهر» وكانت للطلاب جراية يتناولونها، وكانت مؤلفة من الغذاء الخش - وينقم الشيوخ عليه لهذا السبب ولأسباب أخرى تتعلق بثورة الشاب... وعنفه... وقوة شكيمته - وتحتضنه الجامعة المصرية التي كانت تتألف إذ ذاك، وكان التنافس واضحا جليا بين الأزهر الذي يمثل القديم والجامعة التي تمثل الجديد - ثم ذهب طه حسين إلى فرنسا ودخل في السربون وتخرج من هناك دكتورا في الأدب، ثم عاد إلى مصر ليبدأ عظمته الأدبية وليفتح لنفسه الباب الذي مازال مفتوحا على مصراعيه.

وأول ما قام به الدكتور من حملات، كتابه الذي أسماه «الأدب الجاهلي» وقد تعرض فيه لكثير من الشعراء والأدباء الجاهليين، كما ذكر بعض النصوص الواردة في تلك العهود فأنكرها بما عرف عنه من حجة وقوة بيان، ونسبها إلى أشخاص من المخترعين الجدد الذين وضعوها ونسبوها للقدماء ليشهروها ويشتهروا بها - وقد تناولت أفكاره هذه بعض النواحي التي رأى فيها بعض المتزمتين مخالفة للشرع، واستغل ذلك بعض أرباب الغايات فقامت الدنيا وقعدت، وثار الأزهر ومن معه لكرامة الدين وصيانة الشرع إلى أن حكم على الكتاب بالحرق وإلى أن اضطر المؤلف الدكتور إلى كتابة نسخة جديدة أسماها «في الأدب الجاهلي» حذف منها بعض الشيء وأبقى بعضها الآخر حتى لقد قال في المقدمة ما نصه على التقريب : «هذا كتاب السنة الماضية حذفت منه فصول وأثبتت فصول...الخ.

وعاد لطه حسين اطمئنانه وهدوءه، واستأنف تأليفه وحديثه، وانثالت قريحته السيالة الفياضة، وأخذت الكتب تنبثق عن هذا الفكر الجبار في مختلف الأبحاث، فهو قصاص ومترجم وناقد ومحام، وكانت له جولات معروفة في كل هذه الألوان الأدبية، وفي تلك الأيام ذاتها أصدر الدكتور كتابه الشهير «الأيام» وكان كتابا رائعا حقا، فهو قصة نشأته وطفولته، وقصة هذه الآفة التي أصابته في أول أيام الحياة، ويتحدث لك طه حسين عن الملابسات التي أفقدته هذه الحاسة الغالية، وهو في ذلك يثير بك الحزن ويبعث الاسى ويضطرك اضطرارا إلى التألم والإشفاق.

وإذا قص عليك طه حسين قصة، سواء أكانت هذه القصة قصيرة أم طويلة، فاعلم أنه بالغ بك الأوج، وهو ككل الأدباء الكبار العالميين، يجيد بصورة خاصة هذه القصص التي ينتزعها من حياته الخاصة أو يدخل فيها من هذه الحياة بعض الألوان والمعاني، ومن هذا النوع الذي أكثر منه طه حسين... الأيام... أوديب... دعاء الكروان... ولعل القصص الأخرى تدور حول هذه الحياة والظروف التي مرت بها إن لم تكن وصفا مباشرا لها - ولكن الناحية العنيفة عند الدكتور طه حسين هي ناحية تذوقه الشعر حتى يخيل للمرء أنه يجب أن يقلع عن هذا النوع من الأدب والنقد، فإن آراءه فيه تكاد تكون مرتجلة حسب النقاد، وليس في ذلك عيب أو نقص بالنسبة للدكتور لأن ملكة الشعر والشعور به على ما يبدو تكاد تكون مستقلة عن بقية الميزات، وأن نقد الشعر عند أغلب النقاد يستلزم حسا خاصا في هذه الناحية، بل لابد لنقاد الشعر من أن يمارس الشعر قرضا، وربما كان أكثر هؤلاء من شعراء الدرجة الثانية أو الثالثة - وهذا «سانت بوف» Sainte Beuve سيد النقاد الفرنسيين قد عانى نظم الشعر حقبة طويلة وكذلك «أناتول فرانس» Anatole France وهذا العقاد، والمازني فقد كانا شاعرين إلى حقبة طويلة من الزمن ثم انصرفا عن هذه الوجهة... وإن يكن من سوء حظ الشعر العربي فإن النقاد يرون أن يستمر العقاد على النظم الثقيل البارد وأن ينهال بدواوينه على المكتبات رغم احتجاج القارئين المنكوبين، ورغم أنف رجال الأمن والصحة والإحسان وجماعة الشفقة والخير.

لقد نقد طه حسين المتنبي، فلم يوفق واختار له الشعر الذي لم يأتلف مع أذواق العامة والخاصة وإن يكن قد وفق في سرد حياة الشاعر ومرافقته في كتابه «مع المتنبي»، وكذلك كان رأيه في شوقي، فهو عدا التحامل البادي في نقده له وعدا ما في كتابته عنه من تحيز ونظرة

شخصية لم يزل يخلط بين الصحيح والسقيم من شعر الشاعر الكبير وخير دليل على هذا الخطأ في النقد رأى الدكتور كله في تطور الشعر عند شوقي، فهو يقول إنه بدأ مجددا، ثم عكف على التقليد في نهاية حياته، على عكس حافظ الذي بدأ مقلدا ثم أخذ بالتجديد في أخريات أيامه، وهذا رأى يخالف الحقيقة والواقع، فالناس جميعا على اختلاف مشاربهم يرون أن شوقي، وكل شاعر غيره، لابد أن يبدو مقلدا في مطلع حياته، وديوان شوقي يدل على هذا دلالة واضحة لا تحتاج إلى جدل أو نقاش، ويقول النقاد جميعا أن شوقي قد بدأ يصبح شاعرا كبيرا منذ أن ذهب إلى الأندلس - ويحددون هذا التاريخ بقصيدته السينية :

اختلاف النهار والليل ينسي
فاذكر لي الصبا وأيام أنسي

وقصيدته الأخرى :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا
نأسى لواديك أم نشجي لوادينا

لأنه أخذ - من ذلك التاريخ - ينعتق من سلطة القصر وقيوده، وراح الشاعر يشدو لنفسه، وهذا ما قاله طه حسين بعد ذلك بسنين، مما يدل على بعض التناقض في رأيي بالشاعر شوقي، وهو رأى يدل على عدم «الاختصاص» بنقد الشاعر.

ولعل لطه حسين ميزة أخرى قد لا توجد عند غيره، فهو من خير الشرقيين الذين يجيدون اللغة الفرنسية خطابة وارتجالا وحديثا، بل لعله خير مترجم عن هذه اللغة، وإن لم يعمل كثيرا في هذا اللون من الأدب، وللدكتور ترجمات عن الشعراء الفرنسيين المعقدين كبودلير (Baudelaire) وسوللي برودوم (Sully Prudhomme) وبول فاليري (Paul Valéry).

لا بدع إذن، أن طه حسين قد أصبح بحق عميد الأدب العربي الحديث لأنه جمع بين القديم والحديث، وألف بين العتيق والحديث تأليفا عجيبا معجبا... فهو أزهري النشأة، باريسي الثقافة دائم القراءة والمطالعة يتحدث بكل شيء ويقرأ كل شيء عن معرفة وقدرة وتعمق.

أما أسلوب طه حسين فالأسلوب الرائع الجذاب، وهو الكاتب الذي تقرأ له فلا تستطيع أن تتركه حتى تنجز ما أمامك من إنتاجه، سواء كثر أم قل... ويتألف هذا الأسلوب من كلمات منتقاة صحيحة رنانة وجمل مرصوفة أحسن رصف يربط بين هذه وتلك وسائل قوية صحيحة مضبوطة عمل فيها الحفظ والتثبت واليقين، وربما عاب عليه الخصوم الحاسدون بعض السهولة والتكرار في إنشائه، وجواب الفن في هذا، أن التكرار غير معيب إذا كانت الجمل جديدة والفكرة معادة بطريقة مستحدثة بل إن ذلك لدليل على سعة صدر الكاتب وبعد مداه، وملكه لناصية القول، فهو يرضي العامة من حيث السهولة والطبع، وهو يرضي شيوخ اللغة من حيث أنه صحيح لا يؤخذ عليه فيه مأخذ لغوي أو نحوي، وهو إلى كل هذا وذاك يأخذ بمجامع قلبك ونفسك ووقتك - فهو يعد سيد كتاب هذا العصر من العرب وهو كما ترى مفخرة من مفاخر اللغة العربية !

ثم بعد هذا... فإذا اقتربنا من شخصية مصطفى صادق الرافعي، هذا الكاتب العظيم هو أيضا، علينا أن ندقق النظر في بيئته الاجتماعية التي تعلن مقدماتها أنه من أسرة ذات علم وفضل، وهي سمة تميزت بها الأسرة الرافعية إلى درجة أن كاتبنا كان يرجع لقب أسرته إلى : «إن شيخا من آبائه عرف بالعلم والاجتهاد في الفقه فسماه الناس بالرافعي تشبيها له بالإمام الشافعي، وأن ينتبه إلى هذا الأمر السياسي البريطاني «كروم» فيضيف إلى تقريره السنوي لعام 1905 ملاحظة : «يكاد القضاء في مصر يكون وقفا على الرافعيين فمنهم أكثر من أربعين قاضيا».

وأن والد كاتبنا كان واحدا من كبار القضاة الشرعيين، وأن تفتح كرامة ابنه وهو طفل صغير على مجالس العلماء والأدباء يتوافدون على والده، وأنه كان يتكلم الفصحى مبكرا، وقد ورث مكتبة ضخمة انكب على كتبها فاستظهر القرآن العظيم والأحاديث النبوية الشريفة ونهج البلاغة لينصرف تماما إلى الكتب... انصرافا يؤذيه أولا : حين يتلهى عنه بوحشة الابتعاد والاغراق في التفكير والتأمل.... ويؤذيه ثانيا : حين أنهك جسده فمرض فأصيب بالصم إلى آخر حياته.

كان الرافعي يقرأ ثماني ساعات كل يوم بلا توقف دون أن يمل، ولا يرى إلا وفي يده كتاب يقلب صفحاته

ويقال إنه حفظ كتاب «نهج البلاغة» للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وهو في القطار من طنطا إلى طلخا، مقر عمله، ولم يبلغ العشرين من عمره ـ فقد كان معتزا بنفسه وأدبه وأسرته، يقوم بعمله خير قيام في المحاكم التي اشتغل فيها ـ عرف الحب في حياته... فتغنى ونظم الشعر ـ تأثر بالجاحظ والأصفهاني وهيجو عندما سمع بكتابه مترجما ـ وله جولات مع طه حسين وعباس محمود العقاد وغيرهما في النقد، وكتب في مجلة الرسالة.

وفي البحث عن دور الرافعي في فكرنا العربي ينبغي أن نتعمق أمرين على جانب كبير من الأهمية : أولهما الإشارة التي استغرقت سطورا قليلة من مقدمة كتاب الرافعي للدكتور كما نشأت والتي تقول : «كان الرافعي ـ رحمه الله ـ من كتاب العربية الذين جروا على منهج عربي مبين،تفكيرا وأسلوبا ـ وهو حلقة من حلقات تطور الأدب العربي الحديث تمثل «التيار التقليدي في نصاعته وبيانه» وثانيهما : تقييم المعارك الأدبية التي كان الرافعي طرفا فيها خصوصا معاركه مع كل من طه حسين وعباس محمود العقاد وكيف تمثل هذه المعارك محنة بالنسبة له ان لم تكن لعنة عليه، حين فرض عليه نوع من التعتيم الإعلامي ـ فلم ينل حقه ـ كغيره من الرواد ـ من الدراسة والبحث ـ فيبدو أن خصومة الرفاعي للأديبين الكبيرين إصابته بالأذى والجحود، حيث كان البعض يهاجمونه إرضاء لهما في حياتهما، ويتجاهلونه أو ينتقدونه إحياء لذكرهما بعد وفاتهما.

كانت كتابة الرافعي مزيجا من نزعة إسلامية شديدة، وفكر متدين صادق الدين، وعاطفة قوية مشبوبة، تخضع في فترات الكتابة إلى ما يمليه العقل، وميل إلى الأخذ من الحياة الحديثة بما لا يخالف الشرع والأخلاق وسمو روحي يدفع صاحبه إلى التقيد بالأخلاق الكريمة وقواعد الوفاء والشعور بالمسؤولية نحو المجتمع، والرغبة في إصلاحه والنهوض فيه كما لاحظ ذلك الأستاذ عيسى فتوح في دراسته عن سيرة الرافعي وأدبه.

ويستطرد فتوح : يكثر الرافعي من المحسنات اللفظية والصور البيانية ولا سيما الكنايات والتشابيه، وهو متين العبارة، عربي الديباجة، يعرف الفروق في مترادف الكلام، ويعني باختيار الألفاظ، ومواقعها، ويهتم بموسيقى الجملة، لكن أخذ عليه الغموض بعض الأحيان، لحشره المعاني الكثيرة في اللفظ القليل وتلاعبه بالإلفاظ، وتبديل مواقعها، لتؤدي معاني جديدة، فالنساء أنوار والأنوار نساء، والأزهار أنوار ونساء ـ كما يجنح إلى غرابة الاستعارة وبعدها كقوله : «إذ يأتي لك وحدك، ويأتي وأنت وحدك»، وإلى التعابير المبهمة كقوله : «وكانت ثمانية أرطال من الحياة في ثمانية أعوام من العمر»، واستعمال الألفاظ الفلسفية.

وهو من الكتاب الذين يقومون بجهد فني في كتاباتهم، فيصنعون جملهم وينقحون عباراتهم، وتستطيع أن تقول في مقالاته ما قاله فيها تلميذه محمد سعيد العريان : «هي عمل الفكر وكد الذهن، وجهد الأعصاب، ومديد النفس في أسبوع كامل، ولكنها أخيرا مقالات».

كان الرافعي غزير الفكر، يملي عليه تدينه كثيرا من الحكم والمواعظ الخلقية، ويوجهه في كتابته توجيهاإجتماعيا، إلا أن فكره لا يخلو من غموض، وانطلاقه لا يخلو من كثافة وجمود.

لقد خصص القسم الأكبر من مقالاته للدفاع عن الإسلام، ومصر، والشرق، ونزع فيها نزعة إسلامية شديدة، فيها من التدين والاندفاع الشيء الكثير.

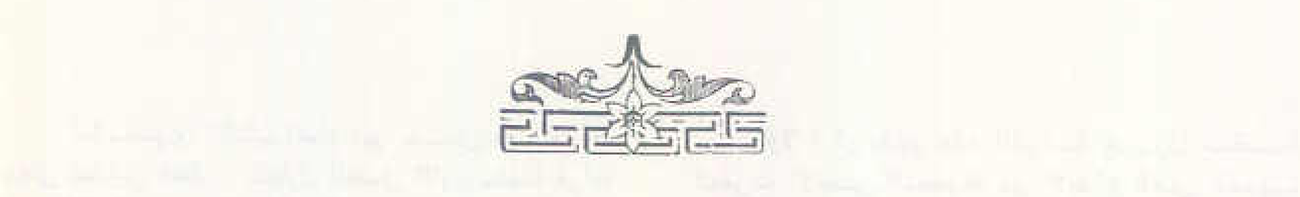
ومن الأسباب التي أدت إلى نقده وتجاهله والخصومة معه اتهام الرافعي بأنه لا يعترف بحقيقة الفصل بين الأدب والدين حتى أنه نبه إلى فساد منهج «يكون» الذي يميز الأدب عن الدين، ولعل ذلك راجع إلى أن الرافعي كان يتأثر بأسلوب القرآن ـ رغبة منه في إحياء الجملة القرآنية التي هي أساس اللغة العربية ومادتها الأصيلة ـ ومن هنا نراه يحرص على ذلك حتى في تركيب عباراته كما أحصى ـ دون اتهام ـ الدكتور كمال نشأت ـ حين أورد في كتابه بعض الاقتباسات القرآنية، والأستاذ مخلوف حين أشار إلى استخدام الرافعي لمنهج التوليد القرآني ـ وكذلك اعتزازه برأيه إلى درجة كانت تفرض عليه أحكاما متطرفة ـ وهو أمر متصل بظروف نشأته وفي مقدمتها إشارة والده وهو طفل صغير بأنه يجاهد في سبيل الله ـ وهذه الإشارة

مست من قلبه مكانا خاليا - ومن هنا أصبح الجهاد هدفا وأسلوبا فهو يرى أن الدفاع عن الإسلام جهادا، والدفاع عن اللسان العربي جهادا، والدفاع عن فضائل الحضارة الإسلامية جهادا، والدفاع عما يراه حقا في الأدب والنقد جهادا كما أشار الأستاذ سامح كريم.

وإذا كان البعض يتهم الرافعي بالتعقيد في الأسلوب، وأن جوانب من أسلوبه تقودنا من غموض إلى إبهام... فالحق أن الرافعي في حاجة إلى كثير من الإنصاف - لعله في القول المأثور : «إن الناس أعداء ما جهلوا» فالذي يجهل أسلوب القرآن الكريم وبيانه الحكيم لا يستسيغ أسلوب الرافعي، والذي يتجاهل بقصد أو بغير قصد جوانب البلاغة العربية الأصيلة سوف يجد صعوبة في فهم أدب الرافعي وفكره، والذي يفتقر إلى الإلمام بقواعد العربية ومفرداتها يشق عليه متابعة الرافعي ولقد اتهموه كذلك بتقليد أسلوب الكاتب العباسي «الجاحظ» - صحيح أن هناك أوجها للشبه بين الكاتبين الكبيرين، شبه في الأسلوب من حيث البلاغة العربية العالية - وشبه في المزاج من حيث التفنن في السخرية وشبه آخر في الإلمام الواسع بعلوم العربية إلى جانب ذلك الشبه الكبير بينهما في الغيرة المشوبة على كل ما هو عربي وإسلامي - إلا أن هذه الأوجه لا تجعل القارئ غير منصف فيحكم على الرافعي بأنه نسخة طبق الأصل من الكاتب العباسي - ذلك لأن كاتبنا المعاصر لو كان قد أقدم على هذه المحاكاة لما أصبح أدبه وفكره مدرسة قائمة بذاتها، ولما أصبحت كتاباته تختلف في عمومياتها وتفصيلاتها عن كتابات الجاحظ. وإنصافا للرافعي إذا كانت هناك أوجه للشبه لأن المنبع الذي استقى منه الأديبان كان واحدا وهو القرآن الكريم، فقد أتيح لهما تذوقه وتدبره ولذلك فالمرء يندهش من إطلاق هذا التقليد على الرافعي دون تحفظ للتقليل من شأنه والإعجاب إن لم يكن الهيام بأدب وفكر الجاحظ كما لاحظ الأستاذ حارث طه الراوي.

إن المتتبع لتاريخ الأدب العربي في عصوره المختلفة يلاحظ أن تباين أفكار الكتاب وبعض «الخصومات» لم تكن عاملا معوقا لمفهوم الوحدة في الأدب العربي وإنما أدت إلى التنوع وعاملا إيجابيا من عوامل ازدهار الأدب - والأدب المعاصر استفاد من هذه الاختلافات التي كانت مثار النزاع بين أصحاب القديم وبين المذهب الحديث.

سلا عثمان بن خضراء





قراءة وحوار لكتاب :

الأدب العربي المعاصر في المغرب الأقصى

من سنة 1963 إلى 1975

تأليف : الدكتور السيد حامد النساج
عرض وتقديم : زين العابدين الكتاني

اخترت ان اتناول كتابا جديدا صدر بالقاهرة بعنوان : « الادب العربي المعاصر في المغرب الاقصى من سنة 1963 الى 1975 » . للدكتور السيد حامد النساج عن احدى الدور المصرية للطباعة .

والكتاب من الحجم المتوسط ، يقع في 448 صفحة من الورق الردىء ، تنتهي فصوله بفهرس مفصل للكتاب ، وسرد للمصادر الاساسية التي اعتمدها المؤلف في الشعر ، والرواية ، والقصة القصيرة ، والنقد ، وقائمة بالصحف والمجلات والدوريات التي ارتكز عليها في بحثه الخاص والموجه توجيها معينا كما يبدو من مجرد تصفحه . . .

اما محتوى الكتاب العام فهو يشتمل على تقديم، وعلى فصلين فقط . يتناول الفصل الاول منهما قراءة في واقع المجتمع المغربي المعاصر ، والواقع السياسي و لاقتصادي والاجتماعي ، وحركة الفكر والثقافة . في حين يتناول الفصل الثاني الادب ، وحركة الواقع المغربي في الشعر والرواية والقصة القصيرة والنقد .

وتدور مواضيع الكتاب في اطار الفترة المحددة، والفنون التي سبق الاشارة اليها وذلك من اجل :

اولا : ان تدور هذه الدراسة حول منطقة المغرب الاقصى المجهولة من الابداع الفني يقدمها المؤلف ـ كما يقول ـ الى المكتبة العربية ناقد عربي ، ادرك اننا في المشرق العربي اكثر ما تكون في حاجة الى معرفة الفكر والثقافة والادب في هذا الجزء من وطننا العربي ، الذي يعرف قراؤه عنا كل شيء ، ولا نعرف عنهم اي شيء .

ثانيا : كما يتناول ما اشار اليه من الفنون ، وكل ما نشر في هذه الميادين في الصحف والمجلات

في الفترة المحددة ، وذلك على ضوء دراسة واعية للواقع المغربي المعاصر في كليته ... منطلقا من رؤية واضحة ومحددة ، يكشف عنها اسلوب التناول، وطريقة التحليل ، وزاوية النقد .

ثالثا : ويأتي – يقول الدكتور النساج – دليلا صادقا على ايمان الناقد بضرورة ان تكون (الوحدة الثقافية) بين كل بلدان العالم العربي حقيقة واقعية ، وممارسة عملية فعلية وليست مجرد شعارات وكلمات جرداء واماني واحلام (1) .

* * *

واذا ما انتقلنا مع مؤلف كتاب : « الادب المغربي المعاصر في المغرب الاقصى » لنتقلب الدوافع التي دفعته سلفا لهذه الدراسة فاننا نجده يقول (2) في مقدمة الكتاب ما يلي : « وليس من شك من اننا في المشرق العربي بعامة ، وفي مصر بخاصة لم تتح لنا الظروف كي تطلع على الآثار الادبية والفكرية والفنية التي ينتجها اخوتنا في المغرب الاقصى على وجه التحديد » ، في حين يؤكد في الصفحة السادسة : « باننا في مصر مقصرون تقصيرا واضحا في حق اخواننا ادباء المغرب الاقصى ، فنحن لا نتابع بجد واجتهاد كتاباتهم ولا نساير فكرهم ، ولا نكتب عنهم » .

ويمضي في الصفحة السابعة مستدركا « ... ان قصارى ما تستطيع هذه الدراسة ان تفعله هنا . هو ان تسهم في تعريف الادباء والمفكرين، وعامة القراء من المشرق العربي بهذا الادب الفوار ، المتحرك ، المشارك ، المتفاعل ، مدفوعة بحرص اصيل على الاشتراك في رسم ملامح للادب العربي المعاصر في المغرب الاقصى ، وتحديد قسماته البارزة وتعيين ابرز فنونه ، وبلورة الدور الذي يلعبه في هذه المرحلة الحضارية والنضالية التي يمر بها ذلك الجزء من عالمنا العربي » .

كما نلتقي مع الكتاب في الصفحة 8 حيث يقول : « ومن ثم فان الهدف من هذه الدراسة النقدية ... محاولة لمعاونة اخواننا الدارسين والنقاد المغاربة الذين ينظرون الى ادبهم نظرة غير علمية في بعض الاحيان بعيدة عن الموضوعية » ، كذلك يؤكد في الصفحة الثانية عشرة بقوله : « وكان على مثل هذه الدراسة ان تتسلح بوعي كامل ، وثقافة شاملة في محاولة لاستكشاف الادب الصادق في التعبير عن حركة مجتمعه وقضايا شعبه ومشكلات امته ...

وهكذا ، وقبل ان انتقل لتقليب ما ذهب اليه المؤلف والناقد والموجه الجديد في كتابه هذا من شتى الجهات ان اتوقف قليلا لأؤكد ان من يقرا مثل هذا الكلام يدرك بان صاحبه ثاقب النظر بعيده ، سديد الراي ، يعول عليه في تقييم الحياة الادبية في المغرب الاقصى ، بالرغم من ان التقصير حاصل في التعريف على هذا الادب من جانبه ومن جانب عموم المثقفين بالشرق العربي ، كما يؤكد ذلك صراحة حتى في التعريف بهذ الكتاب ،كما انه يتبادر الى الذهن لاول وهلة ان صاحب هذا الكتاب ينظر الى هذ الادب المغربي نظرة الاب او الوصي ، الذي يرى في محجوره انه لم يبلغ الحلم بعد ، انطلاقا من المفهوم الاستعماري .. مدعيا بأن عليه أن يجهد نفسه في تقويمه وتوجيهه ، مع العلم ان هذا الاب لم يلتق بهذا الولد ، ولم يعرف حتى متى واين ولد ، والى من ينتمي .. وهذه هي العقدة بل والقاعدة المستحكمة في مثقفي المشرق العربي اتجاه ادب المغرب العربي عامة والمغرب خاصة !!

كذلك ياتي هذ الناقد بعد هذه المقدمة لينسج للادب في المغرب الاقصى ثوبا وفق هواه ومزاجه،لا يخضع للمقاييس التي طرحها في المقدمة كما يطرح الديماغوجيون شعاراتهم في الساحات العمومية ...

لقد جشم هذا الكاتب نفسه عناء ما عليه من مزيد ، وذلك عندما جعل الفصل الاول في كتابه : « قراءة في واقع المجتمع المغربي المعاصر » ، وليت هذا العناء كانت له نتيجة ايجابية .. وليت ان الناقد وقف موقف الحكم ، لا موقف الخصم والحكم ... ويا ليت انها صفة الحكم التي هي من اوجب الواجبات الضرورية الاكيدة اللازمة الاولى لكل من ينصب نفسه في اي مجال من مجالات القول والعمل.

---

(1) انظر التعريف بالكتاب في الغلاف الخلفي .
(2) الصفحة : 5 .

وهكذا ، واذا كنت في هذا المدخل قد حاولت ان اجمل القول حول هذا الكتاب الجديد وأحدد نظرة عامة لما ذهب اليه المؤلف المذكور بوضوح لا غبار عليه — أؤكد مبدئيا — فيما يلي :

اولا : ان المؤلف يجهل الواقع المغربي وتاريخه وجغرافيته وثورة التحدي التي يعيشها بعد سنة 1956 في مختلف المجالات بصمت وواقعية ، بعيدة عن الاعلام الديماغوجي ، والاشهار الرخيص الذي يعتبر مصيبة الواقع العربي في مجال الفكر والمعرفة والتوجيه في قالب مكيف ...

ثانيا : انه اعتمد تخطيطا رخيصا لا اتواني في لمزه في الشكل والعمق بذلك ، وتكشف عنه نوعية المصادر والنظريات التي اختلطت عليه أو على من حدد موضوعه واشرف على انجازه كما يبدو واضحا دون بحث او تاكيد ...

* * *

ومن هنا ، ومن خلال ما سنرى تباعا نؤكد ان المؤلف النساج قد اعتمد على نظريات — ان صح هذا التعبير — وارتكز في بحثه هذا والموجه توجيها معينا منصبا على واقع المجتمع المغربي المعاصر ، والواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، وحركة الفكر والثقافة والادب ، وحركة الواقع المغربي في الشعر والرواية والقصة القصيرة والنقد ، فان فصول الكتاب يلاحظ انها كلها تدور :

1) حول منطقة المغرب الاقصى المجهولة من الابداع الفني التي يقدمها المؤلف — كما يقول — الى المكتبة العربية ناقد عربي ، ادرك اننا في المشرق العربي اكثر ما نكون في حاجة الى معرفة الفكر والثقافة والادب في هذا الجزء من وطننا العربي ، الذي يعرف قراؤه عنا كل شيء ولا نعرف عنهم اي شيء .

2) كما يتناول فيما اشار اليه من الفنون مما نشر في الصحف والمجلات في الفترة المحددة ، وذلك على ضوء دراسة واعية للواقع المغربي المعاصر في كليته ... منطلقا من رؤية واضحة ومحددة ، يكشف عنها اسلوب التناول ، وطريقة التحليل ، وزاوية النقد .

3) ويأتي — كما يقول المؤلف — دليلا صادقا على ايمان الناقد بضرورة ان تكون ، الوحدة الثقافية بين كل بلدان العالم العربي حقيقة واقعية ، وممارسة عملية فعلية وليست مجرد شعارات وكلمات جرداء ، واماني واحلام ، كما وكيفا . وكتب ونسج خيوط عناصره ومواضعه النقدية والتحليلية محاولا أن يصل بالقارئ الى اطار الموضوع ، ولكن هيهات على من يعرف كل شيء عن الشرق ان يخفى عليه منهج الاسلوب الذي سلكه المؤلف في كتابه عن الادب المغربي المعاصر) في منطلق « الوحدة » و « الفعلية » و « الحقيقة » ..

* * *

وعندما نلتقي مع الدكتور النساج في جانب آخر من كتابه ، وبالذات عندما نلتقي بالضبط معه وهو يتحدث عن السياسة المغربية التي جعلها هي محور المجتمع المغربي التي يقول عنها بالضبط : **« لعل اول ما يمكن ان يلاحظ سياسيا هو الفراغ الكامل في الحكم بعد ان وقع الحكم في عزلة عن الجماهير الشعبية** » ، تعمدت بالخصوص وبكل وضوح وصراحة ان انقل هذه الفقرة بالنص لانطلق للمناقشة منها بغية توضيح الحقيقة التي غفل عنها او وقع في خطا مقصود للخوض فيها ، وذلك باسلوب علمي صرف ، بعيدا عن الادعاء او النقد ، للوصول الى ان المنطلق يعمل وراء تركيز راي موحد ، او رغبة في العمل وراء خدمة غاية مقصودة تحاول ان تطمس تاريخا متسلسلا ، ومدرسة قائمة بذاتها تطاول الزمن ، وتصارع الزيغ والانحراف والتقلبات صامدة باصالتها وبتحديها بالحرية والوضوح في رسالتها حيث اتوقف قليلا مع المؤلف النساج وقفة قصيرة لنسأله : اي حكم يعني ؟؟ واي فراغ يشير اليه ؟ واية جماهير شعبية يقصد ؟ وهو يعطي لنفسه صلاحية صاحب مدرسة ، واستاذ للجيل ، ورائد لامة .. يحاول الاصلاح !؟

فاذا كان يعني نظام الحكم فنجيبه **بان النظام في المغرب اصيل منذ ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، وان المغاربة يختلفون من حوله مهما اختلفت مشاربهم السياسية والمذهبية لانه اختيار ، ولان الحكام هم منه واليه ، ورواد معاركه وقواد ثوراته خلفا عن سلف .**

(3) انظر مثلا الصفحات : 23 و 24 و 26 و 28 و 30 و 36 .

واذا كان يعني الفراغ في الحكم ... فاننا نقول له بانه هو الذي يشكو من هذا الفراغ ، لانه لا يملك مقومات اصدار الاحكام ، وهذا بين في الكتاب من اول صفحة الى آخر صفحة بدليل انه يحمل على نفسه عقدة مزمنة تمنى له الشفاء منها ، رغم ان كلماته تقطر علامات الاستفهام . واما المغرب فلا يشكو فراغا في الحكم ، بل يملأ الفراغ الموجود في الساحة العربية بكل حكمة ورزانة وحصافة راي ، تحظى بتقدير دولي ، وتتجلى في التقدم السريع والحثيث الذي تعرفه بلادنا في كل يوم ، بل وفي كل لحظة ، وفي جميع الازمات والتقلبات التي يعيشها غيره ، وما اكثرها واجدرها بالتاليف والملاحظة ...

واما الجماهير الشعبية فالمغرب قوامه اكثر من عشرين مليون نسمة ، وكله جماهير شعبية حتى الطبقات المترفة منها ، وخير دليل على ذلك هو تحقيق مسيرة القرن في اضخم عملية سلمية لتحقيق الوحدة ، وتخليص جزء من اراضيه من التسلط الاستعماري بكل اشكاله وجميع صوره ، اما الجماهير الشعبية التي يعنيها فليست في المغرب انماط منها، لان جماهير المغرب ملتفة بالعرش ، وفية له ، ملتزمة به ، وبقضاياه الوطنية وتعطي المثال والانموذج المثالي للعالم عن انسان العالم النامي الذي ادرك معنى التخلف بكل ما يحيط به ...

* * *

ثم ياتي الكاتب بوقائع واحداث سياسية عاشها المغرب بين الفترة الفاصلة بين 1963 و 1975 وكانه واكب المغرب في هذه المدة كل الاحداث والتطورات التي مر بها ، وهو الذي يعترف بان زيارته للمغرب كانت جد محدودة استطاع فيها ان يجمع مادة هذا الكتاب ، ونحن نهمس في اذنه ـ للتاريخ والحقيقة ـ بان المدة التي قضاها في المغرب لا يمكن باي حال من الاحوال ان تساعده حتى على قراءه بعض النصوص ، فاحرى سبر اغوار الاحداث واسبابها ونتائجها ... والاستشهاد بوقائع جرت في قرى ومداشير لا يعلم بها الا مسؤول كبير ، نظرا التدقيق الذي اعطاه ، او يعلم بها مسؤول في جهة سياسية ، تبلور الحدث وفق منطقها ومذهبها وهو يتهيا ، مما يجعلنا نجزم ونتاكد بان مؤلف الكتاب ليس له يد في ذلك كله لا من قريب ولا من بعيد ، وليس له الا اجر نشر ما اعطي له مكتوبا ... وجزاه الله خيرا على ما فعل ، لانه لولا ذلك ما استطعنا ان نعرف قصوره وتقصيره ، ان لم نقل جهله او تجاهله بدوره كمؤلف وناقد لموضوع كموضوع الادب المغربي الذي لم يختر حتى من يراجعه ابيه كما هي العادة في مثل هذه الموضوعات التي يعترف فيها بصراحة بانهم :

« لا يعرفون عنا اي شيء » ...

وهنا اتوقف ـ مرة اخرى ـ لانقل لمؤلف تاريخ ادبنا المعاصر ما كتبه العلامة انور الجندي ، ولا استبعد ان يكون استاذا للمؤلف النساج ، أو تناول كتبه بالدرس والمراجعة ، فانقل اليه هذه الفقرة التي عرف بها النهضة الفكرية المغربية الحديثة في كتابه الذي استهدف به وضع اطار للوحدة الفكرية والثقافية وهو « مفكرون وادباء من خلال آثارهم » حيث يقول باللفظ :

« ان المغرب العربي في نهضته الفكرية بعد الاستقلال ، يرسم صورة رائعة للعمل البناء في مجال التاليف والبحث والتعريب جميعا ...

فقد نهض عدد غير قليل من الشباب الادباء والعلماء فمضوا يشقون الطريق بقوة ، لبناء الفكر العربي الاسلامي المغربي على اسس ثلاثة :

اولا : بعث التراث واحياؤه وتقديمه وفق المنهج العلمي ، باعتباره يمثل صورة الامتداد التاريخي للادب العربي منذ فجر الاسلام الى اليوم .

ثانيا : احياء التعريب ودراسات اللغة العربية باعتبار ان للمغرب في مجال الفصحى دور ضخم يلتقي بالدور الذي قام به اللغويون في المشرق .

ثالثا : كتابة التاريخ المغربي العربي الاسلامي من جديد في مراحله المختلفة » .

هذا بالنسبة للاطار العام ، ولكن اين المؤلف من الاشارة لهذا الاطار اذا كان حقا باحثا ، ويحاول ان يكون ناقدا وموجها ..

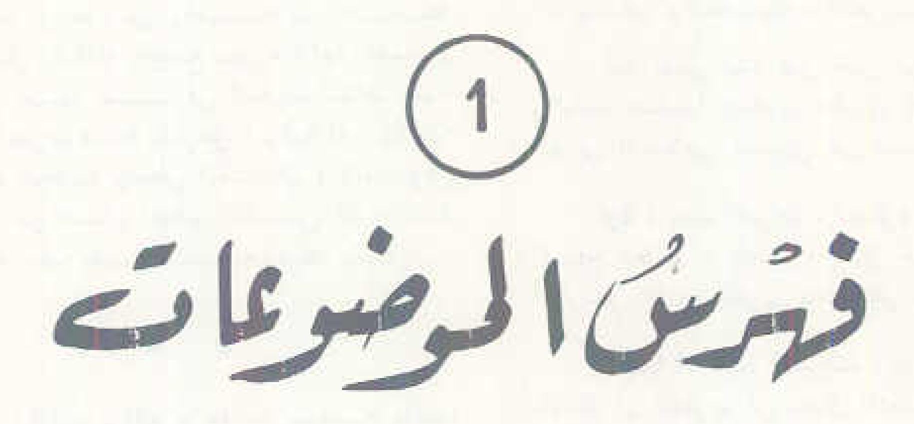
لكن الحقيقة المرة ان الدكتور النساج يجهل الواقع المغربي وتاريخه وجغرافيته وثورة التحدي التي يعيشها في مختلف المجالات بصمت وواقعية بعيدة عن الاعلام الديماغوجي ، والاشهار الرخيص .

وسنعود الى الموضوع في العدد القادم بحول الله .

زين العابدين الكتاني

الفهرس العام

لسنة 1984



إعداد : رشيد بوزيد

فهرس الموضوعات

الافتتاحية

موضوعات إسلامية

موضوعات مغربية

الموضـــوع	الكاتـب	العـدد	الصفحة
ـ الذكرى 24 لجلوس جلالة الحسن الثاني على عرش أسلافه المنعمين	الحاج أحمد معنينو	246	204
ـ شذرات من الفكر الحسني	مبارك الريسوني	246	205
ـ جلالة الحسن الثاني موحد البلاد وصانع الأمجاد	عثمان بن خضراء	246	211
ـ صوت الجامعة	عبد العزيز بغداد	246	216
ـ نهضة التعليم العالي في عهد جلالة الحسن الثاني	د. آمال جلال	246	219
ـ مسيرة تلو الأخرى لتحقيق الأفضل	دعوة الحق	246	233

موضوعات عامة

الموضـــوع	الكاتـب	العـدد	الصفحة
ـ خزانة الجامع الكبير بمدينة مكناس	محمد العرائشي	243	107
ـ القراء وائتلاف الكلام	د. التهامي الراجي الهاشمي . . .	234	133
ـ أبو عمران موسى ابن العقدة الأغصاوي	عبد القادر العافية	234	137
ـ في العقيدة والأخلاق	محمد بن إبراهيم بخات	234	169
ـ الوجادات (922 ـ 933)	عبد القادر زمامة	234	176
ـ حزب الجو	د. عبد الهادي التازي	235	32
ـ مصطفى صادق الرافعي في سيرته وأدبه	عيسى فتوح	235	63
ـ مع اللغة (7)	محمد بن تاويت	235	67
ـ تصورات في الثقافة والصحافة	محمد الجحرة	235	81
ـ المعركة العلمية بين الرافعي وطه حسين	عثمان بن خضراء	235	96
ـ حول تحقيق نص ديوان البهاء زهير	حسن الأمراني	236	78
ـ ماذا يعرف الرضيع ؟	أحمد عبد السلام البقالي	236	92
ـ أوليات ـ أوائل علي	محمد العرائشي	236	114
ـ أبو عبد الله الفرطاخ العالم المحدث	سعيد أعراب	237	39
ـ الطب الأندلسي بين هفوة الإهمال وغفوة النسيان (5)	د. عبد الله العمراني	237	72
ـ خطبة طارق ابن زياد مصادرها واختلاف نصوصها (2)	عبد العزيز الساوري	237	84
ـ الوجادات (934 ـ 948)	عبد القادر زمامة	237	91
ـ مع اللغة (8)	محمد بن تاويت	238	49
ـ المادية والصراع	د. إبراهيم دسوقي أباظة	238	70
ـ الرؤية المعتبرة شرعاً وشروط قبولها	محمد بن عبد الرازق	238	74
ـ الكتاب المدرسي بين الإيجابيات والسلبيات	مصطفى بغداد	238	91
ـ إعادة الاعتبار لجاليليو بقلم : فريدريك غولدن ترجمة :	أحمد عبد السلام البقالي	239	77
ـ الطب الأندلسي بين هفوة الإهمال وغفوة النسيان (4)	د. عبد الله العمراني	239	79
ـ الوجادات (949 ـ 964)	عبد القادر زمامة	239	93
ـ مناقشة ورد	ممدوح حقي	240	32
ـ العناية بالوثائق مظهر من مظاهر الحضارة	مبارك الريسوني	240	82
ـ الأصول السوسيولوجية للعاطفة العربية	أحمد بودهان	241	37
ـ أقدم مسجد بمنطقة رباط الفتح (1)	د. عثمان إسماعيل	241	55
ـ أبو عبد الله الفرطاخ العالم المحدث (2)	سعيد أعراب	241	65
ـ الإنسان لا يصبح إنساناً إلا بالتربية	مصطفى بغداد	241	90
ـ أقدم مسجد بمنطقة رباط الفتح (2)	د. عثمان عثمان إسماعيل	242	33

ديوان دعوة الحق

مكتبة "دعوة الحق"

الكتـــاب والمؤلـــف	عـرض وتقديـم	العـدد	الصفحة
ـ جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس	تأليف : أحمد بن القاضي المكناسي عرض : محمد العلمي حمدان	235	94
ـ كتاب الزهد والرقائق	تأليف: أبي عبدالرحمن عبدالله المبارك عرض : محمد بن عبد العزيز الدباغ	236	105
ـ مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور الموحدي	تأليف : عبد الهادي الحسيسن عرض : محمد بركاز	236	110
ـ المجتمعات الإسلامية في القرن الأول (2)	تأليف : د. شكري فيصل عرض وتعليق : محمد محيي الدين المشرفي	237	62
ـ بيبليوغرافيا إسبانية حول شمال إفريقيا (1850 ـ 1980)	تأليف : أضولفو خيل عرض : محمد قشتيليو	238	89
ـ الأرجوزة الطبية	أبي بكر ابن الطفيل عرض : محمد بن عبد العزيز الدباغ	239	58
ـ الأزهر بين السياسة وحرية الفكر	تأليف : محمد رجب بيومي عرض : إدريس الزمراني	239	90
ـ ملابس الأنوار ومظاهر الأسرار	تأليف : محمد بن القاسم بن داود السلوي عرض : محمد بن عبد العزيز الدباغ	240	57
ـ مسند أبي بكر الصديق	تأليف : شعيب الأرناؤوط عرض وتقديم : زين العابدين الكتاني	240	75
ـ رسالة ابن البنا على الصفيحة الزرقالية الجامعة (1)	لابن العباس الأزدي المراكشي عرض وتحقيق : محمد العربي الخطابي	241	20
ـ المنتقى من أدعية المستغيثين بالله	لابن بشكوال عرض : محمد بن عبد العزيز الدباغ	241	81
ـ المغرب	تأليف : الصديق بلعربي عرض أحمد متفكر	241	108
ـ رسالة ابن البنا على الصفيحة الزرقالية الجامعة (2)	لابن العباس الأزدي المراكشي عرض وتحقيق : محمد العربي الخطابي	242	19
ـ أخطاء لغوية	تأليف : عبد الحق فاضل عرض : أحمد متفكر	242	97
ـ مسند عبد الله بن عمر تأليف العلامة الطرسوسي	تحقيق راقب عرموس عرض وتقديم زين العابدين الكتاني	243	106
ـ من روائع المخطوطات في خزانة القرويين (1) كتاب الروض المريع في صناعة البديع	ابن البناء عرض محمد بن عبد العزيز الدباغ	244	17
ـ من روائع المخطوطات في خزانة القرويين (2) كتاب الروض المريع في صناعة البديع	عرض محمد بن عبد العزيز الدباغ	245	87
ـ الإسلام في مواجهة أعدائه ـ تأليف : توفيق علي وهبة	عرض محمد إبراهيم بجات	245	105
ـ من روائع المخطوطات في خزانة القرويين فلك السعادة الدائر بفضل الجهاد والشهادة ـ الفقيه محمد	عرض محمد بن عبد العزيز الدباغ	246	152

القصة والمسرح

الموضــــوع	الكاتــب	العــدد	الصفحة
- بطل دون أن يدري	أحمد عبد السلام البقالي	234	113
- ليلة الزفاف وأيام العرس	محمد أحمد اشماعو	235	99
- شبح في الظلام	أحمد عبد السلام البقالي	243	110

من نشاط وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية

الموضــــوع	العــدد	الصفحة
- توزيع الجوائز على الفائزين في المسابقة الأدبية حول السيرة النبوية	234	237
- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية تضع برنامجا موسعا للتوعية الدينية	236	121
- وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية يلقي كلمة توجيهية هامة في الجمع العام لرابطة نظار الأوقاف بالمغرب	237	100
- اجتماع المجلسين العلميين بالناظور والعيون	238	97
- اجتماع رؤساء المجالس العلمية الإقليمية برئاسة وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية	238	103
- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية تحتفل بعيد الشباب	239	97
- تدشين المقر الجديد للمجلس العلمي بالدار البيضاء ـ دورة تكوينية للطلبة المغاربة المتجهين إلى الدول الإسلامية لنشر اللغة العربية	239	99
- السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية يترأس الوفد المغربي الرسمي لموسم الحج	240	101
- كلمة وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية في إطار برنامج تبادل الزيارات بين المجالس العلمية الإقليمية ألقاها في مدينة وجدة	242	106

الخطب والكلمات الملكية السامية

خطب وتوجيهات صاحب الجلالة	العــدد	الصفحة
ملف عن مؤتمر القمة الإسلامي الرابع المنعقد بالدار البيضاء		
- خطاب جلالة الملك الحسن الثاني في الجلسة الافتتاحية	234	189
- خطاب جلالة الملك الحسن الثاني في الجلسة الختامية	234	195
- رسالة جلالة الملك إلى قادة ورؤساء الدول الإسلامية	234	210
- جلالة الملك يترأس اجتماع المجلس العلمي الأعلى ويعين الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري وزيرا للأوقاف والشؤون الإسلامية	235	4
- خطاب جلالة الملك الحسن الثاني في عيد العرش	235	13
- جلالة الملك الحسن الثاني في الاجتماع الطارئ للجنة القدس، كلمة الافتتاح	236	4
- جلالة الملك الحسن الثاني في الاجتماع الطارئ للجنة القدس، كلمة الاختتام	236	6
- خطاب جلالة الملك الحسن الثاني بمناسبة اليوم العالمي للقدس	237	4



الفهرس العام

لسنة 1984

2

فهرس الكتّاب

حرف (أ)

حرف (ب)

الموضـــوع	الكاتـب	العـدد	الصفحة
	ـ كنز على ضفة نهر «تاريوكوتومي»	244	116
	ـ هدية أنت من رب السماء	246	86
بن تاويت محمد	ـ سمة العرش الصمود	234	32
	ـ مع اللغة (7)	235	67
	ـ مع اللغة (8)	238	49
	ـ العرش المغربي أقدم عرش في الإسلام وأثبته في العالم	246	55
بن جلون أحمد مجيد	ـ المغرب الصامد	234	179
بن خضراء عثمان	ـ العهد الحسني والتحدي الشامخ	234	67
	ـ المعركة العلمية بين الرافعي وطه حسين	235	96
	ـ جلالة الحسن الثاني موحد البلاد وصانع الأمجاد	246	211
بن عبد الرازق محمد	ـ الرؤية المعتة شرعا وشروط قبولها	238	74
البعلمشي أحمد يكن	ـ مآثر جلالة الحسن الثاني في نشر الفكر الإسلامي وإحياء تراثه الخالد	246	195
بنعبد الله عبد العزيز	ـ العرش المغربي أقدم العروش (1)	234	21
	ـ العرش المغربي أقدم العروش (2)	235	45
	ـ العرش المغربي أقدم العروش (3)	236	21
	ـ العرش المغربي أقدم العروش (4)	237	17
	ـ جوامع المغرب ومساجده نماذج للفن المعاري المغربي	238	11
	ـ المغرب بين الإمامين البخاري ومسلم	240	22
	ـ الزاوية المغربية كمنتدى للفكر والإشعاع العلمي (1)	243	75
	ـ الزاوية المغربية كمنتدى للفكر والإشعاع العلمي (2)	244	20
	ـ الزاوية المغربية كمنتدى للفكر والإشعاع العلمي (3)	245	21
	ـ جلالة الحسن الثاني رمز الأصالة والتجديد	246	15
بن عبد الله محمد	ـ ناظر الوقف (1)	237	51
	ـ ناظر الوقف (2)	239	33
	ـ ناظر الوقف (3)	240	49
	ـ ناظر الوقف (4)	242	37
	ـ ناظر الوقف (5)	243	41
	ـ ناظر الوقف (6)	244	62
	ـ ناظر الوقف (7)	245	38
	ـ النشاط العمراني للدولة المغربية	246	174
بن سودة أحمد	ـ دورالقرويين ماضيا وحاضراً ومستقبلاً	241	17
بن شقرون الحاج أحمد	ـ السلطان المولى محمد بن عبد الله ومآثره الخالدة	234	35
	ـ إحياء كراسي العلم بجامع القرويين	242	88
	ـ المقدسات الإسلامية	246	19
بوخبزة أويس	ـ الأستاذ محمد داوود لحن الذكرى	241	106
بودهان أحمد	ـ الصحوة الإسلامية تاريخا ومنهجا ودور المغرب في تدعيم أسسها	234	162
	ـ المساواة في الإسلام بين النظرية والتطبيق	237	25
	ـ الأصول السوسيولوجية للعاطفة العربية	241	37
البوزيدي علال	ـ لمحات حول المفكر الإسلامي الرائد محمد إقبال	240	87
البوشيخي عبد القادر	ـ الحضارة الإسلامية أسسها وعوامل نشأتها الداخلية	239	41
بوشتى الريفي	ـ إحياء منابر جامع القرويين	244	98

حرف (ت)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (خ)

حرف (د)

حرف (ر)

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
الريسوني مبارك	- عرش المغرب عرش بناء ونضال	234	89
	- العناية بالوثائق مظهر من مظاهر الحضارة	240	82
	- شذرات من الفكر الحسني	246	205

حرف (ز)

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
الزكاري محمد العربي	- رسالة العرش العلوي متواصلة وبيعة الشعب المغربي خالدة	234	60
	- على هامش أحداث 20 غشت : مواكب النصر	239	17
	- دور المغرب في إثراء الفكر الإسلامي يتجدد	245	84
	- وهذا صراط ربك مستقيماً	246	67
زمامة عبد القادر	- الوجادات (922 ـ 933)	234	176
	- الوجادات (934 ـ 948)	237	91
	- الوجادات (249 ـ 964)	239	93
الزمراني إدريس	- الأزهر بين السياسة وحرية الفكر	239	90

حرف (ص)

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
الصقلي محمد بن حماد	- كراسي الهدى	242	90
صلاح وجيه فهمي	- منار الهدى	234	غلاف 3
	- كأن خطوك أنداء ترويها	246	108

حرف (ع)

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
العافية عبد القادر	- أبو عمران موسى ابن العقدة الأعصاوي	234	137
	- الاتجاه السلفي بالمغرب	240	72
	- الاسفاف والتردي وحضارة الغرب	245	72
د. عبد الحميد محسن	- تطور الفكر الإسلامي	236	62

حرف (ف)

حرف (ق)

حرف (س)

حرف (ش)

حرف (ك)

حرف (ل)

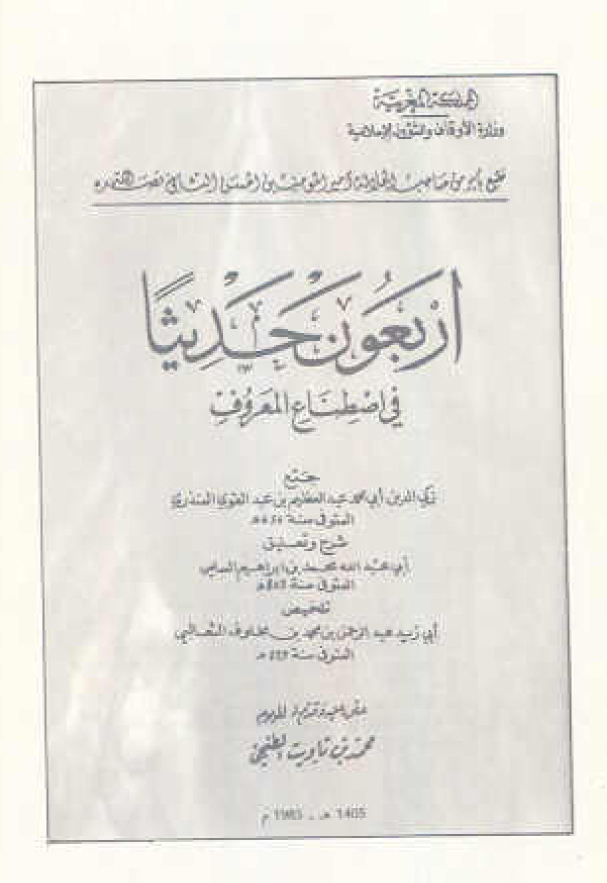
حرف (ن)

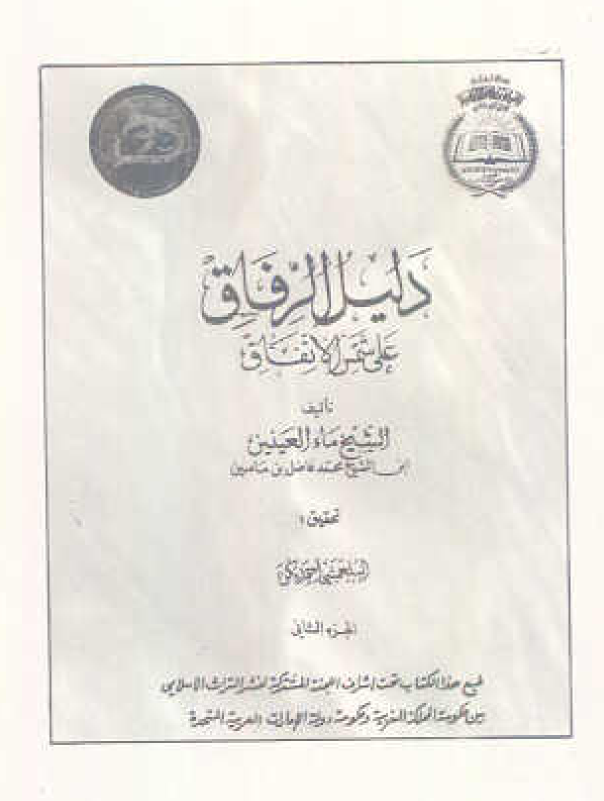
حرف (م)

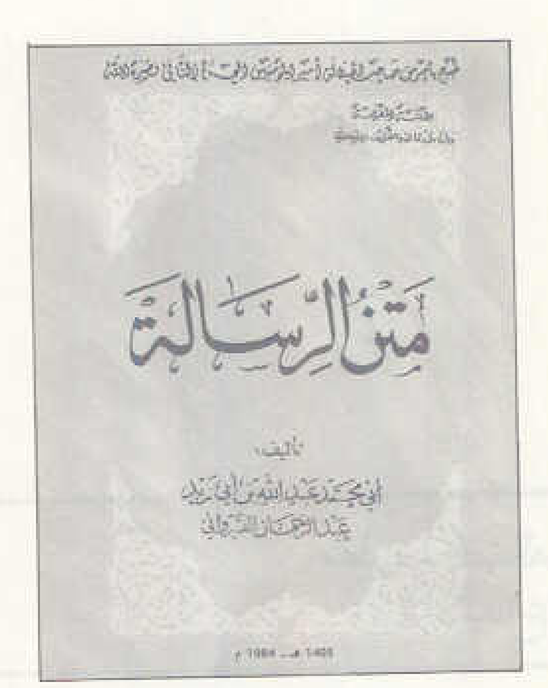
حرف (هـ)

حرف (و)

من مطبوعات
وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية









التوزيع : مكتبة الأوقاف، 5 زنقة بيروت، ساحة المامونية، الرباط

مطبعة فضاله . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3

إعـــلان

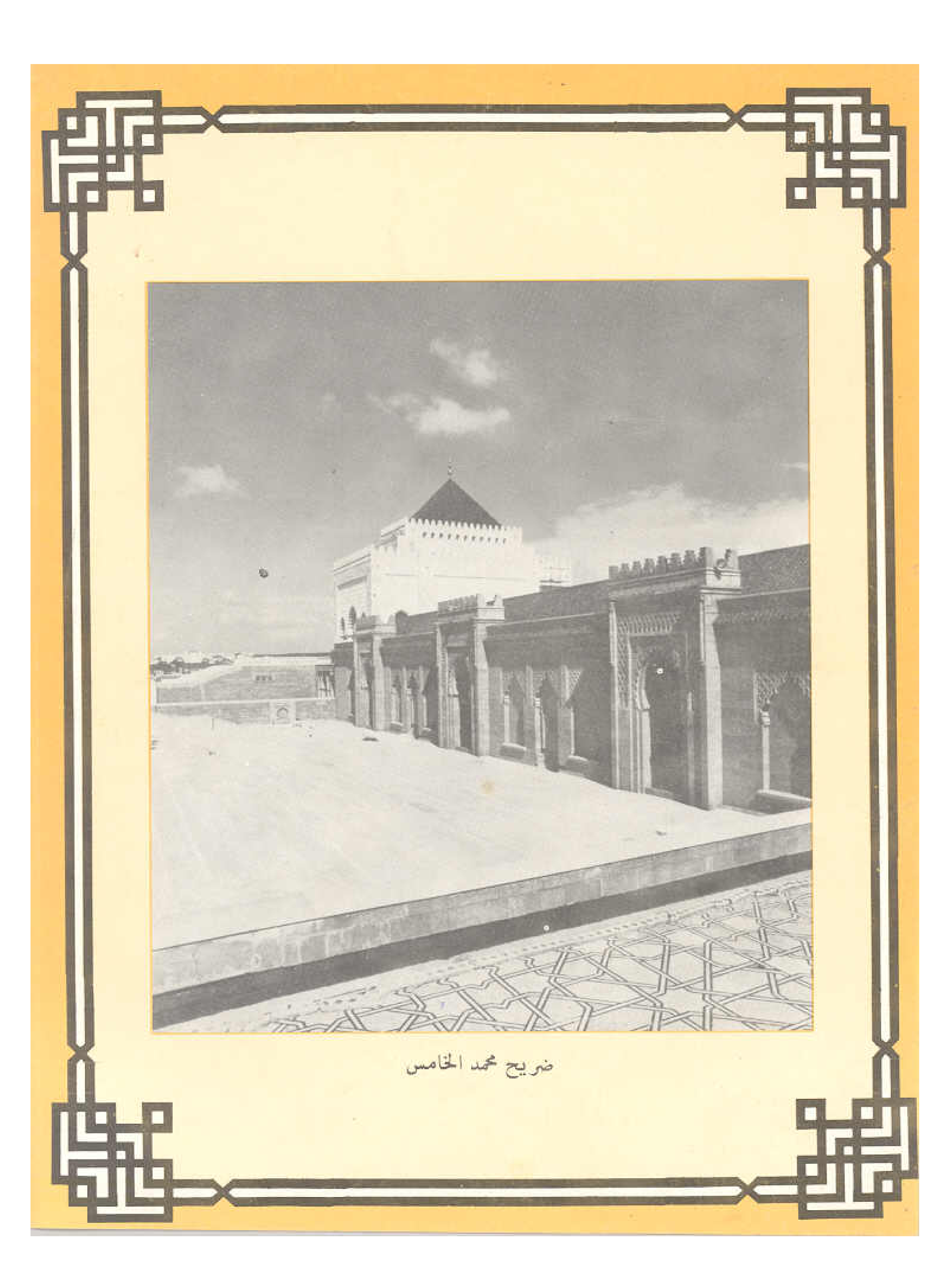
في إطار العمل الإسلامي الذي تضطلع به وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، لخدمة التراث الإسلامي عموما، وما يتصل منه بالتراث المالكي على الخصوص والهادف إلى إخراج نفائسه ونشرها على أوسع نطاق.

يسعدها أن تعلن عن اعتزامها تحقيق وإخراج الكتابين التاليين :

- تهذيب المسالك إلى نصرة مذهب الإمام مالك :ليوسف الفندلاوي.

- الدر المنظم في الاحتفال بمولد الرسول المعظم :للعزفي.

لذا، فعلى السادة العلماء والأساتذة والباحثين وكل من له رغبة في تحقيق أي من الكتابين المشار إليهما أن يتقدم بطلب في الموضوع إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (قسم الدراسات الإسلامية أو مصلحة إحياء التراث الإسلامي) مع إثبات اسمه الكامل وعنوانه ورقم الهاتف إن أمكن.



ضريح محمد الخامس